23
P2
V.1

232.9: P21 h A[redacted] v.1 c.1
پاپيني - جيوفاني
حياة المسيح ترجمة الارشمندريت انطونيوس بشير

JAN 4

232.9
P21hA[redacted]
v.1 c.1
JA 16 54

JAFET LIB.
29 JUL 1991

JAFET LIB.
15 AUG 1991

الى المؤلفين
واصحاب المجلات والجرائد العربية
في كل مكان

نلفت انظار الرصفاء الكرام اصحاب المؤلفات المصرية والصحف العربية الزاهرة الى عنواننا الجديد الدائم كما ادناه راجين ممن يبادلنا منهم ان يواصلنا بمطبوعاته الجديدة ونحن بكل سرور نواصله بمطبوعاتنا وباجزاء الخالدات تباعاً و نؤمل من كل مؤلف ان يرسل الينا كتبه الجديدة والقديمة لندرسها و نفرد لتقريظها فصلاً خاصاً في آخر كل مجلد من الخالدات ان شاء الله

عنواننا دائماً : **الخالدات**

Rt. Rev. Antony Bashir
1201 First East Street
Vicksburg Miss.
U. S. A.

مطبوعات الارشمندريت انطونيوس بشير

١ ـ الحياة البسيطة لواغنار
٢ ـ الرجل الذي لا يعرفه احد لبرتون
٣ ـ اعتراف تولستوي
٤ ـ حياة المسيح لبابيني ـ جزء اول
٥ ـ حياة المسيح » ـ جزء ثان
٦ ـ المجنون لجبران
٧ ـ السابق »
٨ ـ النبي »
٩ ـ رمل وزبد »
١٠ ـ كلمات جبران »
١١ ـ ابن الانسان » (معد للطبع)
١٢ ـ دروس في الكنيسة الارثوذكسية انكليزي
١٣ ـ التعليم المسيحي الارثوذكسي »
١٤ ـ اقرأ وفكر
١٥ ـ مراقي النجاح (تحت الطبع)
١٦ ـ اليوم وغدا لبرزباين (تحت الطبع)
١٧ ـ ثلاثة مفكرين في الدين (تحت الطبع)
١٨ ـ الكتاب الذي لا يعرفه احد »
١٩ ـ ديانة تولستوي »
٢٠ ـ انجيل تولستوى
٢١ ـ السنة الاولى من مجلة الخالدات
٢٢ ـ لماذا أنا مسيحى لكراين

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY
232.9
P21hA
38434

حيـــاة المسيح

الجزء الاول

بقلم الفيلسوف الايطالي الشهير

جيوفاني بابيني

ترجمه عن الانكليزية

الارشمندريت انطونيوس بشير

وطبع على نفقة مجلة الخـــالدات

هذا الجزء هو المجلد الثالث من السنة الثانية للخالدات

ويليه الجزء الثـــاني

ثمن هذا الكتاب لغير مشتركي الخالدات دولار ونصف في اميركا ما عدا اجرة البريد — وثمنه للمشتركين دولار في اميركا و ٢٠ قرشاً مصرياً في الشرق خالص اجرة البريد

مطبعة العرب للبستاني — الطبعة الاولى — PRINTED IN EGYPT
[illegible]

اهداء الكتاب

الى الشبيبة الناطقة بالضاد في الشرق والغرب

اليكم يا اخوتي شبان الشرق العربي المحبوب، المتفرقين في هذه البلاد النائية والمتخلفين في المواطن العزيزة - انتم الذين احبكم يسوع وقاس القداسة بمقياس طهارة قلوبكم عندما قال: « ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد لن تدخلوا ملكوت السماوات » اليكم يا ازهار بلادي وكل آمالها من الحياة، اليكم اهدي هذا الكتاب الذي يصف حياة المحرر الاكبر ورجاء الانسانية الاوحد، الذي احبكم ويحبكم وسيحبكم الى الابد

فاجعلوا حياته نبراساً تستنيرون بنوره لتبلغوا ميناء السلام السعيد وتنهضوا بوطنكم الى اوج الراحة والعمران والعظمة .

اخوكم الحقير

اميركا الشمالية - ١٩٢٩ الارشمندريت انطونيوس بشير

بيان وشكر

قد ترجمت هذا الكتاب منذ خمسة أعوام اجابة لاقتراح حضرة الاستاذ العالم السيد نعوم مكرزل صاحب جريدة الهدى الغراء في مدينة نيويرك ليطبع في مطبعة الهدى الزاهرة . وقد طبع الاستاذ مكرزل ، الشديد الغيرة على كل خالد من الادب ، القسم الاكبر من هذا الكتاب ولكن الحريق الذي أصاب مطبعته منذ ثلاثة أعوام ذهب بالمطبوع من الكتاب قبل ان يتجلد ويعرض للبيع .

ولما كانت أشغال الاستاذ الكثيرة قد حالت دون طبع هذا السفر الخالد مرة ثانية لذلك رأيت ان اقوم اليوم بطبعه وجعله جزءين من الخالدات التي وقفت صفحاتها منذ بداءة سنتها الثانية على نشر خالدات الادب الحديثة والقديمة في لغات الغربيين وليس بينها ما هو احق بالنشر من هذا السفر .

واني شاكر للاستاذ العالم والصديق الأديب السيد نعوم غيرته اذكر فضله في كل حال وبكل سرور انشر الكلمة التي تلطف

بكتابتها في صدر هذا الكتاب مع الفصل القيم الذي كتبه قدس الاب العالم الخوري منصور اسطفان مؤملا الا يضن علينا الاستاذ المحبوب بالفصل الذي وعد ان يعقده ليكون « مؤخرة » للكتاب لا «مقدمة» لنضيفه الى الجزء الثاني ان شاء الله .

الارشمندريت انطونيوس بشير

المتمرد المصلح والابن الشاطر

ان استطعت وصف الرعد بهزيمه ، والزلزال باختلاجه ، والاتيّ بجرفه ، والاعصار بتدميره واجتحافه ، فانت قادر على وصف جيوفني پاپيني الذي كان تارة كفوزيفوس بلاده يتقيأ الحمم وطوراً كالنسيم المهينم فيه الانعاش والموسيقى

رجل متمرد – ثائر – خارج على الرثّ من التقاليد في طلب الجديد المفيد – رجل معجب ببولس الرسول وبالقديس اوغسطينوس اعجابه بالتطرف الموصل الى المعرفة ، واي موهوب على معدل تسعين في المئة لم يكن متطرفا « يختبر الامور كلها ليتمسك بافضلها »

لما اقترحت ترجمة « تاريخ المسيح » لجيوفني پاپيني اقترحت سدّ فراغ في عالم الناطقين بالضاد ، واستبدال الشحوب بالنضارة ، فلبى النداء الارشمندريت انطونيوس بشير وكان له في ذلك الجمّ من الفضل ، لانه لم يأل جهداً في جعل الترجمة مثالا جميلا من المعرفة والمقدرة والتجرد ، الاّ انه عجز عن ان يكون الاكويني والليغوري وفم الذهب والمعري وابن رشد وابن سيناء وابن المقفع والسمعاني وافرام السرياني والجاحظ وبديع الزمان واليازجي وفارس الشدياق في وقت واحد

حذا جيوفني بابيني حذو بولس الرسول والقديس اوغسطينوس او انه تحداهما

وقد نعقد فصلا نضيفه الى الكتاب يكون « مؤخرة » لا «مقدمة» فمن شآء ان يسمع الرعد قاصفاً ، والصراحة عارية ، والبلاغة ماثلة ، والايمان والرجآء والمحبة على عروشها ، ومن كان جائعاً الى المعرفة فليقرأ هذا الكتاب مسيحياً كان ام غير مسيحي لأن الجواهر لا تختصّ بفئة دون أخرى

نعوم مكرزل

نيويرك .

جيوفاني بابيني

ما أنت ميتة ولكن حائرة : يا نفس !!

بقلم الاب الاديب صاحب الامضاء

« في احد من آحاد آب الخانقة ، نحو الساعة الرابعة ، كنت اتنزه وحدي كعادتي حزيناً كئيباً ، في اطول شارع من شوارع فلورنسا واعرضها ، وفي يدي جريدة — شريتها ، والله اعلم باي ثمن من الهوان — وكنت امشي رأسي محني ، تعباً ، مجهداً ، سئماً ، مغضباً ، ناقماً من الحر وعلى البشر . . . وتلك ساعة ينهض فيها الناس من قيلولتهم بلداء ، ويخرجون من منازلهم وفيهم خادع الامل ان يجدوا في الخارج نسمة هواء وطراوة المساء . . . . وازدحمت الجموع وتراصت على الارصفة ، وهم سائرون يتضاحكون ويتبادلون التحايا . . .

« وإذا انا على غير ما اهوى . ما كنت اعرف احداً وكنت ابغض كل احد . كنت قبيح الهندام ، وكنت دميم الصورة ، وكنت اصفر اللون وفي ملامحي قساوة النفور وعدم الرضى . وكنت اشعر ان لا احد يحبني ، ولا احد يمكنه ان يحبني . ومن نظر الي احتقرني بكل قواه وسار وتعداني ويلتفت بعضهم ازوراراً الى المتوحد

الذي مر وجاز ، ويستهزئون بي ولاسيما الصبايا الصباح المحيا بملابسهن الحمراء والبيضاء ، ووجوههن السمراء ، واسنانهن اللامعة ، فقد كن قاسيات علي وكثيراً ما كنت اسمع وراء ظهري قهقهتهن الرنانة — لعلهن ان لم يكن مني ضاحكات ، ولكنني كنت في تلك الساعة متأ كداً وكنت أتألم . . . وكانوا كلهم في غبطة وهناء .

« حين ذاك وعلى الفور كنت اثور واحس كأن في نفسي غليان دم وفي كل اعضائي اضطراباً . واصيح : لا ، لا ، لا ، لن يكون هذا . اني انا ايضاً رجل . واني انا ايضاً اريد ان اكون عظيماً وسعيداً ! ومن تظنون انكم انتم ايها الرجال الحمقى والنساء المتنوقات الذين تمرون بقربي بمثل هذا التفخم ؟ سترون ما ذا اعمل انا . اريد ان اكون اعظم منكم ومنكم اجمعين وفوقكم اجمعين !

« انا صغير ، انا دميم ، انا فقير ، ولكن لي نفساً وهذه النفس ستعج عجات فتلتفتون الي جميعكم وتستمعون . اذ ذاك اعمل شيئاً وتظلون لا شيء . سأعمل واخلق واصبح اكبر من اكبركم وتظلون تأكلون وتشربون وتتنزهون كاليوم . . . ومتى مررت ينظر الي الجميع . النساء الجميلات تكون لهن الي نظرة ، والفتيات الضاحكات يبحثن عني ويأخذون يدي راجفات ، والرجال الرصناء يرفعون قبعاتهم عاليات جداً فوق رؤوسهم عند ما اجوز انا ، انا ذاتي ، انا الرجل العظيم ، انا النابغة ، انا البطل . . . »

زفرة من زفرات النفوس الطماعة الطماحة الى اعلى ذرى العلياء حتى قمة الالوهية ! وصورة مصغرة جداً عن منازع قلبه النزاع الى امتلاك كل شيء والتسلط على كل شيء، صورها في كتاب له صدر سنة ١٩١٢ عنوانه « رجل متناهٍ » يصف مطامع رجل غير متناهية . وكان قد اجتاز عتبة العقد الثالث من سنيه وولج الرابع . اذن يوم كان في ابان فوران الطموح وغليان التشوق الى مرقى المجد ومثوى الخلود ، او بالاحرى يوم كان يرى نفسه تفيق من غيبوبة الاحلام والاوهام وتتدحرج من اسمى المواد الخيال الى حضيض الحقيقة المرة ومذلة الهوان .

كانت هذه الافكار — اوهام العظمة — تساوره وهو حدثٌ . لحديثه اذ ذاك يرجع به الى خمس عشرة سنة غابرة فقد حدث نفسه هذا الحديث وهو في نحو السادسة او الخامسة عشرة . وله كلامٌ في مثل هذه الصدد اذ كان في الثامنة او التاسعة اذ قال :ـ

« وعثرت يوماً على قصة تتويج بترارك في الكابيتول فقرأتها وقرأتها وانا اقول في نفسي :ـ « وانا ايضاً ! وانا ايضاً ! » ولمّا اعلم حق علم لماذا وضع هذا الاكليل على رأس هذا الشاعر المتضخم . » ولا غرو ان يزداد هذا الطموح به يوماً فيوماً لانه يقول :ـ وُلدت وفي مرض العظمة . » وكل شيء يبدو صغيراً ثم يكبر . والقول في پاپيني صحيح !

ومعظم الناس بلوغاً الى مثل هذا الغرض انما يتوسلون بالمال وبابيني منه معدم فقد قال : ـ « كنت في ذلك الزمان فقيراً . . . . فقد بغضت دائماً اولئك الذين ولدوا بين الخزائن الملآنة ـ اولئك الذين امكنهم ان يشتروا دائماً كل ما يشتهون . . . . وهمني قليلا ان اخرج لابساً ثياب ابي العتيقة رثة بالية مهلهلة مبقعة . . »

وُلد في بيت فقير واعوزه الكثير ولا سيما الى ما يسد جوع نفسه قبل جوع جوفه . فقد كان فيه جوع كَلِب وظمأ لا ينقع الى الكتب والجرائد والمجلات . وهذا هو المـــال ، غير الرنان ، الذي اراده وسيلة الى بلوغ الوطر . جد به الى مطالعة كل شيء ومعرفة كل شيء ، وجدُّ لا يدانى .

ولما كانت موارد المال من امه وابيه نزرة يسيرة جداً تكاد لا تذكر — ولا سيما اذا قورنت بما يصرفه الاحداث في هذه البلاد على الكماليات لا على الضروريات — كان يقتصد على نفسه من ثمن قوته يشتري به جريدة او مجلة يسد بها جوع نفسه ، وهي جائعة لا تشبع ، او ورقاً وحبراً ينشر عليها ما اختزن في رأسه .

هام بالمطالعة وهو صبيٌّ ، ولكن ليس على عادة الصبيان للتسلي بحكاية والتلهي باضحوكة ، بل سعياً وراء العلم واكتناز المعارف . لكنه في نهمه الروحي ما عف عن كتاب نالته يده . سمّاً حوى هذا الكتاب او ترياقاً . وقد وجد في سلة ابيه من المئة كتاباً ونحوها

ما رسخ في ذهنه الطري اوهاماً واكاذيب . . . وما وقف عند حد القراءة السطحية ، بل كما قال :ـ « كنت احلم وافكر واعيد التفكير وابني واحاول ان احرز . وكانت جميع هذه الكتب مقدسة احفل كل الحفول بكل ما تقول . ما كنت أميز التاريخ من الخرافة والحقيقة من الرواية . وكانت أحرف المطبعة لعيني شهادات على الحقيقة معصومة ! »

وكم هي للاكثرين في كل زمان ومكان !

قضى السنين يلتهم الكتب التهاماً ويقرأها على غير انتظام . كتبا ما كانت لتبني نفسه بل لتهدمها هدماً ـ وقد عثر عليها في بيت أبيه كما قدمنا . حتى قال : ـ وفي جملة هذه الكتب خمسة مجلدات أو ستة خضراء شريرة ، اخلاط فولتيرية ، يقوضون فيها الله واللاهوت المقدس ويتهكمون على أحاديث التوراة وكهنة الكثلكة . . . . وقد عرفت فيما بعد كم كانت هذه الكتب الكفرية شديدة المضرة علي غليظة . لكن لها علي فضلا ـ حسن الامر أو قبح ـ اني نشأت رجلا ، عنده الله لم يكن قط موجوداً . »ـ

« فأنا ابن أب كافر عُمّدت خفية وكبرت لم أسمع موعظة ولم أحضر قداساً . فما وقع لي قط ما يسمونه « أذمة في النفس » أو « ليالي جُفروا » أو « اكتشاف موت الاله » فان الله عندي لم يمت قط لانه لم يوجد قط في نفسي . . »

هذا تأثير الكتب . . . التي قرأ وهذه ثمرتها الفجة فيه !

* * *

لكن هذه الكتب القليلة لم تكن لتنفع غليل نفسه وتطفىء أوار قلبه الظمىء الى كل شيء !

وأخيراً . . . بعد طول اصطبار وانتظار واستخدام حيل – وهو لم يبلغ الرابعة عشرة – دخل مكتبة فلورنس الكبرى وفيها مليون كتاب ! انه ليوم انتصار عظيم ويوم طرب وسرور على قلب هذا الفتى الذي لم يذق يوماً طعم السرور ! فهو أخيذ التذمر والمرارة من الدهر ورجال الدهر ولما يتفتح عليه فجر العمر !

ابن ثلاثة عشر ربيعاً دخل قاعة القراءة في المكتبة العظمى يتأبط كتاباً علمياً – كتاب كنستريني في دروين – ولجها وفيه عاطفة احترام ما شعر بشبيه لها حتى في الكنيسة عندما كان حدثاً . وجلس على اول مقعد خال وقرأ ساعة ولم يفقه ما يقرأ لشدة ما داخله من اضطراب وسرور واعجاب !

وعاود التردد اليها وهو حائر في مطالب النفس يريد عرفان كل شيء ولا يدري المسالك ومن اي الابواب يبدأ . واستعان بالقواميس ودوائر المعارف يتصفحها ويتفحصها بحثاً . وخلبت لبه دوائر المعارف فهي حلمه الاسمى وغرضه الاعلى بوهمه انها تستوعب كل فن وعلم

وهذا مطلبه قائلاً : كل الكتب جداول وروافد تجري الى هذا البحر الخضم !

قال :ـ وجزت هذا الخضم وغصت في محيط العلم وانا كلما هممت ان اشبع عدت وبي جوع جديد وظمأ جديد لا ينقع . »

وعلى كثرة ما قلب ونقب في دوائر المعارف — ورآها ناقصة غير وافية بمرام — حسن له ان يضع دائرةً ! وبدأ فيها وهو ابن خمسة عشر وكتب من صفحاتها مئتين وتزيد ثم مل وفل عزمه من هول المشقة وطول الشقة ومزق ما حبَّر ليهجرها الى الفلسفة . قال :ـ « والله اعلم في اي كتب وبيئة قد طلبتها ! »

وما عتم ان تركها ليختار علم التاريخ العام شاملاً كل الازمان وكل الاقوام وكل البلدان . »

ووقع في دروسه على كتاب « كنتو » في التاريخ العام وكان يعجب به وقد ساعده على كشف النقاب عن عدة قضايا علمية عويصة ، ففكر في تصنيف اوسع منه واصدق واكمل واوثق . « ان كنتو كان كاثوليكياً وكان محافظاً اما تاريخي فيكون كفرياً وثورياً لاني كنت في هذا العهد كأبي كافراً وجمهورياً »

وبدأه بتاريخ مصر والمصريين حتى الاسكندريين وهمَّ ان يتناول تاريخ الصينيين اذ بدا له ان تاريخه العام لم يكن له رأس . لان رأس التاريخ بدء الخليقة « وما كنت — كما قال — افكر في ان

ارجع ، كما فعل كنتو ، الى ايام العبرانيين السبعة والى « كوني فكانت » والى الفردوس الارضي . كان ينبغي لي ان احدّث عن بدء الكون ليس اخذاً باقوال موسى بل تبعاً للعلم . والعلم اذ ذاك عندي ممثل بكميل فلامريون وشارل درون . ! »

وحوّله هذا الخاطر عن تاريخه العام الى بدء الخليقة — الى التوراة . فقرأ كل ما كتب في هذا الباب . قال « وخطر لي خاطر قلت : كل الكتب المعروفة في شروح التوراة وتفسيرها قد وضعها كهنة واساقفة ولاهوتيون ومؤمنون ومتعبدون . . . اذن ينقص — وكنت احب ان ينقص — شرحٌ على التوراة بقلم ملحدٍ كافرٍ حرٍ غير متحيزٍ . . . وهذا الكتاب لا اثر له ولا وجود . فانا الذي اصنفه . »

وشرع يجد ويجتهد . . . . فدرس العبرانية مبادئها و بدأ من التوراة في الآية الاولى « في البدء خلق الله السموات والارض » فاذا هو في اعوص المسائل واصعب المشاكل ! وكان يحسبها من الهنات الهينات . قال :ـ « وكتبت وكتبت وكتبت وما كنت انتهي الى خلاص من هذه المداعب . واعوزني ان استنجد غيري. وكان قائماً في وهمي ان الثقات من العلماء هم الذين يغالطون الكهنة ويؤيدون العقل . . . ! »

وكتب على الآية الاولى مئتي صفحة مرصوفة ! وانتقل الى

الثانية وهجرها ولم ينل منها مأرباً حتى انتهى الى الثالثة : « وقال الله ليكن نورٌ فكان نورٌ »

« كلمات قد اوقعت الهيبة والجلال حتى في قلب الخطيب لونجن فضلاً عن كونه وثنياً . اما انا ، تلميذ بال وفلتير ، فلم تلقِ علي اقل اعتبار بل اوحت ضحكاً . ضحكاً من الله الذي خلق النور قبل ان يخلق الشمس ! »

ما اخف احلام الناس — ولو علماء اعلاما — متى سخروا مما يجهلون ! وقد قال شاعر حكيم .... عرفت شيئا وقد فاتتك اشياء !

وختم على كتابه ولما ينتهِ الى الاية الرابعة من الكتاب !

قصورٌ في الهواء ما ارتفعت واستقامت وآمال في الفضاء سابحات ما استقرت واستراحت !

ولما ضوءلت نفسه عن نيل ما طلبت وقصرت يده عن كيد من جهلت قال :ـ « ورأيت ان اعود الى الخطط القديمة : هجومٌ وطعان . والهدف الدين ! ورسم هيكلاً لكتاب ضخم ضد الدين فيه تهكم وتهجم وهزء كتب بعض فصوله ثم طواه وهكذا دواليك . لا يستقر على حال من القلق .

* * *

خيبةٌ بل خيبات هدت من عزيمة بابيني وهو في اول درجات الحياة

وتيه في قفار الخيال ويباب الاوهام فما وجد لداء نفسه دواء شافياً ولم يلق لقلق قلبه مسكناً هادئاً فعاد الى نفسه وقد تولد فيها تشاؤم يائس وانطوى فيها كما انطوت القلعة على ذاتها وليس فيها منافذ .

وثاب اليه العقل فتساءل عن الحياة وأسبابها واغراضها ولم يسمع جواباً بل سمع هذا السؤال الذي لا يجدي ، المتردد على لسان كل سؤوم متضجر في كل زمان ومكان : « وهذه الحياة اتستحق أن تحيا ؟ قال وبمَ اجيب . كانت الحياة تعدني قليلاً ولا تعطيني شيئاً . . وارتميت في حضن هذه الحياة التعسة الشقية فما لبثت ان انكشفت لي عن الفراغ والالم الكمين . »

هذا التشاؤم القاتل مكنه فيه ، الى حين شپنهور بفلسفته القاتلة وقد تعداه الى اقصى حدود التطرف ولا غرو ان انقياد پاپيني في ذلك الحين الى شپنهور حامل لواء الشؤم والتشاؤم وراسم الحياة رسوما سوداء كالحية لا يرى فيها خيرا ابدا بل يرى خيرها شرا وصلاحها فسادا . لان پاپيني يوم قرأ فلسفة الالماني لم يكن له في الدنيا ما يحلي له مرارة الحياة . فقر ، وعدم ، واخفاق ، في اثر اخفاق في رغائبه العظيمة ، وجد موصول الآصال بالاسحار الى بلوغ امانيه وما هو بالغ امنية فلهذا تمسك بفلسفة شپنهور الى اجل ثم خبرها فغربلها وطرحها وذلك بعد حين .

* * *

في ١٩٠٥ ، بعد ما عكف ثلاث سنوات على الفلسفة ولا سيما الالمانية يتفهمها ، اصدر كتابه « غسق الفلاسفة » — وهو اول كتاب لپاپيني تناولته المطابع — وقد قال في مقدمته «وهو احدى ثمرات تحريري من اشياء تألمت منها »

وفي مقاله على شپنهور عارض رأيه في الالم برأي القديسين في الكنيسة — الكاثوليكية طبعاً ، وپاپيني — ليعلم القارىء — لم يكن يومئذ مؤمناً . ولكنه على كفره المطبق قد كان دائماً دائب التطلع دائم التشوق الى معرفة الاديان وقد قرأ كثيراً من سير القديسين وفقه . قال : « صحيح ان القديس يتألم فرحاً بالآلام التي انما هي له خيور باعتبار الخلاص الابدي » . وقال : « ان القديس يبحث عن الالم بكونه الماً . فليس زهده كزهد شپنهور ، وسيلة للهرب من الالم بل هو سعي وراء الالم . »

* * *

« والقديس يسمو سائر الناس لانه لا يتذمر ولا يثور لا لانه لا يتألم . فلو لم يتألم حقيقة لما كان له استحقاقات كافية قدام الله الذي افتدى الناس بالمر والعذاب ، بجراحه ودمه المسفوك . ان شپنهور يريد ان يخلص من الالم بالشفقة اما القديس فاذا استعمل الشفقة كانت ذات اجر لانها اكثر ما تكون مؤلمة موجعة »

عودٌ الى پاپيني الفتى

قضى الى نحو العشرين من حياته وحيداً . ولما نفض عنه دثار الحداثة هم في اصطفاء الاخدان واصطحاب الاخوان يعطفون عليه . فقد كان ، ككل بشر الى عطف الاصحاب في حاجة . الى يد في يده ، الى احد يُسر اليه بكل الاخلاص وفتحة الصدر ، عواطفه ومنازعه وافكاره التي لا يمكن ان تُسر حتى الى الاب والامّ ، الى قرين يشتغل معه ، الى اكبر منه يتعلم منه ويقوده الى اعلى منه يساعده ويفقّهه .

قال : و« كنت اترسم الوجوه والقلوب وما كنت اجد في اغلب الاوقات الا اشفاقاً او احتقاراً — وابشع منهما — هذه الصحابة الكريهة السهلة المنال ، صحابة شبان سيئي التربية يمسكون بذراعك ليحدثوك الخمارة ، والحانة ، والدراجة . » وما اكثر رفاق السوء ! ولكنه لم يألفهم !

فقد كان الى ما هو لذة الروح اميل منه الى ما هو لذة الجسد ـ وان كان قد هوى حينا مع الهوى فقد نهض واستوى .

قال في جملة ما قاله . . . وقد جزت الى الحب الحرام والاهواء الممنوعة ثم الى الخطبة الجائزة وانتهيت ، انا ايضاً ، الى حضن الافراح المشروعة افراح الزواج المقدس . . . »

قال غوته الالماني : « الانوثة الخالدة ترفعنا الى السماوات ؟ »

ليكن ! وانا لا رغبة لي اليوم البتة ان اشادّ غوته واجادله لكن عليّ ان اقر من جهتي ان الانوثة الخالدة لم تحملني نحو الاعالي ولا نحو الاعماق . لا الى فوق ولا الى تحت — ابداً . . »

وقال : « ولم اطلب من النساء شيئاً لروحي — وهن لم يكن يستطعن ان يعطينني شيئاً . وبما اعرف وارى واذكر انهن لم يعطينني شيئاً . لا تصورا ولا شيئاً من قوة حتى ولا دفعة نحو الاعالي الالهية التي نزعت اليها دائماً روحي الحائرة . . »

* * *

وبعد بحث توفق الى طالبي علم اكبر منه عمراً واغزر علماً فالف معهما نوعاً من عصبة ادبية سميت « الثالوث » وما طال حتى افترقوا لتطرف بدا من پاپيني — وپاپيني في كل شيء متطرف حتى آخر حدود التطرف . في نقده وآرائه — وامحى الثالوث . وعرف اخواناً غيرهما وما ائتلفوا حتى اختلفوا وتفرقوا وهو انفرد بنفسه وحده يتعمق في افكاره ظناً منه ان الفكر يخرج به من عالم الكآبة والقلق الى البهجة والفرح . وقد تأصل في دماغه تصور واحد هو ان يثبت بحجج لا ترد وبينات لا تصد ان الحياة شر .

قال :— « وبدا لي اذ ذاك ان العلم وحده يمكنه ان يلقي اليّ كلمة التأكد والتثبت » وعكف على الفلسفة وتاه في بواديها وكان،

كما قال ، يحب النظريات اكثر من البينات ويؤثر التصورات على الامتحانات . وقادته مذاهبه الكثيرة الشعاب الى مذهب « التوحيد » عني به « ان عنصراً وحيداً يؤلف الكائنات كلها وانتهى منه الى نتيجته التي شاءها واهماً بقوله :— « انا العالم ! » في سلسلة طويلة غير موصلة الربط .

وهم تمكن منه ردحاً وحلم حلا له زمناً الى ان قال :— « وصحوت كئيباً . ولما كنت معتاداً ان احسبني كأني قطب العالم تبين لي اني ذهبت ضحية خرقاء لسفسطة كلام . . . . »

احب ان يخضع العالم وساكنيه لارادته ويغير ما فيهم من اخلاق وطباع واوهام ولكن ارادته التي ارادها مطلقة من كل قيد قد وقفت سداً دونها ارادات مخالفة لها وموجهة ضدها قال : — وهذا يدل على اني بدلاً من ان اكون إلهاً ما كنت الا « مجدوباً » .

وهذا الاقتناع جد به الى البحث عن طريق آخر وصولا الى الله — وهو ان يضاعف مرمى ارادته . . . لكنه في ذلك الحين ، اضاع كل يقين بالفكر والعقل والفلسفة . . .

قال :— وانتقاماً لي من هذه الخيبة المرة المخجلة تحولت الى بث الشكوك في رؤوس المعتقدين ، اسكت المتهوسين واسخر من المتعصبين واحقر المتشدقين . وكان هذا سروراً لي مراً عقيماً أليماً . ولكنني كنت به مسروراً . وكان هذا ثأري الوحيد !

وبعد هذه الغضبة المتوهجة شرراً وشراً فكر في مذهب « الانانية » المستقلة المنقطعة عن كل صلة من صلات العائلة وربط الوطنية ورمى عنه آخر لجام من لجم السلوك القويم فكان فوضوياً . انانياً . فقد اقر : « ما رأيت غاية جديرة بي خارجاً عن نفسي . فقد كنت في عوز الى حرية الغير لاجل حريتي »

وانقطع مع اصحاب له لفوا لفّة ، الى الخمر والحشيش والمخازي يتوهمون انهم يشفون ما بانفسهم من علة ومن غليل . ولكنه طاش سهمه فتبدل غضباً وحقداً وضغينة على الفلسفة والفلاسفة وقصد نزالهم وتقويض ما شيدوا من مذاهب . . . ولم ير من وسيلة الى وطره الا « الجريدة » .

* * *

«عند رجل في العشرين كل قديم عدوٌ وكل فكرةٍ ريبةٌ وكل كبير الى محكمة فحكم . » هذا ما قام في ذهن بابيني في العشرين .

الى التجديد إذن ! وها نحن إذاً على الاهبة !

ومعه عصابة من ابناء العشرين ذاهبون مذاهبه !

الى التقويض ، الى التهديم حتى لا يبقى قائم

قال وقالوا : هل بقي عوالم لنفتحها

وحقائق لنوضحها ؟

وحصون وقلاع لنقوضها باصوات ابواقنا ؟

لنُهبطِ الله من اعلى غمائم السماء والملوك من اعلى قوائم عروش الثرى

نريد ان نخلع عنا رداء الاديان وثوب الفلسفات وقمصان الاوهام ومعانق الخيال واحذية المنطق وسراويل الآداب ! ٠٠٠٠ »

عاصفة هوجاء في صدور جوفاء !

« ومن هذا الضجيج الصاخب ومن هذه الثورات الهياجة ومن هذه الكبرياء العجاجة سوف تصدر اربع صفحات او ثمان او ست عشرة : هي الجريدة الخالدة ! ولسوف تدعى « الشعلة » ولكنها لم تصدر !

* * *

الجريدة ! حلمه الذهبي ٠ ان خاب في «الشعلة» فما هو في غيرها خائب ٠ فعقد ، واصحاباً له هم على هواه ومذهبه ، الخناصر على تحقيق هذا الحلم واصدروا في سنة ١٩٠٣ مجلة سموها « ليوناردو » عاشت الى سنة ١٩٠٧ فاستبدلوها في السنة القابلة بمجلة « الصوت » وما خفت صوتها الصارخ الا سنة ١٩١٦ في ابان الحرب ، لاسباب مالية فقط ، وكانت لها ضجة وصريرٌ في رؤوس الشبيبة الايطالية وصولةٌ ونفوذٌ في صفوفهم هيأت افكارهم الى حومة الوغى ورغبتهم في اقتحام مشتجر القنا.

إذن . الشهرة التي راودها پاپيني قد انقادت اليه صاغرة سافرة وفي هذا العمر في منبثق فجر القرن العشرين اذاع پاپيني صوته فدوى في انحاء ايطاليا من اقصاها الى اقصاها وتغلغل منها الى الآفاق فالتفت اليه الناس ، كما كان قد تبجح وهو صبي ، وانصتوا يستمعون له وفيهم المأخوذ اللب المشدوه الجنان ، وفيهم المتغيظ الناقم الغضبان ، وفيهم المصفق الطروب الجذلان .

* * *

وهنا ظهرت مواهب عقله الرجيح وبوادر نفسه الطموح وامتاز في انشائه الجافي وأسلوبه الخشن وتراكيبه المتراكمة جلاميد فوق جلاميد . وعباراته المتزاحمة طوداً الى طود . فهي نفسه الحية في انشائه الحي .

وقد اغنانا عن وصفه كاتباً بما وصف به نفسه على طريقته المأثورة وصراحته المشهورة فهو في هذا البـــاب قريع دهره ووحيد عصره .

قال : « . . وبما ان الوجه مرآة النفس — كما قالت حكمة الامم — فلن يستغربنّ أحدٌ ان پاپيني هذا سفّاح الفصاحة ولقيط الصحافة وبرأبا الفن وصعلوك الفلسفة وعربض السياسة ووبش الثقافة . لا يدع فرصة تمر الا اقتحم واندس في جميع مشاريع

الحماة الفكرية . . . ولا يغربنَّ عن بال احد من الناس ان هذا « البهيمة » هو أغلظ جميع الاوباش والعلجان الذين يقتاتون من ارض ايطاليا . . .

« وفي الواقع ان هذا العير العور كَلِبٌ الى كتابة كل ما يفكّر فيه والى قول كل ما يتصوره حقيقة . وكأن هذا لا يكفيه فهو يجرؤ، جراة على أن يتميز ويتغيظ حين يضايقونه . . . . »

الصيت الشائع الذي يتطلبه الناس والشهرة الذائعة صارا قيد كفه ولكنه لم يكن بذا قنوعاً قط وما كان الى هذا الحد فقط منتهى قصده ! قال :-

« وبعد ان حصلت ، في غضون ثلاث سنوات أو أربع ، على ما قد يبدو للكثيرين نجاحاً وانتصاراً - ذيوع صيتٍ وتهافتاً على قراءة مقالاتي ومناقشات فيها ، وأن اكون متبوعاً ومرهوباً - بعد ان حصلت على هذا كله شعرت أشد من قبل بفراغٍ في نفسي معيباً . . . »

وساءل نفسه : « اهذا كل الذي اليه صبوت ؟ وهذه هي الغاية النهائية التي تعبتُ لها مجهداً أيامي ولياليي ؟ ماذا يهمني ان اكون أو أن أصير فيلسوفاً « لامعاً » وكاتباً معروفاً في عالم الادب وصائغ كلام وتاجر أراء وافكار ؟ وبعدهذا ماذا ؟ والى أين ؟ ... » .

وعاد الى نفسه وعرض لها كل مراتب المجد ومصاعد الفخار

واذا هو، كما يقول، شاعرٌ أني خلقت لامور سواها . . . كنت أعتقد بكل قوى نفسي أن علي رسالةً في العالم رسالة لي وحدي ورسالة عظمى . . .

ومن دعاني ؟ ما عرفت وما اعرفُ . ما كنت بالله مؤمناً ومع ذلك كنت أحسّ أحياناً كأني مسيح عليه أن يستعد، مهما يكلفه الامر، الى فداء جديد وما كنت أعتقد بالعناية ومع ذلك كنت أراني في الغد القريب كأني المسيح فادي الشعوب ! . . .

وفي هذه الأثناء كان منكباً على التبحر في الكتب على شتى أنواعها وخص بانعام النظر وتدقيق البصر، كتاب العهد الجديد . قال « كنت أتأثر تأثراً لم يقع لي قط من قبلُ عند قراءتي مرقس ولوقا ومتى ويوحنا » .

وكأنه أحب أن يقلد الاله المتجسد في أعماله ومعجزاته لعله يتوصل الى كنه قوته فيستعيرها ! ! قال : وأحياناً كانت حالة نفسي أشبه شيء بحالة اله يصغى الى جماعة متألمة يصلون على قدميه ويسألونه عتقاً وهناء وموتاً وفداء . . . . » وهو مشفقٌ على هؤلاء القوم أهل العالم ويريد ان يردهم اليه ويرفعهم معه الى ذرى الالوهية ! .

* * *

هذا هو التجديد الذي اراد ولكن بأية الوسائط يأتيه ؟ .

تساءل : أي أجزاء الانسان أشرفها وأنبلها وأنقاها ؟ أجل هي النفس . فاذا شاء امرؤ أن يؤثر في الرجل تأثيراً شريفاً وجب أن يعمل في النفس ومتى تغير الباطن تغير الظاهر و بتجديد النفس يتجدد العالم . وعنده ـ قد كان الانسان كله أولا ـ جسماً ثم جسماً وروحاً معاً والان وجب أن يصير روحاً وروحاً فقط . و بعد العهد الحيواني والعهد الانساني ينبغي أن يأتي العهد البطلي ، الملائكي ، الالهي . و بعد عهد القوة عهد النبوغ في خدمة القوة ـ وأخيراً عهد النبوغ المستقل المحرر ، عهد الارادة المسيطرة ، عهد الروح المتسلط على كل قوة »

« ان أقود الناس الى هذا الملكوت ، وان احقق هذا العصر الجديد : ذلك هو الواجب الذي أوجبته علي مختاراً . فكانت رسالتي إذن مزدوجة : ان أبعد الناس عن الحياة الحاضرة وانفرهم منها وان أهيء الحياة العليا اللابشرية التي كنت أتلمسها فاجعلها منظورة » .

ولكن بأية الطرق ؟ وهل كان أهلاً للقيام بهذه المهمة العظمى؟ وهل من أمل له بنجاح ؟ أسئلة أوردها اليه ورددها . ثم خلا بنفسه وقال :ـ

« لا بد لي قبل ان أبدأ رسالتي أن اكون من نفسي واثقاً فاتنظف واكبر وأبلغ الكمال الادبي والتسامي العقلي . إذن أن أتحول قديساً ونابغة ! »

إذن أن يُعد العدد ، عدد الروح ، عدد القوة ، عدد الاقناع ليتبع ويطاع ورأى أن يستعين بالفن ! .

شعراء كثيرون نظموا كثيراً وقالوا كثيراً وقلَّ من استهوى منهم النـاس واستتبع . ففكر هو في نظم علواء يسميها « يوم الغضب » وهو يوم الدين الاخير إذ تلاها الناس كبارهم وصغارهم خافوا وارتعدوا وأفاقوا وارتدعوا ونهضوا من سبات الخمول الى يقظة التفكير وتبعوه .

كان حلمه العظيم أن يصير « الهاً »

تخيل هيكلها ولم ينظمها !

* * *

أملٌ خادعٌ وحلمٌ بعيد ولـكنه هـكذا حلم وهـكذا أمل !

قال : وقد علّم البعض أو حاولوا أن يمزجوا بالله نسـاكاً وحبـاء وقديسين لـكني أنا ان أدخل في الله كأني من الالوهية اللامتناهية جزءٌ وقطرةٌ وذرةٌ ذلك لم أرده قط بل شئت أن يكون الكل جزءاً مني خاضعاً لي ، كما لو كانت الجبال والكواكب والعوالم أعضاء من جسدي وأعضاء طائعة .

قال : ما كنت أوقن بالله . فالله لم يكن عندي موجوداً اذ ذاك وما وجد قط من قبل وأردت أن أخلقه للمستقبل وأعمل مني ،

انا الرجل الضعيف الحقير ، ذلك الكائن الاسمى الغني القدير !

وعلى هذا الامل وهذا الاستعداد للرجل — الاله فكرت ان أنشر ديانة ولكن اين ؟ افي اوروبا القديمة الفقيرة ؟ كلا بل في امريكا ، امريكا الشمالية الواسعة بلاد الممكنات ! حيث كل دخيل جديد مكرم وحيث لكل معتقد هيكل ولكل موسى عاصمة !

وبحث عن معين له يرى رأيه قال : وقد لاقيت رفيقاً خليقاً بي مجنوناً مثلي عازماً على مرافقتي وان يقاسمني الخيبة والهوان والظفر !

وقبل ان يشد الرحال الى عبر الاتلنتيك أخذ يعد عدته فدرس الانكليزية واخلاق القوم وعاداتهم . لكنه خاسه امر وهو المهم : ان يذهب نبياً جديداً يبشر بالملكوت الجديد في ارض جديدة — اكتشفها من قبل ايطالي عظيم — ذلك لا بد ان يكون قديساً وقائداً ونصف اله !

ولكن كيف يتصورون قديساً ولا معجزات يجترح ولا عجائب ومؤسس دين ولا سطوة تؤيده ولا نفوذ ، والهاً لا حول عنده ولا طول ؟

فاهتم اذن ان يصل الى صنع المعجزات بان يزيد قوى ارادته الى ما لا نهاية له حتى اذا أمر الناس والاشياء من دون حاجة الى أفعال خارجة تأتمر .

وطلب هذا عن طريق القديسين الذين يجترحون العجائب،

والمجوس الذين يدعون اجتراحها واحب ان يعرف مذاهبها في ذلك فاجهد النفس في التنقيب والدرس .

قال : كان القديسون يذهبون بي الى التعمق في الاديان والمجوس الى العلوم الغامضة . طريقان يختلفان ظاهراً وكنت قد عرفت هذين الطريقين احدهما الهي يعود الى الفراديس المطهرة والآخر ارضي الى الجحيم الجهيم .

فدنا من الاديان هذه المرة ببعض العطف، حتى من النصرانية — من الكثلكة . قال : وطالعت الاناجيل وليس في تلك البغضاء العمياء الفلترية التي رافقتني في سنواتي الأُول . و كنت قد عدت الى الكنائس ليس فقط لاعجب بالزخارف والنقوش و رسوم المذابح وفسيفساء المعابد . واعدت قراءة الاناجيل لابحث فيها عن المسيح ودخلت الكنائس لأجد فيها الله .

والعبادة كانت تجتذبني ـ ليس فقط بجمال الرتب وموسيقى القداس الصارخ فان شيئاً مبهماً ملتبساً : الحاجة الى الايمان وان أعود طفلا وان اشعر بذاتي اني في شركة النصرانية التي فيها وُلدت — هذا الشيء المبهم كان يتحرك في خفيفاً ولا يشاء ان يبدو جلياً . وقرأت القديس اغوسطينوس وتأملت افكار پسكال حتى وصلت الى « مدخل العبادة » « والتأملات الروحية » للقديس فرنسيس ده سال والقديس اغناطيوس دي لويولا مؤسس اليسوعية .

أفضول هذا في النفس ورغبةٌ في الاطلاع ؟ أجل هذا هو . ولكن كان هناك خميرة إرادة بالايمان ورغبة وضيعة في الاشتراك بهذا الامتحان الديني البديع الذي أعجب العالم ـ منذ المسيح ـ تحفاً غالية ثمينة في النفوس ومآثر الاعمال .

استهوته أعمال القديسين ولكنه لما علم انهم انما يعملون العجائب، التي كان يصبو الى اجتراحها بكل جوارحه ، باستلامهم المطلق وتقديمهم لله ذواتهم تقديماً لا رجوع فيه ولا عودة قال : أما أنا فلا أريد أن أتعرى من ذاتي ولا استطعت . وهاله الامر فانطلق يبحث عن « غوامض الغيب » ومذاهبها المتشعبة ـ وكان منذ سنين قد دخل هياكل الخُدع والخرافات التي قال فيها : إنما هي أشبه الاشياء بألف ليلة وليلة ـ تتبع آثارهم ودرس أسرارهم وعرف أخلاقهم وأفكارهم وجمع معلومات كثيرة ولما جاء دور إختباراته وحسب أنه بلغ المنى خدع ونفر ثم عاد . . . حتى سئم وتعب لكنه قال لا بد من اكتشاف الدر فاما بلوغ المنى أو ورود المنايا ! ولكن . . .

***

تنكرت عليه نفسه بعد هذه الخيبة المرة وتنكر عليه أصحابه حتى رأى الموت واقفاً له راصداً فانتحى مكاناً منفرداً بعيداً عن الناس لانه تخيلهم كلهم أعداء له وعزم على أن يلحق بقمم الجبال قريباً

من السماء بعيداً من ضوضاء المدينة وقيل الناس وقالهم لا يعلم به أحدٌ.

مضى وقد قال : سأنزل من الجبل اما ظافراً عتياً كأله أو لن أنزل . ولكنه نزل ونزل خائباً مقهوراً . . . كجلمودِ صخرٍ حطّه السيل من علِ

قصورٌ في الخيال تقلصت كالخيال !

***

مرةٌ هي الخيبة على نفوس البشر وأمرّ منها على من وهم وهمًّ أن يسود البشر . ولكن هـذه النفس الرامية الى الخلود والصابية الى اللامتناهي المرتاحة فيه القلقة في سواه ، إذا أظلمت يوماً ثم طلبت النور استنارت واذا سقطت زمناً ثم حاولت النهوض نهضت واستقامت واذا تشعبت عليها الطرق وبحثت عن الطريق الحق على نور الهداية بسلامة النية وصفاء القلب وصلتْ واستراحت .

وهذا يابني رأيناه فراشة حول مصباح وخفاشًا في نور الصباح يحومّ ثم يحط ويدومّ ثم يسقط ولا يقر به قرارٌ ولكنه بعد أن أنهك وأجهد في المطالب والرغائب وعاد عن كلها خائباً فكر في أمره وكأنه تبين بصيصاً من ضياء الحق في قفره فعلق به لا يترك .

***

في «صورتان في جرن» وهي مقالة نشرها في غضون سنة ١٩٢٠ ما ينم عن انقلابه على ذاته وخروجه على ماضي حياته وفي جملة ما قال:

« . . . وقد أجتذبني سحر الماء الراكد . . . وجلست أفرق بيدي الاوراق الميتة عن وجه الماء، لأجعل مرآة اكبر تريني وجهي الاصفر المقلوب وأنا ثم منذ دقائق منحنٍ على الماء أفكر في الزمان في شرائعه الغريبة العجيبة إذ لمحت بغتة الى جانب صورتي صورة أخرى . . . والتفت على الفور فاذا رجلٌ قعد جنبي وأخذ ينظر مثلي في مرآة الماء وتأملته كأني في حلم — ثم بعد انعام النظر ظننتني أرى فيه شبيهاً بي وأخيراً القيت لحاظي على الجرن ثم حدقت في وجهه المنعكس في قعر الماء العميق فادركت الحقيقة حالاً . قد كان انعكاس وجهه شبيهاً أتم الشبه بما كان وجهي منذ سبعة أعوام مضت . . . وفكرت أن هذا الرجل الذي أضحك منه ، هذا الوُليد الجاهل الاحمق قد كان في غير هذا الزمان « أنا » .

« كبرياؤه الصبيانية وعدم خبرته العالم وجهله الغليظ باسرار الحياة ، كل هذا ، بعد أن سلاني ساعة في بدء أمره ، أثار في نوعاً من الاشفاق والابتذال ثم تحول شيئاً فشيئاً نفوراً . . . »

« . . . وحل يومٌ لم يسعني أن اكتم بغضي وغيظي من «أنا» الماضي فقلت له محتداً مشتداً ما أنا بالذي يمكنه أن يعيش معك بعد الآن . . .

« وحاولت الهرب منه وهو يمسك بي... وجلسنا معاً على الصخور الاصطناعية نفرق بايدينا الاوراق لنتأمل صورتنا ولما بدا وجهانا، نحن كلينا، متجاورين على مرآة الماء القائمة المكمدة اندرتُ بحركة سريعة وقبضت على « أنا » الماضي من كتفيه ورميت به من رأسه الى حيث كانت صورته في الماء المضطرب وغرزت رأسه في الماء بعيداً وضغطته شديداً بكل قوة الحقد المضطرم فيّ . . . وإذا « أنا » البشع الممقوت قبلاً ، « أنا » الضحك البليد في السنين المائتة قد مات الى الابد . . . »

مات پاپيني القديم و بعث پاپيني الجديد !

لقد خلع عنه ثوب الماضي العتيق الذي رأيناه فيه ولبس ثوباً جديداً لم يكن ، في هذا الحين الذي يصفه ، قد كمّله وجمّله على الشكل الذي نراه فيه ظاهراً في « حياة المسيح » ولكن المسافة بين الجديد والقديم قريبة جداً .

***

في عام ١٩٢١ ظهر كتابه « حياة المسيح » !

معجزةٌ من معجزات الدهر !

مؤلف هذا الكتاب قد الف كتاباً آخر ، منذ سنوات ، ليحكي حياة كئيبة لرجل أحبّ ، حيناً ، أن يصير إلهاً . والآن في

نضوج نفسه وضميره قد حاول أن يكتب حياة اله صار إنساناً » .

ان بين الكتابين لفرقاً ! و بين النفسين لتغييراً .

وفي هذا موضوع النظر .

فسبحان المغير الذي لا يتغير !

تلك الكبرياء الفضفاضة قد تحولت تواضعاً وديعاً .

وذلك الطموح الجموح قد تبدل رضياً قنوعاً .

ولكن تلك النفس المتهجمة ما غيرت تهجمها الا وجهة الخير فهي تريده لكل حي وفي كتابه هذا يقنع بابيني « ببعض الخير لبعض النفوس — وحتى لنفس واحدة »

ولعل المنتفعين به كانوا كثيراً .

* * *

اما كيف وصل الى من قال : « انا الطريق » فهو امر كما قال في مقدمته التي تعد وحدها كتاباً جليلاً ، طويل شرحه وعسير وصفه . »

وربما امكن ايجازه بما قال يوماً جواباً عن سؤال : « قراءة الأنجيل قادتني حتى باب الكنيسة »

* * *

وقد اغمض على بعضهم أو اغمضوا هم عيونهم عن تفهم الكنيسة التي دخلها پاپيني لكنه في عرض صلاته الى المسيح ، إذ رأى الفساد طامياً والشر فاشياً رفع صوته اليه ضارعاً :

« انت تعلم هذا ايها المسيح يسوع ، وترى ملء الزمان قد عاد وان هذا العالم لا يستحق بعدُ الاّ عقاباً بطوفان من نار او ان يخلّص بتوسطك وكنيستك وحدها ، الكنيسة التي شيدتها انت على صخرة بطرس ، التي وحدها تستحق اسم كنيسة ، الكنيسة الواحدة الجامعة المتكلمة عن رومة بفم نائبك المعصوم ما تزال طافية على خضمّ العالم الهيّاج الموحل ، تزيدها هجمات الخصوم قوة ، وصدمات البدع عظمة ، ومرّ العصور تجديداً . لكنك انت الذي تؤيدها بروحك ، تعرف كم من الناس ، حتى من الذين ولدوا في حضنها ، يعيشون خارجاً عن شريعتها »

وهذا الكتاب ، على سذاجة عبارته وخلوها من التنميق والتزويق ، قد خلب لبه فقال فيه : « ليس من حياة للمسيح ، ولو انها مكتوبة بقلم انبغ كتّاب العالم ، يمكن ان تسمو جمال الاناجيل وكمالها »

حدثني حبرٌ من احبار ايطاليا جليل قال : في صباح احد الايام رأينا پاپيني داخلا على رئيس اساقفة فلورنسا والدمعة في عينيه فجثا على ركبتيه وقال : سيدي ارجو ان تقبلني في حظيرة خرافك . . .

أما لماذا رجع ؟ فقد استدركه لمن قد يتساءل من اتباعه ومن غير اتباعه إذ قال : لم يرجع عن تعب بل بعكس ذلك قد انفتحت امامه حياة اقسى واشظف وواجبات اشق واصعب ، ولا خوفا من شيخوخة قريبة فهو يمكنه ان يقول انه بعدُ فتى ، ولا رغبة في شهرة عالمية فهو اربح له في هذه السنين ان يصانع ويمالق من ان يستخف بالقاضي ويسخر . لكن هذا الرجل العائد الى المسيح قد رأى المسيح مخونا — وما هو شرٌ منه — منسيًّا فساقه شوقٌ عظيم الى تذكيره والذود عنه »

وفي منطقه السديد قال : « لا خيار للمرء ايا من كان الا ان يختار بين الله والعدم . فان تحول عن الله فلن يجد له سبباً حلالاً ان يخضع لاوثان القبيلة او لصنم العقل او لصنم الشهوة . في ذلك الزمان زمان الحمّى والكبرياء كان كاتب هذه السطور قد اهان يسوع اهانات لم يهنه اياها احد » وقد احب التفكير ما استطاع وهذا الكتاب دليله ، ولو ضئيلاً في نظره !

في سكينة النفس وطمأنينة الضمير وتحت نير من قال « نيري طيب وحملي خفيف» انتحى پاپيني من الارض ناحية خالية هادئة ومعه بضعة كتب وفي رأسها الاناجيل وهناك ، في اقل من سنة ، كتب كتابه « تاريخ المسيح » الذي طبقت شهرته الخافقين وعدّ الادباء والكتّاب افضل كتاب اخرج للناس في القرن العشرين !

اذن من وادي الضعة واعماق التفكير العميق اخذ پاپيني يتدرج صعدا في جبل الكمال السامي — من مذود بيت لحم الحقير ، الى هيكل سليمان الكبير الى جبل الزيتون فالى جبل الجلجلة يرافق يسوع في اطواره واسفاره حتى وقف به الفكر والقلم على طابور فرفع عينيه الى العلاء ، ونادى باحر النداء ، يا يسوع !

في صلاة جاءت في البلاغة آية ولطلاب الضياء راية ولحاجات النفوس غاية پاپيني في كتاب «تاريخ المسيح» أصبح ناراً على علم . وصلاته الى المسيح في آخر هذا الكتاب فريدة بين درر .

« الله الله يا منصفان »

نيويورك . الخوري منصور اسطفان

كلمة المترجم

ان هذا الكتاب هو اعتراف رجل ارتد الى الايمان البسيط بالمسيح بعد ان ظلّ تائهاً في صحارى الشك والالحاد عديد السنين . ولا غرو ان يبلغ كتابه ما بلغ من الشهرة البعيدة ، وتقع الحقائق الخالدات التي جاء بها في قلوب القراء « فان فرحاً عظيماً يصير في السماء بخاطئ واحد يتوب اكثر مما بسائر الابرار »

كان جيوفاني پاپيني كافراً ، فوضوياً ، يبغض البشرية ويمقت جميع ابناء جنسه ، وثائراً متمرداً على الشرائع الدينية والانظمة الانسانية ، وقد كان باعماله واقواله ومؤلفاته عدواً لدوداً ليسوع ، يحتقره ويحاربه بكل ما بلغته قحته وقاده اليه كفره والحاده . غير ان يسوع الحليم ، الطويل الاناة ، الذي وطّد ايمان بطرس المتزعزع ولم يتركه يهلك في عار نكرانه ، واشرق في قلب بولس بنور وحيه الطهور رادعاً اياه عن التمرّد والعصيان ، لم يشأ ان تُحرَمَ الانسانية ثمار عقل هذا الرجل النابغ الذي كان ، ولا يزال ، اميراً من امراء الفكر الجديث ، واماماً من كبراء ائمة العلم والفلسفة في هذا القرن الحاضر ، لم يشأ يسوع صديق الحياة السعيدة ، ان يظل هذا الفكر الكبير هائماً في تيه الشك والضلال فبعث اليه فجأة باشعة من نوره الالهي فانار ظلمة حياته

الشقية ، وانعشه بنسمة من روحه القدسية ، ففتح قلبه للحياة الحق بعد أن أغلقته سويداء حياته الاولى . ثم ما لبث أن قدم الى العالم كتابه هذا «حياة المسيح» الذي بسط فيه بملء الوداعة والرقة حياة رسول الحرية والسلام . وملخص المقيدين بقيود الارض والمادة الكتاب الذي رسم لابناء القرن الحاضر ومن سيتبعهم من أبناء الانسان ، في كل زمان ومكان ، صورة خالدة تسمو بالمتأمل في جمالها الى عالم علوي يشعر فيه انه في حضرة يسوع الخالد في ملكوت السماوات .

قرأت هذا الكتاب في الصيف الماضي ، بعد أن قرأت الكثير عنه وعن مؤلفه ، قرأته فكان لي من كل فصل من فصوله الف دليل على عناية الله غير المتناهية التي تتعهدنا برحمتها أبداً فترسل الينا من حين الى حين من يوقظ ذواتنا الغافلة وينعش قلوبنا الغارقة في اقذار المادة ، ومحبة المادة وعبادة المادة ، حتى كأنما الحياة كلها في نظرنا مادة في مادة . غير اني ما فرغت من مطالعته للمرة الاولى حتى رأيتني مكباً على درسه للمرة الثانية والثالثة وانا اكاد لا اصدق أن رجلا من أبناء هذا القرن المادي يستطيع أن يصور يسوع بهذه الصورة الحيوية التي رسمها پاپيني في كتابه هذا . وأنني أستطيع ان أقول ، وقل اكون مخطئاً في قولي ، أن كتاب « حياة المسيح » هذا قد يكون له من التأثير في حياة المسيحيين (بالاسم) الوثنيين (بالفعل) العائشين

في هذا القرن العشرين ما كان من التأثير لرسائل القديس بولس في حياة الوثنيين الاولين الذين كانوا وثنيين، اسماً وفعلاً . وللزمان حكمة في صحة هذا الرأي

وقد كان في مقدمة ما احدثه هذا الكتاب في نفسي من التأثيرات العزم على تعريبه الى لغة الاباء والاجداد ، وتقديمه كباكورة اتعابي الروحية في جهادي للقيام بواجباتي جهد طاقتي . عزمت على ذلك منذ نيف وسنة . غير ان واجبات المهمة التي انتدبني لخدمتها ، عن غير استحقاق مني ، غبطة مولاي الجزيل الطوبى والاحترام ، كيريوس كيريوس غريغوريوس بطريرك مدينة الله انطاكية وسائر المشرق، كمعتمد للكرسي الانطاكي في امريكا الشمالية ، كانت تقضي علي بالتجول المستمر في سائر انحاء البلاد ، من شمال كندا الى جنوب فلوريدا ومن شرق ماين الى غرب كليفورنيا ، ومن اوريغون الى المكسيك ، والقيام بخدمة نفوس اخوتي المتفرقين في البلاد ولا كاهن لهم يعني بخدمة نفوسهم . كل ذلك كان يحول دون وضع عزمي في حيز العمل . غير انني اغتنمت فرصة هذا الصيف الذي خصصته لزيارة المكسيك فجئت الى مدينة تشيواوا في أوائل حزيران وانقطعت الى عمل الترجمة مكباً على الكتابة بكل قوتي حتى فرغت من تعريب اخر فصل من فصول هذا الكتاب في اليوم الحادي والثلاثين من شهر تموز سنة ١٩٢٤

وغير خاف على القراء الكرام ما يصادفه المعرّب من الصعوبات وخصوصاً في تعريب الالفاظ الوضعية ، والاصطلاحات العلمية الممتلئة منها الكتب الحديثة ، ولذلك فاني أستميحهم عذراً على ما يجدونه من القصور في عملي هذا ، لا سيما وأنا لا أقصد من ورائه سوى اطلاع أبناء قومي ، الذين اقف حياتي لخدمتهم ، على كتاب جليل هم في اشد الحاجة اليه ، بلغتي البسيطة التي جلّ ما ارمي اليه من ورائها ان تؤدي المعنى الى ذهن القارىء باسهل ما يكون من البساطة ، وتلامس قلبه قبل ان يعجب بها عقله .

وقبل ان اختم كلمتي هذه اودّ ان الفت نظر القارىء العزيز الى الملاحظات الآتية :

١ — ان هذه الترجمة العربية لحياة المسيح قد نقلتها عن الترجمة الانكليزية للآنسة دوروثي كانفيلد فيشار المطبوعة في مدينة نيويورك في شهر ايار سنة ١٩٢٣ الطبعة الثامنة ، وليس عن الاصل الايطالي .

٢ — قد اشارت حضرة الآنسة الفاضلة في مقدمتها للترجمة الانكليزية الى انها حزفت من الاصل الايطالي بضع عبارات وجمل وفصلين كاملين لانها رأت ان ما جاء فيها هو ملائم لابناء ايطاليا دون غيرهم من سائر الامم لاشتمالها على عادات واصطلاحات ايطالية

صرفة ، وانها لو ترجمت الى اية لغة غير الايطالية لجاءت غامضة غريبة على القارىء فلم تفده شيئاً .

٣ — يلاحظ القارىء عند اطلاعه على الكتاب ان المؤلف قد استشهد بآيات كثيرة من الكتاب المقدس ، عهديه القديم والجديد ، وكثيراً ما يورد آيات مأخوذة من أسفار متعددة من الكتاب فيسردها بعضها وراء بعض كأنما هي جملة واحدة مأخوذة من موضع واحد ، وقد ترجمت كل هذه الآيات كما وردت مع المحافظة على المعنى الكتابي من غير ان اتقيد بترجمة واحدة من الترجمات العربية للكتاب المقدس ، متوخياً من كل ذلك تأدية المعنى المراد الى ذهن القارىء بملء البساطة .

٤ — قد ورد في الكتاب كلمات اعجمية كثيرة ، من اسماء ملوك ومؤرخين ، وشعراء وفنانين ، وفلاسفة والهة وغير ذلك من الاسماء الغريبة على قراء اللغة العربية ، ان لم يكن كلهم فجلهم ، ولذلك رأيت اتماماً للفائدة ان اورد ترجمة مختصرة لكل منهم بحسب الضرورة بحواش اضفتها الى الكتاب لكي اسهل على القارىء الاديب مطالعة هذا السفر النفيس والتقاط ما به من الدرر الغوال .

واني ارجو ان تصادف خدمتي هذه قبول الاخوة المواطنين وان يكون لها التأثير الفعال في حياتهم الروحية فيبذلوا في سبيل خدمة نفوسهم الخالدة نصف ما يبذلونه في سبيل اجسادهم الفانية ويقبلوا جميعهم الى المعلم الصالح يسوع معين الحياة الحق فيشربوا من مائه الحي ولا يعطشون الى الابد .

عن مدينة تشواوا المكسيك في ٢٠ ايلول سنة ١٩٢٤

الارشمندريت انطونيوس بشير

مقدمة

منذ خمسمائة سنة والثورة قائمة على قدم وساق ممن انتحلوا لانفسهم اسم الاحرار المفكرين — الذين يفضلون الحياة المقيدة السجينة على الخدمة العسكرية الشريفة — منذ خمسمائة سنة وهم عبثاً يبذلون الجهود الكثيرة لقتل يسوع مرة ثانية : لقتله في قلوب المؤمنين .

ان جيوش اعداء يسوع قد اجتمعوا ليواروه الثرى عندما سمعوا في غفلة أوهامهم نعيّه الثاني . والى جانب هؤلاء الاغرار وقف جيش آخر من الجماهير العميان المدعين الذين يدخلون المكاتب ظانين انها مزار بهم ، وآخرون من ذوي العقول الغليظة ، والرقاب القاسية ، الذين يدعون انهم عاملون على فتح السماوات العليا بمناطيد فلسفتهم الواهية ، وغيرهم من الاساتيذ الذين تخدرت ضمائرهم ، وتسممت دماؤهم بمخدرات فلسفة ما وراء الطبيعة ، وسمّ اللغات الحديثة — وقف جميع هؤلاء الجنود مسلّحين مدرّعين — يكررون عبارة بطرس [1] الناسك التي اثار بها الرأي العام في اوربا فقاد منه جيوش

(١) بطرس الناسك : هو أحد رهبان فرنسا المتفردين بالبلاغة في الوعظ والخطابة والتذييع والكتابة . وقد كانت مواعظه التي القاها في أوروبا في اواخر القرن الحادي عشر ، بعد رجوعه من سياحة قام بها في الاراضي

الصليبيين . غير انهم يكررونها لكي يتخذوا من الرأي العام قوة يثيرون بها حرباً صليبية اخرى — حرباً صليبية ضد الصليب وليس في سبيل نصرة الصليب . وقد بلغت القحة في فريق منهم أنْ اوحت اليهم مخيَّلاتهم البليدة الخاملة ان الانجيل حديث خرافة وكل ما يمكننا ان نستخلصه من حوادثه عن حياة يسوع هو انه كان انساناً عادياً ، ثلثه نبي ، وثلثه ساحر ، وثلثه قائد عصابات ، وانه لم يصنع عجيبة ، ولم يجترح آية غريبة قط في حياته . واما الذين برئوا بواسطته من امراضهم فكانوا من سخيفي العقول الذين استولت عليهم الاوهام فاستعبدت قواهم المفكرة الى حين فخيل اليهم انهم مرضى، ومصرعون ، ثم ما لبثت سحائب اوهامهم وسخافة عقولهم ان انقشعت فادركوا أنْ لم يكن بهم من ضعف قط . واما في موت يسوع فيقولون ، انه لم يصلب على الصليب كما توهم اتباعه ، وانما خيل اليهم ان اليهود صلبوه وقبروه ، ولكنه لم يمت، ولم يقبر ، بل توارى عن الابصار حتى ظن الجميع انه قد مات ، ثم ما لبث ان عاد فظهر في

المقدسة في فلسطين ، من اقوى العوامل الدافعة للحملة الصليبية الاولى . وقد قاد هذه الحملة بنفسه مارا بهنغاريا وهو يقود جيشاً مؤلفاً من ثلاثين الف جندي غير مدربين على النظم العسكرية ، ولذلك لم يبلغ منهم الا القليل الى اورشليم . وقد امتاز بطرس بشجاعته البالغة في هذه الحملة العظيمة . وعندما رجع الى بلاده انشأ في بلدته أميان ديراً لنفسه وظل رئيساً حتى توفي سنة ١١١٥ .

المكان حيث توهموا انهم قبروه لكي يحمل الناس على الايمان بانه مات وقام من بين الاموات .

وغيرهم يؤكدون لك انه كما ان اثنين واثنين اربعة ، كذلك حكاية يسوع اسطورة الفها بعض المشعوذين في ايام اوغسطوس وطيباريوس (١) وان كل كتب العهد الجديد ما هي الا صور ممسوخة عن النصوص النبوية القديمة .

ومنهم من يعتقدون بأن يسوع كان رجلاً فاضلاً مخلصاً لخير البشرية جمعاء ، ولكنه كان بعيد الخيال ، كثير التقلب ، وانه درس على علماء اليونانيين والبوذيين ثم عاد فانتحل لنفسه ما درسه ، وجمع من مختلف التعاليم التي سرقها عن اولئك الاقوام المبادىء التي اظهرها ، لكي يدعم دعواه بانه هو « ماسيا » الذي كان ينتظره بنو اسرائيل . وقال آخرون انه كان بشراً فوق البشر ، وانساناً تناهى في الكمال ، وانه كان سابقاً لروسو (٢) ومبشراً بالديموقراطية

---

(١) اوغسطوس وطيباريوس : امبراطوران من امبراطرة رومية القديمة

(٢) روسو : هو جان جاك روسو ، اشهر مشاهير كتبة القرن الثامن عشر واكثرهم نفوذا في جيله . ولد من اب ساعاتي في جنيفا سنة ١٧١٢ وأفضل ما نعرفه عن السنوات الخمس والثلاثين الاولى من عمره مسطر في اعترافاته الجريئة الحرة التي طبعت للمرة الاولى سنة ١٧٨٢ — ١٧٨٩ وقد ظهرت شهرته في عالم الادب للمرة الاولى في باريس بعد ان تعرف الى ديدرو وغريم ودلباش ومدام دابينه وغيرهم من قادة الرأي العام في سنة ١٧٤٥ وفي سنة ١٧٥٠ كتب مقاله المشهور الذي بحث فيه في موضوع « هل ساعدت المدنية

الالهية ، وان مبادئه الممتازة قد نفعت كثيراً في تهذيب ابناء زمانه ، غير انها تقادم عليها العهد اليوم فاصبحت غير صالحة لابناء هذا الزمان .

وغيرهم ممن ارادوا التخلص من الموضوع تخلصاً فاصلاً ، عادوا الى الفكرة القائلة بان الانجيل اسطورة قديمة ، وان حياة يسوع حديث خرافة ، فضلّوا في مجاري الكفر والحيرة ، وقالوا ان يسوع لم يولد قط على هذه الارض لا في زمان ولا في مكان معروفين .

الحديثة على تنقية الاداب والعادات» متخذاً الوجهة السلبية غاية لبحثه فنال جائزة كلية ديجون فاتجهت اليه انظار الادباء في سائر انحاء فرنسا . وفي سنة ١٧٥٤ زار مسقط رأسه جنيفا في سويسرا ، وعند عودته منها كتب روايته الاولى جولي او « نوفال الواز » التي طبعت في سنة ١٧٦٠ ، واتبعها بكتابه المشهور « العقد الاجتماعي » وهو كتاب سياسي طبع سنة ١٧٦٢ مع رواية اخرى عنوانها «اميل» او التهذيب . وقد اثارت المبادىء المودعة في هذه الكتب خواطر الجمهور ضد مؤلفها واعتبرت الكنيسة الاراء المسطرة في الرواية الاخيرة «اميل» طعناً اليماً في الدين ، ولذلك صدر الامر بحرق الكتاب في باريس وفي جنيفا في وقت واحد . وقد اضطر روسو بعد ما رأى من هياج الناس ضده للهرب الى انكلترة حيث استقبله هوم وبوسوال على الرحب والسعة في سنة ١٧٦٦ . غير انه لم يقم طويلاً في انكلترة حتى عاودته مخاوفه فأساء الظن باصدقائه الانكليز ، ورجع الى فرنسا في ايار سنة ١٧٦٧ فلم يتعرض له احد بسوء في هذه المرة . وقد عاش فقيراً جداً ، وكان يحصل معاشه من القليل الذي كان يناله من كتبه وعمله في دائرة المعارف ونسخه للقطع الموسيقية ، وفي ايار سنة ١٧٧٨ ترك باريس وذهب الى قرية قريبة منها اسمها ارمانونفيل ، حيث توفي في تموز من السنة عينها ، ويرجح انه مات منتحراً .

ولكن أي بشر يستطيع ان يملأ الفراغ الذي يتركه يسوع في القلوب الانسانية — يسوع الذي يودّون ان يقتلوه ؟ ان القبر الذي يعدونه لدفنه ثانية قبر عميق ، وهم يزيدونه عمقاً في كل يوم ولكنهم لم يقدروا ولن يقدروا على لحده فيه ، او حجبه عن انظار محبيه .

وبعد هذه الهجمات العدائية بدأت مصانع الكفر والالحاد تصنع ديانات جديدة لاتباعها المارقين عن الدين ، وما اكثر ما اخرجت تلك المعامل في اثناء القرن التاسع عشر من الديانات التي كان يقوم بها الكثيرون من المرتدين عن السراط المستقيم : من مثل ديانة الحق ، وديانة الروح ، وديانة الاخاء العام ، وديانة الفروسية ، وديانة البشرية المجرّدة ، وديانة الوطنية ، وديانة الاستعمار ، وديانة العقل ، وديانة الجمال ، وديانة السلام ، وديانة الآلام ، وديانة الرحمة ، وديانة الاسرة ، وديانة المستقبل ، الى آخر ما هنالك من الالفاظ الرنانة فكان بعض منها عبارة عن بضعة مبادىء مسيحية ممسوخة ، مسيحية مشوّهة ، مسيحية مفككة الاوصال ، مسيحية بدون الله ، وغيرها ، وهي الاكثرية ، انما قامت لغايات سياسية او فلسفية فارغة تجرّب ان تحرّر نفسها من عالم الاسرار والروح . ولكن الذين تبعوا تلك الديانات الجديدة عن اقتناع وتسليم كانوا قليلين ، بل اقل من القليلين ، ولم تلبث ثورة هيامهم وانشغافهم ان همدت لانهم لم يجدوا في تعاليمهم الجديدة المتقطعة ، التي كانت تستهوي بعض ذوي الغايات والمنافع

المادية او الادبية ، — لم يجدوا ما يملأ الفراغ الذي تركه خروج يسوع من قلوبهم .

و بعد ذلك قامت كتيبة اخرى من تلك الكتائب بهجمات جديدة ترمي الى هدم تلك الديانات المزورة الغريبة وايجاد ديانة جديدة تؤدي الى افهام البشر الحقيقة التي ينشدونها في اديانهم . فقام الماسون والارواحيون والسفسطائيون ، والمنجمون ، والعلماء المغرورون يدعون انهم وجدوا المبدأ الذي يغني البشرية قاطبة عن المسيحية ، ولكن مثل هذا المزيج من الخرافات القذرة ، والتنجيم العقيم ، والفلسفة المحشوة قشاً متعفناً ، والمعرفة الرديئة الباطلة ، والمجاز المشوه والخيال البعيد ، والبشرية المحمضة الحرّيفة ، والمبادىء البوذية الممسوخة عن اصلها الجليل ، والمسيحية المزورة — كل هذا مع جميع ما بذلوه من هذا القبيل لم يكن ليقنع الا نفراً من ضعيفات النساء وسخيفي العقول من الرجال ، وانما مثلهم في تجاربهم مثل ذلك الذي يسعى الى تصفية الفضاء غير المحدود بمصفاته ذات الثقوب الضيقة المحدودة . عند هذا الحد وقف اولئك الاغرار ولم تتسرب مبادئهم الى اكثر من بضعة الوف من الضعفاء بالروح .

وفي الوقت ذاته كان آخر اعداء [1] يسوع يتحفز للظهور في

(١) العدو هنا هو الفيلسوف الالماني الجاحد فردريك نيتشي (١٨٤٤ — ١٩٠٠) صاحب المبدأ المشهور القائل بان الانسان يستطيع ان يرغم ذاته على

بيت قسيس الماني ، ومن على كرسي التعليم في كلية سويسرية . فقد هبط هذا من جبال الالب وهو يترنم في اشعة الشمس قائلاً : « ان يسوع نحر الحياة في فؤادها » : لان الخطيئة جميلة ومثلها التمرد والمقاومة . وكل ما يجاوب على مسائل الحياة « بنعم » جميل بهج. (وزار اثوسترا) (١) بعد ان رمى في البحر المتوسط الاصل اليوناني للعهد الجديد المنقح في ليبزيك (٢) وطرح معه مؤلفات ما كيافيلي (٣)

الكمال بحصر قواه في السعي الدائم وراءه : أما فلسفته فهي ضرب من ضروب الانانية الحرقاء ، وقد كان رسولا ومحامياً في حياته عن السوبرمان : او الرجل الافضل بيد انه مات مجنوناً .

(١) زار اثوسترا : هو المشترع والنبي الفارسي القديم ، الذي أوجد الديانة الفارسية في السنة الالف قبل المسيح المتضمنة في كتاب « الفراندافاستا » وهي الديانة التي كان يدين بها الفرس قبل ان اعتنقوا الاسلام.

(٢) ليبزيك : مدينة في المانيا سكانها نحو ستين الفاً ، مشهورة بنسخة العهد الجديد اليونانية المنقحة فيها والمعتبرة من اصح نسخ العهد الجديد اليونانية .

(٣) ما كيافيلي : هو نيقولا ما كيافيلي السياسي والمؤرخ الايطالي المشهور، ولد في فلورنسا سنة ١٤٦٩ وتوفي سنة ١٥٢٧ . واول ما ذاع صيته في عالم السياسة في ايطاليا عندما تعين كاتم اسرار مجلس العشرة في فلورنسا . وقد ظل المدبر الوحيد لمصالح جمهورية فلورنسا مدة اربع عشرة سنة ، كان في اثنائها اميناً على مصالح مدينة آبائه وجدوده مخلصاً في خدمتها والسعي وراء عمرانها وتقدمها . وعندما رجع الحكم الى عيلة مادبسي بمساعدة البابا يوليوس الثاني في سنة ١٥١٢ عزل ما كيافيلي من منصبه ثم اودع السجن بتهمة وجهت اليه خلاصتها انه تواطأ مع بعض الثوريين على قلب الحكومة الجديدة ، ولكنه لم يمكث في السجن طويلا حتى افرج عنه فاعتزل السياسة وذهب الى بيته في سان

بدأ يثب على اقدام تمثال « ديونيسيوس » (١) مؤملاً ان القوة ستتجدد في رجل الماني ابن لقس لوثيري ، كان قد تنحى عن الكرسي الذي كان يشغله في احدى جامعات العلم في سويسرا ، ومع ان اناشيده كانت لذيذة للآذان ، فانه لم ينجح قط في ايضاح ما كان يرمي اليه من وراء اقواله الرنانة في الحياة المكرمة التي يجب ان يضحي الانسان من اجلها جزءاً كاملاً من كيانه الروحي ، وهو احتياجه الى قمع غرائزه الحيوانية : كما انه فشل ايضاً في ان يقول لنا باية طريقة وقف

كاسيانو حيث انكب على الكتابة والتاليف . ومن خيرة مؤلفاته كتاب تاريخ فلورنسا الشهير من ١٢١٥ الى ١٤٩٢ ، وكتاب « الامير » الذي نال شهرته في عالم الادب بواسطته ، وكتاب « علم الحرب » وروايات مختلفة . واسم ما كيافيلي يكاد يكون مرادفا لكل ما هو فظ وغليظ من انواع الحكم الاستبدادي في جميع الحكومات

(١) ديونيسيوس : هو ابن ارموكراتيس . وقدبدأت شهرته في الشجاعة التي تفرد بها في الحرب التي اثارها السيراقوسيون على القرطاجنيين ، وكان سيداً مطاعاً وطاغية مستبداً في سيراقوسا . وكان شديد الاستبداد والبطش برعاياه حتى انهم كانوا يخافون ظله ، وقد حفر مغارة بشكل اذن في صخرة ودعاها اذن ديونيسيوس . وكان في داخل هذه المغارة سجن عظيم ووراءه غرفة سرية تصل اليها اصوات المسجونين في المغارة بطريقة واضحة وكان ديونيسيوس يقضي اكثر اوقاته في هذه الغرفة السرية لاستماع ما كان يتكلم به السجناء والانتقام منهم اذا تعرضوا لشخصه العظيم . وقد مات في السنة الثالثة والستين من عمره سنة ٣٦٨ ق. م. بعد ان حكم ثمانية وثلاثين عاما وخلفه ابنه ديونيسيوس الاصغر في الملك . وعندما استلم الابن زمام المملكة دعا افلاطون اليه ودرس عليه مدة بيد انه لم يكن افضل من ابيه بل اقتفى أثره في الاستبدادوظلم العباد.

يسوع حاجزاً في وجه الحياة ، يسوع الخالد الذي انما جاء ليقودنا الى حياة اسعد واسمى من حياتنا البشرية. غير ان هذا العدو المقاوم ليسوع، عند ما رأى ذاته واقفاً على ابواب الابدية ، كتب كتابه الاخير وعنوانه : « المصلوب » ! .

« ٢ »

إن محن الدهر وما اكثرها ، وجهود الانسان وما اوفرها ، لم تستطع مع كثرة ما جربت ان تنفي يسوع من هذه الارض . فان تذكاره ظاهر في كل مكان وزمان : وان الوف الصلبان القائمة على جدران الكنائس والمدارس وعلى رؤوس قباب الاجراس ، وقنن الجبال ، وفي المزارات الصغيرة في الشوارع ، وفوق الاسرّة ، وعلى القبور — كلها تعيد للذهن موت ذلك المصلوب ابداً . ولكن ترى لو اخذت التماثيل من الكنائس ، ونزعت الايقونات من البيوت والمذابح . فهل تستطيع ان تحجب يسوع عن الانظار ؟ كلا والف كلا! فان المتاحف مملوءة من ذكره ومن آثاره . وهل اذا حرقت جميع كتب الطقس والفروض المقدسة يحترق معها ذكر يسوع ؟ كلا ! فان اسمه وكلماته مدونة في جميع كتب الآداب في سائر اللغات.

حتى ليكون التجديف عليه اعترافاً غير مراد بوجوده !

اجل ، ان يسوع نهاية وبداية ، بل هاوية سر الهي تشطر تاريخ

البشرية الى شطرين متباعدين ، لان الوثنية والمسيحية لم تتصلا ولن تتصلا ، احداهما بالاخرى. فعندنا زمن قبل المسيح وزمن بعد المسيح. بل ان جيلنا ومدنيتنا ، وحياتنا كلها تبتدىء بولادة المسيح ، واذا دفعتنا محبة الاطلاع الى البحث عما جرى في العالم قبل المسيح وتفهم اسراره ، فان ذلك لا يلامس ارواحنا لانه ليس من اوضاعنا ، وهو مقيد بقيود غريبة عنا ، وخاضع لنظم غير نظمنا ، وانما وضع لزمان غير زمانا ، ولاقوام غير اقوامنا ، فليس لنا فيه ما يحرك شواعرنا ، ويستميل قلوبنا . وكثيراً ما يكون في ذلك القديم بعض الجمال ، او كل الجمال ، ولكنه لسوء الحظ جمال ميت . فقد كان الناس يتحدثون بالقيصر في ايامه اكثر منهم بيسوع ، وعلَّم افلاطون (١) علوماً اكثر من يسوع . ولا يزال ابناء هذا القرن يذكرون العاهل الروماني ، والفيلسوف اليوناني ، ولكن مَنْ مِن الناس في هذا

---

(١) هو فيلسوف اثينا الشهير ، الذي جمع بين قوة الفكر وحدة الذكاء بدروسه العديدة واجتهاده ، وقوة الجسد والعضلات بمواظبته على الرياضة الجسدية ولذلك كان افضل واحكم اهل زمانه. وقد بدأ حياته الادبية بقرض الشعر وتأليف الروايات . وعندما كان في العشرين من عمره جيء به الى سقراط فتتلمذ له ودرس عليه مدة . وبعد أن سافر في بلاد عديدة وجمع اختبارات مختلفة أقام في ضواحي اثينا يلقي خطبه المشهورة التي كان يتوافد لسماعها العلماء والنبلاء والطلبة الاذكياء من سائر انحاء اليونان . وقد مات في يوم عيد ميلاده ابن ثمانين سنة نحو سنة ٣٤٨ قبل المسيح . ونالت كتاباته من الاحترام ومبادئه وآراؤه من الاعتبار درجة بالغة حتى دعاه العلماء « بالالهي »

العصر يهمه ان يكون متعصباً لقيصرا وضد قيصر ؟ بل اين الافلاطونيون في هذا الزمان واين خصوم الافلاطو نيين .

وعلى العكس من هذا نرى ان يسوع لا يزال حياً في العالم الى اليوم ولا يزال فريق من العالم يحبه ، وفريق يبغضه ، فريق تختلج قلوبهم بمحبته ، فتدفعهم المحبة الى بذل حياتهم في سبيل نشر مبادئه وتعاليمه وفريق تتأجج نيران العداء له في قلوبهم ، فيبذلون كل ما تصل اليه ايديهم لتخريب مبادئه ونقض تعاليمه . على أن في هذه المقاومة التي يصادفها يسوع من اعدائه المتألبين على قتله ثانية لاكبر دليل على انه لم يمت ، بل هو حي الى الابد لأن الاموات لا يرعبون أحداً ، وأما الذين يقفون حياتهم لمحاربة يسوع وعدم الاعتراف بمبادئه وتعاليمه فهم انما يقضون عمرهم في نشره للعالم وتخليد ذكره بينهم من حيث لا يقصدون .

نحن عائشون اليوم في العهد المسيحي الذي لم ينقض بعد . فاذا شئنا ان نفهم معنى العالم الذي نعيش فيه ، والحياة التي نحياها ؛ اذا شئنا أن ندرك حقيقة وجودنا ، فليس لنا مورد نستقي منه ماء الفهم والمعرفة التي نحن في أشد الحاجة اليها سوى معين يسوع ، فيجدر بكل جيل أن يقرأ ويكتب بشارته الخالدة . على أن جيلنا الحاضر قد كتب وطبع هذه البشارة اكثر من جميع الاجيال الماضية ، ولذلك ربما كان على مؤلف هذا الكتاب ان يبرّر ذاته على كتابة كتابه

هذا . ولكن مثل هذا التبرير ، اذا كان هنالك من حاجة اليه ، بيِّنٌ ظاهر لكل من يقرأ هذا الكتاب .

فان عصرنا الحاضر قد ابتعد بروحه عن يسوع اكثر من كل العصور المسيحية التي تقدمته . ولذلك فهو بالحقيقة أشد العصور حاجة الى يسوع . لان الكتب القديمة التي بين ايدي أبناء هذا العصر لا تكفي وحدها لقيادتنا الى المسيح . فانه لم يظهر في العالم حتى الآن كتاب عن حياة المسيح ،ولو كان مؤلفه من اكبر علماء زمانه النابغين، يبسط حياة يسوع بما نراه في الاناجيل من البساطة والجمال والكمال فان الدقة والرصانة الظاهرتين في الاناجيل الاربعة الاولى من العهد الجديد لا يمكن ان تجاريهما قوة في العالم مهما تفردت بالعظمة والنبوغ . وقلما نستطيع ان نزيد شيئاً على ما اوردوه لنا من الحقائق.

ولكن من منا يقرأ الاناجيل في هذه الايام ؟ بل من يستطيع ان يفهمها ولو عزم على قراءتها ؟ فهنالك ملاحظات علماء اللغات القديمة، والتحريفات الناجمة عن الترجمة من لغة الى لغة ، وتفاسير المفسرين وذوي الاختصاص من اللاهوتيين ، والزوائد والحواشي التي يزيدونها في الهوامش ، والقراءات المتعددة المتضاربة ، الى آخر ما هنالك من الصعوبات التي لا يصبر عليها الا ذوو العقول الصبورة والمحبة للبحث والتنقيب . غير ان القلب يحتاج الى اكثر من ذلك

فان لكل عصر من العصور حاجاته وافكاره وغرائب جنونه

ولذلك يجب ان تترجم الاناجيل القديمة ، المكتوبة بلغة قديمة ، الى لغة الضالّ لكي تنقذه الحكمة التي فيها من ضلاله . لاننا لا نستطيع ان نبقي المسيح حياً في قلوبنا ، او ان نجعله حاضراً معنا الى الابد ، مالم نعمد الى احيائه فينا من حين الى حين ، وذلك لايتم لنا اذا صبغناه وصورناه بريشة العصر الحاضر والوانه، بل يجدر بنا ان نعبّر عن حقيقته الخالدة ونقصّ سيرة حياته غير المتغيّرة ، بعبارات جديدة وامثال جديدة تنطبق على حياتنا اليوم .

ورب قائل يقول ان العالم مملوء من مثل هذه الكتيّبات التي ترمي الى احياء يسوع في قلوب المؤمنين ، ولكن لمثل هذا قول ، ان النافع المفيد من هذه الكتب مهجور مهمل ، وغير النافع عدمه افضل من وجوده . لاننا لو اردنا ان نكتب تاريخ الكتب التي كتبت عن يسوع لاعوزنا الوقت واضطررنا الى ان نكتب كتاباً اكبر حجماً من هذا الكتاب . ولكنه يحسن ان نقسم البحث في افضل ما كتبه المؤرخون عن يسوع الى قسمين . اولاً : الكتب التي كتبها مؤلفون متمسكون بالعقائد القديمة . وقد كتبوها ليقرأها المؤمنون . ثانياً : الكتب التي الفها العلماء ليقرأها غير المؤمنين . ولكن لا الكتب الاولى ولا الكتب الثانية تستطيع ان توجد في القلوب التعزية التي ينشدها الجميع اليوم .

«٣»

اما تراجمات يسوع التي كتبت ليقرأها المؤمنون والاتقياء فهي كتب جافة مملّة لا يرى القارئ اول صحيفة منها حتى يتحول عنها ناقماً لتعوده قراءة السهل الرقيق الذي يأتيه بالغذاء الجوهري لكيانه. بل هي اشبه بسراج قديم نضب زيته، ولكن فتيله لا يزال مشتعلاً تتصاعد منه رائحة كريهة كرائحة البخور القذر او الزيت العطن، رائحة تسدّ حلقك، وتتراكم في منخريك، فتقف مرتجفاً بين الحياة والاختناق. يأتي القارئ الذي تعود قراءة تراجم الرجال العظام المدونة بالعظمة، ودرس الادب والشعر في الكليات ودور العلم وقد ألمّ بشيء منهما، يأتي مثل هذا القارئ فيتناول كتاباً من هذه الكتب المكرّمة فلا يقرأ منه بضعة فصول حتى يخونه جلده، ويذهب صبره على قراءة ذلك النثر البليد الثقيل، والانشاء المعقّد المرقّع بالاصطلاحات القديمة التي كانت جميلة ومفهومة منذ الفسنة فامست اليوم متحجرة ميتة. وتكون الحال اردأ مما ذكرنا عند ما ينزل هؤلاء الكدش الى ميدان الفصاحة والبيان، وما اغرب الكديش وراكبه بين الجياد والفرسان. فان طلاوة هذه المكتوبات الزائلة، وزخرفاتها المحدودة الباطلة وكتابتها العالية الموافقة لروح العصر الذي دوّنت فيه، وحرارتها الاصطناعية الناتجة عن طلاوتها الظاهرة —

كل ذلك يثبط همة القارىء ولو كان من أشد الناس رغبة في الدرس والتحصيل . و إذا لم يتغلغل مؤلفو هذه الكتب بين أشواك البيان وأسراره فانهم يقعون في مثل ما يقع فيه كثيرون من الوعاظ الذين يعمدون الى فصاحة الالفاظ اكثر مما الى بلاغة المعاني وتأديتها بابسط العبارات الى أذهان السامعين ، وبالاختصار ، فان مثل هذه الكتب التقويّة انما كتبت للقراء المؤمنين بيسوع ، اولئك الذين كثيراً ما يستطيعون ان يقضوا حياتهم بدونها . ولكن العاديين من عامة الناس ، والذين ينظرون الى الدين وكتبه نظرة عدم الاهتمام ، والذين يحتقرون الكتب الدينية ، وأبناء الفنون العالية الذين تعودوا عظمة الاجيال القديمة وجدّة الايام الحديثة وبهرجتها ، لم يفكروا قط في أن يلقوا نظرة واحدة على هذه المجلدات ، واذا صدف ان وقع مجلَّد منها في أيديهم فانهم يلقونها جانباً حالما يقرأون عنوانه . واذا امعن النظر في الامر نرى انه لامثال هؤلاء فقط قد كتبت تلك الكتب ، لانهم هم الضالون عن حظيرة خراف يسوع ، وهم يؤلفون اليوم اكثرية الرأي العام الساحقة في سائر انحاء المعمور .

واما النوع الثاني من ترجمات يسوع فهو الكتب التي الفها العلماء والمؤرخون لمن اتخذوا الحياد موقفاً لهم في القضايا الدينية ، فلا هم بالمؤمنين ليعرفوا ولا بالكافرين فينصفوا . ولكن هذه الكتب لم تكن اكثر فائدة من الكتب الاولى لوصول الضالين وهدايتهم الى

نور المسيحية التي لم يتعلموا شيئاً من تعاليمها . لان الذين دوّنوا هذه الكتب لم يقصدوا ان يكون لها مثل هذه النتائج الحسنة ، ولأنهم هم انفسهم في مقدمة الضالين عن طريق الحق وفي اشد الحاجة الى من يرجعهم الى المسيح الحق والحيّ . وفوق ذلك فان الطرائق التي يتمشون عليها في كتبهم ويتبجحون باطلاقهم عليها اسماء تاريخية ، علمية ، انتقادية ، هي نفسها تقودهم الى التأمل في الكتب التي يقرأونها ، والحقائق السطحية التي يطلعون عليها ، والاجتهاد في تأييدها أو نقضها على وفق ما توحي اليهم أميالهم ورغباتهم ، وهم لو عقلوا لعمدوا الى درس تلك الكتب وتفهم ما وراء تلك الحقائق من القوة والنور والحياة . فان معظم اولئك المتفلسفين يريدون أن يجدوا الانسان في الاله ، والحقائق الحسية الظاهرة في العجائب ، والخرافة في التقليد ، وقلما تجد لهم كتاباً من غير تلك الحواشي البليدة والزوائد التافهة ، التي يضيفونها الى الكتابات المسيحية الاولى ، ومع انهم لا ينكرون ان يسوع كان شخصاً حقيقياً في العالم فهم يحذفون من حياته المكتوبة كل ما يستطيعون حذفه ، ويحيوش من « لو » و « لكن » وغيرهما من أدوات الشكوك والفروض التي هي سداة كتبهم ولحمتها ينجحون في تشويه تلك الحقيقة الخالدة المسطرة في الاناجيل الاربعة من غير أن يكتبوا شيئاً من عندهم لكي يحل محلها . ولكن اولئك المؤرخين وامثالهم الخابطين خبط عشواء في ليلة

ظلماء مع جميع ما اخرجت معامل عقولهم من البلبلة والتحريف والمبادىء الملتوية وسائر ما استنبطت قرائحهم من كتب النقد وأساطير المتقدمين وكتاباتهم وآثارهم ، وجميع ما افادهم درس اللغات اليونانية أو السامية وأسرارها — كل ذلك انما كان ينخل حياة يسوع ويصهرها فتُختَبَر في بوتقة الحق خير اختبار . وكل ما يستطيع العاقل أن يستنتجه من المقدمات المنطقية التي جاءت بها كتبهم البذيئة التي لا صلة بين أجزائها ، انه لم يعش في العالم رجل باسم يسوع ، ولو فرضنا انه وجد رجل بهذا الاسم فاننا لا نعرف شيئاً راهناً عن حياته . ولكن المسيحية بالرغم من هذه النتائج الفاسدة قد وجدت ، ولا تزال في الوجود قوة عظيمة لا يستهان بها . هذه حقيقة يعرفها كل انسان كما يعرفها أعداء يسوع أنفسهم . ولكنهم لكي يتخلصوا منها عمدوا الى الدرس والتنقيب في الشرق والغرب عن منشأ المسيحية ، وهم واضعون نصب أعينهم ان يردّوا شجرتها الى أصول متعددة من يهودية ويونانية ، وهندية ، وصينية كأنهم يقولون للمسيحيين : « تأملوا فان يسوعكم في نشأته لم يكن انساناً كاملاً كما كنا نعتقد به ، بل انما كان نموذجاً مقلداً للانسان لانه لم يقل شيئاً جديداً لم يعرفه الجنس البشري قبل ميلاده .

ولكن هل لنا كري المعجزات هؤلاء أن يفسروا لنا كيف يمكن ان رجلاً واحداً ينتحل معارف الذين تقدموه من علماء ،

وحكماء، ويقدمها للعالم ممسوخة ، ويقود وراءه من محبذي مبادئه الملايين العديدة من البشر ذوي العقول الثاقبة والقلوب المستنيرة ، بل كيف يعقل ان رجلاً مزوراً مثل هذا يستطيع ان يخدع ما لا يحصى من العقول ، والمدارس ، والكنائس ، والجمعيات والقوات القديرة التي كانت تغيّر وجه الارض منذ أجيال عديدة ؟ واننا نضرب صفحاً عن هذا السؤال الآن لأننا سنأتي على ذكره في حينه مع كثير من مثله .

على أن المنتقل من كتب الاتقياء الاولين الى كتب المؤرخين الاخرين الذين يدعون احتكار الحقيقة التاريخية انما يكون كمن ينتقل من ملال سقيم الى اضطراب عقيم . فان الكتّاب الاتقياء لا يستطيعون أن يقودوا الناس الى يسوع . والمؤرخين العلماء يضيعونه في محاولاتهم الفارغة . وكلا الفريقين عاجز عن ترغيب الناس في مطالعة ما يكتبه وهم وان اختلفوا في تقرير الايمان فانهم متفقون في سماجة الانشاء و بلادة التعبير . لان العقول الحديثة المستنيرة ، واكثرها ممن درس حياة يسوع درساً جدياً تكره الكتابات الدينية القديمة المحشوة توسعات وايضاحات مملة كرهها لما يكتبه العلماء المحدثون ، ذوو القلوب المتحجرة ، والعواطف المقززة على السواء . واصدق الادلة على ذلك انه بعد مرور سنين عديدة ، وتطور أفكار الناس في أشكال مختلفة لا نرى في أيامنا هذه كتابا من الكتب التي ألفت عن حياة

يسوع يقرأه الناس مثل كتاب « حياة المسيح » الذي كتبه الاكليريكي الجاحد رنان (١) الكتاب الذي يكرهه كل المسيحيين الحقيقيين للطريقة التهكمية التي صاغه بها كاتبه الذي كان يطلي تهكمه وتحامله بطلاء من الثناء لخدع السليمي النية والبسطاء ، الكتاب الذي يحتقره كل مؤرخ صادق لبعده عن الدقة ولكثرة ما فيه من

(١) رنان : هو يوسف ارنست رنان المستشرق والمؤرخ والكاتب الفرنساوي المشهور ، ولد في ٢٧ شباط سنة ١٨٢٣ في تراغيه بفرنسا ، ودرس في مدرسة اللاهوت في باريس . ولكنه في سنة ١٨٤٥ عدل عن رغبته في الكهنوت وانصرف الى درس التاريخ واللغات الشرقية بنوع خاص . وفي سنة ١٨٤٨ نال جائزة الجامعة الكبرى في باريس على مقال ممتع كتبه في اللغات السامية . وفي سنة ١٨٤٩ ارسلته جامعة الآثار والفنون الجميلة الى ايطاليا وفي سنة ١٨٦٠ ارسلته الى سوريه للبحث والتنقيب عن آثارها القديمة . وفي سنة ١٨٦٢ عينته كلية فرنسا استاذاً للغات العبرانية والكلدانية والسريانية ، ولكن اراءه المودعة في كتابه « حياة يسوع » المطبوع في سنة (١٨٦٣) اثارت الرأي العام ضده فعزل من منصبه ولم يرجع اليه حتى سنة ١٨٧١ وقد احدث طبع هذا الكتاب ضجة عظيمة في اوربا كلها ، وكان الحلقة الاولى من سلسلة تواريخ في نشأة المسيحية ، وهي كتاب « الرسل » طبع سنة ١٨٦٦ والقديس بولس سنة ١٨٦٧ وضد المسيح سنة ١٨٧٣ « والانجيليون » سنة ١٨٧٧ و « الكنيسة المسيحية » سنة ١٨٧٩ و « مرقص اوريليوس » سنة ١٨٨٠. وفي جميعها تظهر روحه الغير المصدقة بالقوة الفائقة للطبيعة في العقائد والتعاليم المسيحية . واخر اعمال رنان واعظمها تاريخه لشعب اسرائيل حتى زمن الملك داود . وله غير ما ذكر مؤلفات اخرى لا تقل عن هذه اهمية . وفي سنة ١٨٧٨ صار عضواً في الاكاديمي الفرنساوية وتوفي في الثاني من شهر تشرين الاول سنة ١٨٩٢

الدورات واللفتات للتوفيق والتطبيق العقيمين . ومع ان كتاب رنان هذا يظهر ان كاتبه انما كان قصيصاً مختلقاً خالطاً بين اللغات والتاريخ وعالماً متضلعاً من الآداب السامية قد اعماه التعصب الجنسي عن تأدية الحق المجرّد عن كل غاية ـ فانه قد أخذ شهرة واسعة واقبل الكثيرون على قراءته حتى غير المؤمنين وغير الاختصاصيين في هذه الابحاث .

ولكن قيمة الكتاب لا تقوم بكثرة الراغبين في قراءته من الجمهور ، او بسرعة الاقبال عليه ، لان المؤلف الذي يكتفي بذلك وحده ولا يفكر في شيء اخر سواه يُظهر انه انما كتب كتابه مدفوعا بمحبة الشهرة الفارغة لا سعياً وراء المنفعة الخالدة . على اننا نسلم ان أفضل ميزة للكتاب هي الاقبال على قراءته من جمهور القراء لما في ذلك من رواج الافكار المودعة بين دفتيه ، لا سيما اذا كان يرمي الى تحريك كوامن العواطف البشرية ، واصلاح ذات القلوب .

ومؤلف هذا الكتاب يرى — واذا كان على غير هدى فانه يشكر لكل من يوضح له خطأه ويهديه سواء السبيل — انه لا يوجد بين الوف الكتب التي سطرت فيها حياة المسيح كتاب واحد على الاقل يجرّب ان يقدم طعاماً ملائماً للروح ، ويفي بحاجات ابناء هذا الزمان . بل كل ما في تلك الكتب طوائف من البراهين العقائدية والمباحث العلمية المتضاربة .

نحن اليوم في حاجة الى كتاب حياة ومحبة ، يجدّد في عيون

الاحياء ، صورة يسوع الحيّ الى الابد بمظهر حيوي محبوب امام عيون ابناء هذا العصر ، ويجعلهم يشعرون في اعماق قلوبهم ان يسوع حاضر معنا الان ، والى آخر الدهور يراقب حياتنا بعطف وحنان .

نحن في حاجة الى كتاب يظهر يسوع بكمال عظمته الحية الحاضرة ــ العظمة الخالدة التي أُعطيَ لنا نحن الاحياء ان نتمتع بها حيناً — يظهر هذه العظمة لاولئك الذين احتقروه وانكروه ، والذين لا يحبونه لانهم لم يروا وجهه الحقيقي في حياتهم ، ويوضح العجائب والمعجزات الفائقة الطبيعية التي رافقت بداءة حياته البشرية الساذجة ، الحقيرة ، المجهولة ، وكيف ان البشرية الساذجة ووداعة القلب السليمة اشرقت للجميع عند ما صار مخلصاً سماوياً في نهاية حياته ، عند ما صار شهيداً ، وقبر وقام ثانية بمجده الالهي من بين الاموات .

نحن في حاجة الى كتاب يُظهر ما في تلك المأساة الخالدة التي اشتركت السماء والارض في تدوينها من التعاليم العديدة الملائمة لارواحنا والموافقة لعصرنا الحاضر ولحياتنا ، هذه التي نستطيع أن نلامسها ونعتنقها ليس فقط في تعاليم يسوع وأقواله بل في كل مظهر من مظاهر حياته على الارض من مغارة بيت لحم الى سحابة بيت عنيا . كتاب يكتبه عامي للعوام الذين هم غير مسيحيين أو هم مسيحيون بالاسم فقط ، كتاب لا يتكلف الطقوس المزوّرة ولا بلاغة العلم المنمق وانما يكون كتاباً علمياً بطريقة تأييده للحقائق ، و بكلمة

وجيزة ، نحن في حاجة الى كتاب يكتبه كاتب عصري يحترم فنَّه ويفهمه فهماً صحيحاً ، ويعرف كيف يسترعي انتباه الجمهور ولو كانوا من الدّ أعدائه .

« ٤ »

على ان المؤلف لا يدعي انه أبرز الكتاب المنشود بكتابه هذا . ولكنه قد سعى جهده وبذل كل ما وصلت اليه طاقته لجعل كتابه هذا قريباً من ذلك المثال الاكمل وبملء الاخلاص والاتضاع يُصرّح في هذه المقدمة أنه لم يكتب « تاريخاً علمياً » . اولاً ، لانه ليس من فرسان هذا الميدان ، وثانياً ، لانه لا يريد أن يفعل ذلك ولو تيسرت لديه جميع المعارف الضرورية لمثل هذا العمل . وهو ينصح للقارىء الاديب أن يضع نصب عينيه قبل قراءة هذا الكتاب ان مؤلفه انما كتبه في مكان منفرد ، في البرية البعيدة عن الحضارة ، وانه لم يكن لديه سوى عدد قليل من الكتب ، ولم يحصل على مساعدة لا من صديق ناصح ولا من استاذ مصحّح ومنقّح . ولذلك يَجب ألاَّ تُصوَّب اليه سهام الناقدين أو غيرهم ممن يفحصون الينابيع الاولية ، التي منها يستقي المستقون ، بمكروسكوباتهم الدقيقة ، ولكن ذلك مما لا يعبأ به ازاء ما سيجلبه هذا الكتاب من التعزية والخير للنفوس المحتاجة اليه . لان المؤلف يريد من صميم قلبه أن

يكون هذا الكتاب مجيئاً ثانياً للمسيح لا موتاً ثانياً .

وقد اعتمد المؤلف في كتابه هذا على الاناجيل الشريفة متخذاً منها خلاصة « حياة المسيح » وهو يعترف بصراحة بانه ليس ممن تهمهم المباحثات التي لا نهاية لها ، والمجادلات العقيمة الطويلة في صحة الاناجيل الاربعة وقانونيتها ، أو تاريخ كتابتها وما فيها من الحواشي والقراءات ، أو علاقتها واحدها بالآخر ، أو في مصادرها وغير ذلك من الابحاث التي لا فائدة منها . لانه ليس لدينا مستندات أقدم عهداً من الاناجيل وليس من كتابة يهودية أو وثنية تتيح لنا أن ننقح هذه الاناجيل أو نكذبها غير أن الذي يأخذ على نفسه السعي وراء هذه المستندات يستطيع أن يهدم معتقدات كثيرة ، ويغير كثيراً من الاراء ، ولكنه لا يقدر بعمله هذا أن يُقرِّب الناس خطوة واحدة نحو معرفة المسيح الحق بل ربما كان للكثيرين عثرة وشكاً . لأن يسوع حيٌّ في الانجيل ، حيٌّ في تقاليد الرسل والآباء ، حيٌّ في الكنيسة التي أسسها وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وكل من تسوّل له نفسه أن يخرج عن هذه المصادر الثلاثة فلا يجد سوى الظلمة والسكون . ولذلك وجب على الذين يريدون أن يقبلوا الى نور معرفة المسيح أن يقبلوا الاناجيل الاربعة كاملة ، حرفاً حرفاً ، وجملة جملة ، — والا فالاجدر بهم أن يرفضوها بكاملها من أولها الى آخرها قائلين « اننا لا نعرف شيئاً » وأما الذين يريدون

فحص هذه الكتب الطاهرة للتمييز بين ما هو موثوق بصحته منها وما هو مشكوك فيه، بين ماهو تاريخي حقيقي وماهو خرافي وهمي بين ما هو مزيد على الاصل وما هو عقائدي اصلي — فانما هم مباشرون عملا لا أمل من ورائه؛ بل كثيراً ما ينتهي بالفشل وتضليل القراء السليمي النية، وفوق ذلك فانهم بعد أن يتيهوا في صحارى الشك مناقضين ذواتهم بذواتهم يعودون الى حيث كانوا بدون أن يفهموا شيئاً جديداً لم يفهموه قبل ذلك. غير أن أكابر علماء العهد الجديد الثقات قد اجمعت كلمتهم على أن الكنيسة قد تمكنت في العصور الاولى من انتقاء أقدم وأضبط نسخة للاناجيل التي كانت معتبرة ومحترمة من الجميع في ذلك الزمان. وذلك كل مانريده ولا رغبة لنا في سواه.

وأما الكتب التي اعتمدها المؤلف غير الاناجيل فهي كتاب « لوغيا — وغرافا » الذي هو تالٍ للاناجيل في الاهمية، وبعض كتابات أبو كريفية بفطنة وتحفظ وتسعة أو عشرة كتب من ترجمات يسوع الحديثة.

والمؤلف يدرك جيداً انه في كتابه هذا كثيراً ما بعدت اراؤه عن اراء الكثيرين من المؤلفين في هذا الموضوع. لان المسيح الذي رسم حياته ههنا مجرد من جميع المظاهر الخارجية التي نراها امام عيوننا في الصورة المقدسة — وكل ما يرمي اليه من وراء هذا الكتاب هو أن

يأتي بالفوائد التي يحتاج اليها العالم اليوم ، وان يكون كتاباً نافعاً قبل أن يكون كتاباً جميلاً . ولأعمام الفائدة قد أعاد كثيراً من الاقوال التي قالها غيره من قبله مما لم يكن قد سمع به من قبل . غير أن موضوع هذا الكتاب ، وهو الحق بعينه ، واحد لا يتغير ، ولا يستطيع انسان أن يزيد عليه شيئاً جديداً سوى أن يقدمه للعالم بقالب أكثر تأثيراً في قلوبهم وأسهل تناولاً على افهامهم .

وقد تجنب المؤلف أشواك التنقيب العلمي كما تجنب الخوض في عباب المباحث اللاهوتية العميقه وأسرارها . ولكنه قد أقبل الى يسوع ببساطة قلب ، وحرارة شوق ، ومحبة كاملة كما جاء اليه صيادو كفر ناحوم في قديم الزمان ، الذين لسعادتهم كانوا اشد جهلا من هذا المؤلف المسكين .

ولما كان المؤلف ابناً مطيعاً « للكنيسة الكاثوليكية » مؤمناً بعقائدها المسطرة في انجيلها الموحى فقد كان واضعاً نصب عينيه الباس هذه العقائد ثوباً جديداً يتفق مع رغبات هذا العصر لقيادته الى مناهج الحق والسلامة . وبالاجمال فانه يصرخ مع الرسول القديس بولس قائلاً «قد صرت للذين لا شريعة لهم كأنه لا شريعة لي لكي أربح الذين لا شريعة لهم . وللضعفاء صرت ضعيفاً مثلهم لكي أربح الضعفاء . قد صرت كل شيء لكل الناس لكي أخلص البعض بكل شيء . وانما فعلت ذلك من أجل الانجيل »

وقد عُنيَ المؤلف أن يصوّر العالم اليهودي والعالم الوثني معاً في كتابه هذا بصورة واضحة لكي يظهر عظمة المسيح بمقابلته مع جميع من سبقوه في العهدين الوثني واليهودي . فلم يتبع الترتيب التاريخي في سرد كل وقائع حياة المسيح لانه رأى ذلك اكثر انطباقا على فكرته التي ليست تاريخية فقط « كما سبق فقال » بل انما يرمي من ورائها الى ترتيب الحقائق التاريخية في حياة المسيح ترتيباً بيناً ظاهراً بعضها وراء بعض من غير أن يتركها متفرقه هنا وهناك في سياق الترجمة .

وقد شاء تجنباً للتبجح في شكل الكتاب أن يهمل الحواشي والشروحات فيه ، وأما المصادر التي دعم بها حقائقه فقد أوردها بحرفيتها كما وردت لمؤلفيها . ذلك لانه لم يشأ أن ينتحل لنفسه ما ليس فيه من البراعة في ترجمة الكبراء . ولا أن تخرج من سراج كتابه أقل رائحة تدل على أن الزيت الذي فيه زيت لوذعية وفلسفة . أما ذوو الاطلاع فانهم يعرفون لدى قراءتهم هذه الحقائق ، المصادر التي استقيت منها ، والاراء التي اختارها المؤلف في حل كثير من القضايا الانجيلية . وأما الذين يتوقعون أن ينظروا كيف ظهر يسوع ولا تهمهم نظريات العلماء والمفسرين فانهم يتيهون بين الحواشي والهوامش وينتهون من قراءة الكتاب وكأنما لم يبدأوا بعد .

ومن الآراء الغريبة التي جاء بها المؤلف في كتابه ويود أن يلفت انظار القراء اليها في هذه المقدمة ، رأيه في المرأة الخاطئة التي بكت

على قدمي يسوع فانه بالرغم من ان المطلع على الاناجيل الاربعة يرى أن امرأتين مختلفتين في حادثتين متنوعتين جاءتا الى يسوع ، فقد أجاز المؤلف لذاته ، لقصد فنّي ، أن يورد الرواية كأنها عن أمرأة واحدة وليس عن اثنتين . ولذلك فهو يستميح القراء عذراً وهو واثق بأنهم عاذرون ، ولا سيما وان هذه القضية ليست مما يمس عقيدة .

وقد تجنب أيضاً أن يفيض في شرح الوقائع المعترضة في حياة يسوع التي كانت تظهر بها الأمّ العذراء ، لانه لم يشأ أن يجعل هذا الكتاب أطول مما هو ، وبنوع خاص لأنه رأى انه يستحيل عليه بمثل هذه الاشارات الوجيزة أن يظهر فيض غنى الجمال الروحي البادي في شخص مريم . لأن ذلك يحتاج الى مجلد ضخم غير هذا المجلد ، والمؤلف عازم على الشروع فيه ان اطال الله في حياته وقوته « لكي يقول فيها ما لم يقله أحد عن أمرأة قط »

وربما يلاحظ ذوو الاطلاع من علماء الكتاب أن كثيراً من الحوادث المهمة قد اختصرت في هذا الكتاب في حين أن كثيراً غيرها قد أفاض المؤلف في شرحه فوق المعتاد والمعروف ، وما ذلك الا لان بعضا من المواضيع بدا اكثر موافقة لقصد الكاتب الذي هو (بلغة مهجورة وغريبة عن اصطلاحات أقوام اليوم السفسطائيين) قصد البنيان والتهذيب .

« ٥ »

اجل ان هذا الكتاب — ومؤلفه يعلم كم سيصيبه من الهزء بسببه — انما وضع ليكون كتاب بنيان وتهذيب ، كتاب بنيان وتهذيب للنفوس البشرية الحاسة لتجديد طبائعها تجديداً روحانياً ، وليس للارواح المنقبضة بالتعصب الديني الممقوت الذي طالما كان حائلاً بين الناس والانجيل .

فان من يبني بيتاً انما يعمل عملاً عظيماً وصالحاً ، لانه يوجد لنفسه ملجأ يقيه برد الشتاء واخطار الليالي والايام . ولكن ما اسمى بناء الانسان نفسه بحجارة الحق الخالدة ! واذا حدثك احد عن البناء فانك لا ترى في ذلك سوى كلمة قد اخلقها الاستعمال واكل الدهر عليها وشرب فلم تبق لها قوتها الاولى . كان البناء يطلق في القديم على اقامة الجدران والحيطان لحماية الانسان والحيوان . ولكن مَن مِن القراء خطر له ان يحصي المواد التي يحتاج اليها البناء في اقامة بيت ، او اي بناء اخر سواه ، على اساسات راسخة ، وبجدران متينة وسقف مرتكز على اعمدة ثابتة ؟ ليفتكر القارئ ، وليتأمل في كل ما يحتاج اليه الانسان في بناء مسكنه . حجارة منحوتة مربعة جيداً ، وقرميد مشوي شياً كاملاً ، وجسور وأخشاب سالمة من العطب ، وكلس جديد ، ورمل نقي صالح للبناء ، وسمنت وليقونة لم تفقدها

الايام قوتها ! وبعد ذلك صبر في صدور عمال ذوي اختصاص مدربين لكي يضعوا كل شيء في موضعه ، فيقيموا الحجارة بعضها فوق بعض بدقة ومهارة لئلا تسقط من مواضعها ، ولا يضعوا كثيراً من الماء او الرمل في الطين ، ويحافظوا على رطوبة الجدران ، ويعرفوا كيف يسدون الشقوق والثقوب ، ويدلكون الطين الخشن ليصير جميلاً ناعماً ! كل ذلك لكي يتعالى بيت الانسان يوماً فيوماً في بنائه نحو السماء — البيت الذي سيقطن فيه هو وامرأته ، البيت الذي سيولد فيه اولاده ، البيت الذي سيضم شمله مع اصدقائه واحبابه المقربين .

وكم هنالك من الناس الذين يعتقدون بانه يكفي الانسان العازم على تأليف كتاب ما ان يكون في رأسه موضوع من المواضيع ، فيأخذ كلمات معدودة ويضعها بعضها الى جانب البعض ، فيكون له من ذلك الكتاب الذي يريد وضعه . ولكن هذا الاعتقاد وهم فاضح ، وضلال مبين . فليس اتون الكلس او مقلع الحجارة بالبيت الذي يقطن فيه الانسان . فان بناء البيت ، او تأليف الكتاب ، او تهذيب النفس ، يقتضي له جهود واسعة يبذل فيها الانسان كل ما تصل اليه قوته من الهمة والنشاط . واما الغاية من هذا الكتاب فهي تهذيب النفوس المسيحية تهذيباً صحيحاً يقودها الى معرفة يسوع . وما أحوجها الى هذا التهذيب في عصرنا الحاضر . لا يمكن المؤلف ان يثق بنجاح فكرته نجاحاً تاماً ولكنه واثق بان القراء سيرون بين

ايديهم كتاباً — وليس مجموعة اوراق — او معرض قطع صغيرة متقطعة ـ كتاباً متوسط الحجم والقدر ، كتاباً ممتلئاً من الاغلاط ، بيد انه كتاب مبني بناء جيداً ، كتاب عني صاحبه في كتابته كما يعنى البناء الماهر في بنايته المتينة ، كتاب له روحه الخاصة وهندسته الخاصة ، كتاب له بناؤه الروحي الخاص بقبابه وبديع اتقانه . واقسامه واروقته — وشرفاتها المتجهة نحو السماء والمطلة على الحقول .

وقد شاء المؤلف بصفته مزاولاً فن الكتابة ، ان يستعير من فنه ، في اثناء كتابته ، صوراً جديرة بكتاب كهذا ، ولكنه يعترف بصراحة بأنه لم يشأ قط أن يخرج كتابه هذا آية في البلاغة ، أو في جمال الشعر وسموّه ، لان الحقيقة أعز على قلبه من الجمال . ولكن اذا كانت مقدرته ككاتب ـ على شدّة قصوره في هذا الفنّ ككاتب محب لفنّه ـ تساعد في اقناع نفس واحدة وهدايتها الى يسوع فان ذلك يجعله شاكراً لما أوتيه من حقير المواهب . وفوق هذا فقد ساعدته محبته للشعر على اظهار الحقائق التاريخية بصورة حية جديدة واضحة بعد ان تحجرت على ممر الاجيال في جمودها ، وتعودت الاذان سماعها واحدة من غير تغيير .

فان من أسعد بخيال بعيد ينظر الى كل شيء كما لو كان جديداً . فكل نجم كبير لامع في الافق البعيد يقودك في ظلمة الليل الى البيت الذي يحجب ابن الله : وفي كل مزرب من مزارب الحيوانات مذود

يقودك بالذهن الى مذود بيت لحم ، مهد الراحة والخلاص ، وكل قنة جبل عارية مشعشعة النور من أنوار الصباح الذهبية فوق التلال الراقدة في الاظلال تستطيع ان تذهب بك الى قنة سيناء او جبل ثابور . ففي النيران وفي التبن والقش ، وفي مشاحر الفحم المشتعلة على التلال في سكينة الليل يمكنك ان ترى عمود النار الذي اناره الرب لكي يقودك في غيابة الصحراء ،واعمدة الدخان المتصاعدة من أكواخ الفلاحين الفقراء تظهر الطريق عن بعد للفعلة العائدين من اعمالهم الى اكواخهم . والاتان التي تحمل الراعية القادمة وراء بقراتها الحلوب قد حملت النبي الى خيام بني اسرائيل والفادي الى أورشليم قبل عيد الفصح . والحمامة التي تهدل على حافة السطح القرميدي تعيد الى ذهنك الحمامة التي اعلنت نهاية القصاص بالطوفان للبطريرك ، والحمامة التي انحدرت فوق مياه الاردن . فان الشاعر يرى لكل شيء قيمته وكل الاشياء متساوية بالقيمة في عينيه ، وكل شيء حاضر امامه ، والتاريخ بجماع حوادثه هو تاريخ مقدس .

وان المؤلف يستميح زملاءه الكتاب المعاصرين عذراً على خروجه من حدود الكتابة المألوفة التي يلقبونها بالفصاحة والبلاغة زوراً وبهتاناً ، وما هي في الحقيقة سوى مجموعة مبالغات ومتناقضات لايعرف أولها من اخرها وهو يعرف جيداً ان فصاحة الكلام و بلاغة الالفاظ قلما تغوي قراء العصر الحديث ، كما أن الثياب الحمراء القانية

لا تستغوي المرأة الساكنة في المدن الكبيرة ، وكما أن الارغن الذي في الكنيسة لا يطرب الراقص الطروب . ولكنه لم يهمل الفصاحة في كل مواقفه ، لان البلاغة اذا لم تكن مزوّرة مقلّدة تُعبّر عن عبقرية صاحبها وشدة ايمانه ، ولكن قلما نحتاج اليها في عصر قل ايمانهُ ، ووفرت زندقته ، وفوق ذلك فان حياة يسوع ذاتها مأساة بل شعر خالدة فصاحته ، يدخل اعماق النفس ولا يعوزه سوى الكلمات الساذجة المعبرة عن شعائر القلب .

وبوسويه (١) الذي ما كان يجهل فن الخطابة ، قال : « شاء الله أن نزيل من كلامنا ما يشنّف الاذان ، وكل ما يلذّ الارواح ، وكل ما يهيّج المخيلة ، حتى لا نبقي الا الحقيقة الخالصة التي انما هي وحدها القوّة الفعالة التي يوليها الروح القدس . اذ لا غرض لنا الآ ارجاع الناس الى الحق » قول مصيب ! لكن : من يستطيعه !

كانت أيام وكان مؤلف هذا الكتاب يستعمل في كتاباته بلاغة فيها من القوة والحياة ما يحرك جميع القلوب وخيالا فيه من الفن والبعد ما ينقل النفس عن طريق السحر والافتتان الى عالم النور والذهب والنار . وكثيراً ما كان يأسف كل الاسف على انقياده الى

(١) المطران الفرنساوي الملقب بنسر « مو » لسمو معانيه ومبانيه وهو من اخطب خطباء القرن السابع عشر بل من اخطب خطباء النصرانية . جزل العبارة دامغ الحجة . له تاليف جليلة . كان مهذب ولي عهد فرنسا وقد وضع له كتباً لا تزال الى اليوم ذات قيمة في التاريخ والاجتماع (١٦٢٧ — ١٧٠٤)

خيال المصور الفني ، وعبقرية الكاتب اللوذعي ، واستسلامه للنقش والحفر والترصيع حتى لم يعد يقوى على ان يترك للاشياء الطبيعية عريها الجميل المتضمن كل ما في الطبيعة من القوة .

الا أن المؤلف لا يعرف كيف يجب أن يؤلف كتابه حتى ينتهي من تأليفه . ولذلك وجب عليه بعد أن يفرغ من كتابة اخر كلمة في كتابه ان يعود الى أوله فيبدأ العمل ثانية مستخدما في العمل الثاني ما اكتسبه من الاختبار في عمله الاول . ولكن اين الذين لهم من الصبر والجلد ما يستطيعون معهما أن يضعوا ذلك ، او على الاقل اين هم الذين يرون هذا الرأى في العالم

وربما يظهر لبعض قراء هذا الكتاب ان قسما منه اقرب الى الوعظ منه الى التاريخ . وقد كانت هذه الحقيقة في مقدمة الاسباب التي حدث بالمؤلف الى وضع هذا الكتاب . لاننا قلما نرى في هذه الايام سوى العجائز من الرجال والنساء في الكنائس لسماع المواعظ التي كثيراً ما تكون جامدة ، بعيدة عن الحياة ، بل كثيراً ما تتكرر الحقائق الاساسية امامهم من غير ان يفقهوا لها معنى — ويجب ألا نغفل عن الذين هم خارج الكنائس من العلماء والفقهاء ، والفلاسفة السفسطائيين الذين سرت الى اذهانهم سموم المادة ، وهم لا يدخلون كنيسة في حياتهم ولكنهم يدخلون المكاتب في كل يوم .أولئك الذين لا يصغون الى عظة قسيس مهما كلفهم ذلك . ولكنهم

يقبلون على قراءتها عندما تكتب في كتاب . وانه ليمكننا أن نصرح باجلى بيان أن هذا الكتاب انما كتب للذين هم خارج كنيسة المسيح . وأما الذين لا يزالون في أحضان الكنيسة متحدين مع خلفاء الرسل الاطهار فانهم ليسوا في حاجة الى كلامي .

ويستميح المؤلف لنفسه عذراً على جعل هذا الكتاب كبير الحجم كثير الصحائف في موضوع واحد ، في حين ان اكثر الكتب في هذا العصر وفي مقدمتها كتب المؤلف — هي عبارة عن بضع صفحات مأخوذة من الجرائد والمجلات ، وقصص وحكايات صغيرة ، أو بضع ملاحظات منقولة لا تزيد في الغالب على مائتين أو ثلاثمائة صحيفة . وأما كتابة مجلد كهذا في موضوع واحد فأمر ربما يظهر أن القائم بها مدّع مغتر . ولا شك أن هذا الكتاب سيظهر طويلا لقراء هذا الجيل الذين تعودت معدهم البرشان الخفيف الرقيق فلم تعد تقوى على هضم الخبز الناضج المحتوي على كل مقويات الحياة . ولكن الكتب كالايام تكون طويلة أو قصيرة بالنسبة الى ما تتركه من التأثيرات .

والمؤلف لم يبرأ حتى اليوم تمام البرء من كبريائه ليظن أن كتابه هذا ينفّر منه القراء لانه طويل ولكنه يطمع بأن الناس يقرأونه بغير ملال . ولكن ما أصعب أن يشفي الانسان نفسه من داء العجرفة والكبرياء ولو كان هو ذاته ممن يرغبون في ابراء الآخرين .

«٦»

منذ بضع سنوات وضع المؤلف كتاباً وصنف فيه كآبة حياة انسان أراد أن يصير آلهاً . واليوم وقد بلغت سنو حياته ومدارك عقله يكتب كتاباً آخر شارحاً فيه حياة آله شاء بارادته أن يصير انساناً ! في تلك الايام السوداء أطلق هذا المؤلف بعينه العنان لهواه ورغبات نفسه الجامحة ، فتاه في مجاهل الشك وضل في مسالك المتناقضات وهو يعتقد بأن انكار كل أمر فائق للطبيعة أفضل طريقة لتجريد الانسان من التعصب الديني والدنيوي للوصول الى الكفر والالحاد الكاملين ، وقد كان في عقيدته هذه من المنطق ما كان في عقائد كاروبيم دانتي[1] الاسود ، لان الانسان مخيَّر بين أمرين وعليه أن

(١) دانتي : هو اعظم شعراء ايطاليا ، ولد في فلورنس في اواخر ايار سنة ١٢٦٥ من اسرة نبيلة . وقد تعمق من درس جميع معارف زمانه ، وبالغ في الاسفار والتقاط الاخبار عن الحوادث والامم المختلفة . وفي سنة ١٣٢١ مات وهو في سفره في مدينة رافنا فقبر هناك وما برحت عظامه فيها . اشهر مؤلفاته منظومته الخالدة المدعوة (بالكوميدية الالهية) وهي تقسم الى ثلاثة اقسام ، الجحيم ، والمطهر ، والفردوس ، وقد كتبها كلها وهو بعيد عن وطنه . وخلاصة هذه المنظومة ان الشاعر حلم حلما رأى نفسه في غابة خضلاء ظهر له فيها خيال فرجيل وطلب اليه ان يقوده الى الجحيم والمطهر ويريه اسرارهما ولم يكن في طوق فرجيل الوثني ان يأخذه الى الفردوس ولذلك اخذته بياتريس بورتيناري المرأة التي تعشقتها روحه وهو في التاسعة من عمره ، وقد اظهر بوضعه لها الصفات السامية التي كانت تتحلى بها والقوة السحرية التي كانت لها على حياته .

يختار واحداً منهما — الله أو لا شيء . لاننا اذا ابطلنا عبادة الله فاننا انما نبطل بذلك عاطفة العبادة في قلوب الناس ، ونبطل أيضاً أية حجة كانت في رفع أوثان القبائل أو غيرها من أصنام العقل أو الشعور .
في تلك الايام السوداء أيام الغطرسة والكبرياء تجرأ كاتب هذه السطور على اهانة يسوع كما أهانه نفر غيره من قبله . ومع ذلك فانه بعد مرور ست سنوات (مجبولة بالآلام والاوجاع من داخل قلبه وخارجه) بعد أشهر طويلة تقضت بالصلوات والدموع عاد فجأة الى عمل كان قد شرع فيه منذ سنين عديدة ، وكأنما كانت تدفع به الى عمله هذا قوة غير منظورة أسمى وأقدر منه ، باشر كتابة « حياة المسيح » هذه التي رغب فيها رجاء أن تكون بعض الكفارة له عن

وفي السفرة الاولى الى الجحيم وصف دانتي بالغ العظمة الشقاء الذي سيصير اليه المجرم ، ومن الجحيم برفقة فرجيل الى المطهر حيث يصف بمنتهى الجمال الشعري عذاب الانفس الموقت في المطهر — ومن المطهر ينزل الى الفردوس الارضي حيث يرى بياتريس فتحمله ويصعدان معا الى الفردوس السماوي ، وبعد ان يجتازا معا الدوائر السبع الاولى يبلغان الى الثامنة ، وهنالك يرى الجلال العظيم الذي يحيط بالنادي الكريم وفي السماء التاسعة يرى دانتي نفسه في حضرة الجوهر الالهي ، ويرى نفوس الابرياء جالسة على عروش عظيمة في حلقات لا اول لها يعرف ولا اخر يوصف . وعندما بلغ السماء العاشرة لم يستطع ان يرى الله سبحانه وتعالى من عظمة النور المشرق هنالك — هذه خلاصة منظومة دانتي وحبذا لو ينقلها احد شعرائنا الى اللغة العربية كما فعل المثلث الرحمات سليمان البستاني بالالياذة ، وفي هذه من الشعر والحقيقة والعلم والدين اضعاف اضعاف ما في الالياذة .

جرائمه الماضيــة ، ولطالما حدث أن الذين كانوا يبغضون يسوع ومن ألد أعدائه صاروا في مقـدمة أصدقائه المتفانين في حبهم له ودفاعهم عنــه . لانه كثيراً ما يكون البغض عاطفة محبة عميقة لم تنضج بعد : بل كثيراً ما يكون البغض أساساً راسخاً أفضل للمحبة عن عدم المبالاة.

وانه ليضيق بنا المقام اذا جئنا نوضح كيف وجد المؤلف الطريق المؤدية الى يسوع بعد أن اجتاز المسافات البعيدة ومشى على طريق متعددة أدّت به جميعها الى اقدام جبل الانجيــل ، لان ذلك عدا ما فيــه من الصعوبة يستغرق مجلداً كاملاً . ولـكن هنالك عبرة كبرى في الامثولة التي تلقيها علينا حيـاة رجل كان منذ صباه من أشد الثائرين المتمردين على كل ايمـان ودين ، الذين يبغضون جميع الـكنائس على السواء ويمقتون سائر أنواع العبودية الروحية ، وقد مرت به اختبـارات كثيرة متنوعة وهو يتقلب بين الشك واليقين الى أن جمع في صدره رغبات عصر متقلقـل لا يقرّ قراره ولا راحة فيه — الرجل الذي بعد أن عاش في الضلال والهذيان والاحلام اعواماً عديدة عاد ثانية الى يسوع وكأنما عاد من الموت الى الحياة .

أما رجوعه الى يسوع فلم يكن عن تعب وملال من حياته الماضية لان ارتداده جعل الحياة أكثر صعوبة عليه من ذي قبل ، والمسؤولية الملقاة على عاتقه كجندي ليسوع أثقل وأثقل ، كلا ، ولم يكن ارتداده عن تقدمه في الايام لانه لا يزال في مصف الشبان ، وليس عن محبة

الشهرة لان العالم بحالته الحاضرة يرحب بالكفرة والمعطلين ويكرم الزنادقة والمارقين من الدين أكثر مما يعبأ بالمؤمنين . ولكن هذا الرجل المرتد من الظلمة الى نور المسيح رأى أن يسوع مظلوم وقد غدر به أصدقاؤه وتناسوا أمره فهب لكي يعيد ذكره الى الاذهان ويرجعه الى القلوب التي أقفرت من المحبة في غيابه عنها ، ويدافع عنه.

فان القائمين بالثورة على يسوع لم يقتصروا على اعدائه فقط ، بل ان اقرب المقربين منه الذين كانوا تلاميذ له في حياته لم يفهموه حق الفهم بل غادروه اخيراً ضاربين صفحاً عن تعاليمه . وغيرهم كثيرون من الذين ولدوا في كنيسته وتعمدوا باسمه قد تمردوا على تعاليمه ، وعصوا اوامره ، وباتوا يهتمون بصورته على الخشب اكثر مما يهتمون بمثاله الحي في القلوب — باتوا يعتقدون انهم بشفقتهم الظاهرة وتقواهم الكاذبة التي تحرك شفاههم للقبلات اليوداسية ، وركبهم للركعات الفريسية الباطلة لانها لم تصدر عن القلب — باتوا يعتقدون بأنهم قد اتحدوا بذلك الرياء مع المسيح ، واكملوا ما سألهم ان يفعلوه وانهم قائمون بما لا يزال يطلبه منهم وكل ما طلبه من البشر عبثاً في مدة الف وتسعمائة سنة . اجل . ان كتاب «حياة المسيح» اليوم هو جواب ضروري بل ماء مروٍّ لظمأ النفوس التائهة في بادية الكفر والالحاد لان ميزان الرأي العام في القرن الحاضر ضد يسوع . ولذلك كان الكتاب في حياة يسوع ثقلا يوضع في كفة الميزان حتى ان

الحرب الخالدة بين المحبة والبغض تسفر على الاقل عن موازنة العدالة. هذا وان المؤلف لا يعبأ اذا سمّاه البعض من الناقدين رجعياً . لان الانسان الذي يعتقد الناس بأنه متأخر عن زمانه انما هو في الحقيقة مولود قبل حينه . فان الشمس المائلة الى المغيب هي بعينها الشمس التي تنير في تلك اللحظة بلاداً اخرى غير البلاد التي تغيب فيها . لان المسيحية ليست قطعة قماش اورثتناها الأجيال الغابرة فرثّت وبليت وقد تقادم العهد على منافعها وحسناتها . بل انما هي قوة معنوية ، عند كثيرين من هذا الجيل حتى انها لم تبدأ بعد . فان العالم ينشد ، اليوم ، السلام اكثر مما ينشد الحرية ، غير انه لن ينال سلاماً الا تحت نير المسيح .

يقولون ، ويابطل ما يقولون ، ان يسوع نبيّ الضعفاء والمساكين ، ولكن يسوع لم يأت الاّ لكي يمنح الضعفاء قوة ، ويرفع المدوسين تحت الاقدام الى أرفع من ملوك . ويقولون أن ديانته انما هي ديانة المرضى والمائتين . ولكننا نراه سحابة حياته شافياً للمرضى ، ومقيماً للاموات الذين سماهم نائمين .

ويقولون أنه عدو الحياة ، ولكننا نراه يقهر الموت ويجرد مملكته من الجبروت والسلطان . ويقولون انه آله الحزن والكآبة ومع ذلك فاننا نراه ضاحكا يحض تلاميذه على الفرح ، واعدا أصدقاءه ومحبيه بملكوت تسود فيه السعادة والافراح .

ويقولون أنه علّم بالاماتة والحزن وقهر الذات في العالم . ولكننا نراه في حياته يأكل ويشرب ، ويأذن بأن يُغْسَل رأسُهُ وقدماه بالعطور الفاخرة ، ويحتقر الصيام الفريسي لأجل المظاهر الكاذبة واخاديع التوبة السطحية الباطلة .

كثيرون قد تركوا يسوع لأنهم لم يعرفوه ، ولو عرفوه لما تركوه قط . وانما كتب هذا الكتاب لأمثال هؤلاء القراء

وانني استميحك عذراً ايها القارىء، ان اقول ان هذا الكتاب قد كتبه رجل فلورنتيني وهو ابن للامة التي من بين سائر امم العالم قد اختارت يسوع ملكا لها فقد بدأت هذه الفكرة اولا في « سافوناررولا » سنة ١٤٩٥ ولكنهم لم يستطيعوا ان ينفذوها . غير انها بالرغم من مقاومات عديدة قد تأيدت فيما بعد بالاكثرية الساحقة سنة ١٥٢٧ ونقشت الكلمات التالية على قطعة من الرخام البديع وضعت بين صورة الملك داود الذي صورها ميخائيل انجلو (١)

(١) ميخائيل انجلو : هو اشهر مصوري ايطاليا ، وكان فوق تفوقه في التصوير نحاتا ومهندساً وشاعرا . ولد سنة ١٤٧٥ في توسكاني ومات سنة ١٥٦٣ في رومية . وعندما ذاعت شهرته في الحفر والرسم دعته حكومة فلورنسا ليزين قاعة مجلس الشيوخ بصور وتماثيل تاريخية ، بيد انه قبل ان يفرغ من عمله اقنعه البابا يوليوس الثاني ان يترك فلورنسا ويعيش في رومية . وفي هذا الوقت عمل تمثال الحبر الاعظم الموجود الان في كنيسة القديس بطرس في فينكولى وصور قبة كنيسة سيستين ممثلا فيها الخليقة والحوادث الهامة في التاريخ المقدس. وفي سنة ١٥٣٠ كان في مقدمة المدافعين عن فلورنس ضد الملك شارل الخامس.

صورة تمثال هرقل (١) الذي نحته « باندينالي » (٢) هكذا :

JESUS CHRISTUS REX FLORENTINI
POPULI P. DECRETO ELECTUS

وبعد هذا بثلاث سنوات بدأ عمله في الصورة العظيمة ليوم الدينونة التي أخذت ثمان سنوات من حياته . ومن أعظم صوره الاخيرة : اهتداء القديس بولس ، وصلب القديس بطرس في الكنيسة البوليسية . ومن اعماله المشهورة في النحت تنزيل المسيح عن الصليب ، وتمثال باخوس الذي قال فيه رافائيل انه لا يقل قيمة عن تمثال فيدياس اوبرا كسيتاليس وفي سنة ١٥٤٦ اضطر ان يتمم بناء كنيسة مار بطرس في رومية ، فوضع الرسم للقبة وبناها ، بيد انه لم يتح في اجله ليرى رسمه تاماً ولذلك تغير القليل منه بعد موته . وقد بنى غير ذلك قصورا وهياكل عديدة . وقد امتازت اعماله بالعظمة والمتانة ، اما اشعاره ، فهي وان حسبها وسيلة للتسلية واضاعة الوقت ، تدل على عبقريته ونبوغه ، واما نثره فغاية في الدقة والبلاغة وهو يقتصر على المحاضرات والخطب والرسائل.

(١) هيراكليس او هرقل : من مشاهير ابطال الاغريق . وهو ابن زفس (جوبيتر) وقد رتب بين الالهة بعد موته . وفي الخرافات اشخاص كثيرون بهذا الاسم ، ولكن المشهور ان هرقل الحقيقي هو ابن جوبيتر والكمانة الملقبة عادة بالثيبية . وقد رافق ميلاد هرقل عجائب عديدة لان يونو شقيقة ساتورن واحدى نساء جوبيتر ارسلت حيتين لابتلاعه ، ولكنه قبض عليهما وقتلهما . وقد اجترح سلسلة من المعجزات تسمى « اعمال هرقل الاثني عشر » وهي مسطرة في كتب خرافات اليونان . وفوق هذه الاعمال كان يساعد الالهة في حروبها مع الجبابرة ، ويجترح العجائب والغرائب في كل موقعة . وحياته ممتلئة بالحوادث الخرافية التي يطول بنا شرحها .

(٢) بندينالي : نحات ايطالي مشهور ولد في فلورنس سنة ١٤٩٣ وتوفي سنة ١٥٦٠ وقد كان يحسد ميخائيل انجلو ويزاحمه في عمله . ومن اعماله المعروفة تمثال هرقل البطل الاغريقي ، وجسد المسيح ميتاً يحمله الملاك ، وآدم وحواء وغيرهما .

ولا تزال هذه الكتابة ثابتة هنالك الى اليوم على رغم ما طرأ من تقلبات الزمان ، ولا يزال الامر بوضع هذه الكتابة نافذاً من غير ان يتغير او ينقض ، واليوم بعد مرور اربعمائة سنة من السلب والاغتصاب يفتخر مؤلف هذا الكتاب ان يسمي نفسه جنديا وعبدا ليسوع الملك .

المغارة

ولد يسوع في مغارة ، في مغارة حقيرة ، في مغارة حقيقية ، وليس في البهو الطلق المنير الذي اخترعه المصوّرون المسيحيون لابن داود كأنما هم يخجلون ان يكون ربهم قد اتكأ في الفاقة والقذار . كلا . وليس فى المغارة المقدسة التي يقيمها ابناء القرن الحاضر من الرخام البديع ، تزينها التماثيل الصغيرة التي هي اشبه بتماثيل الحلوى ، المغارة المقدسة ، البديعة ، المتقنة التصوير المحكمة الهندسة وفيها المذود الجميل والترتيب والنظافة ، والحمار اللطيف المنظر ، والثور المكتئب ، والملائكة يروحون بأكاليلهم فوق السقف — ان هذه المغارة ليست بالمغارة التي ولد فيها يسوع .

فان المغارة الحقيقية عبارة عن قبو او حبس تزرب فيه الحيوانات العاملة لاجل الانسان . والمغارة الحقيرة القديمة التي كانت في البلاد

التي ولد فيها يسوع كانت تتألف من أربعة جدران غليظة ضخمة ، وأرض قذرة وسقف من الجذوع والاخشاب والتراب . لا تدخل اليها أشعة الشمس ولذلك تشتد فيها الرطوبة ويسود في داخلها الظلام ، وأنظف موضع فيها هو المذود (المعلف) حيث يضع صاحبها التبن والعلف لحيواناته .

وكانت مروج الربيع المتموجة في نقاء الصباح ، المرتعشة تحت خطرات النسيم اللامعة بقطرات الندى ونور الشمس ، قد قطعت وتجمعت أكداساً أكداساً . وكانت الاعشاب الخضراء والاذنات الطويلة قد قطعت أيضاً بالمناجل ووضعت الى جانب الورود المتعددة الالوان — البيضاء ، فالحمراء ، فالصفراء ، فالزرقاء ، بيد أن الطبيعة كانت قد فرقت تلك النباتات وجفّفتها فأصبحت كلها حقيرة صفراء بلون واحد . وكانت الثيران تجرّ العجلات الحاملة غنائم حزيران الباردة الى المخازن والاهراء . أما ذلك العشب الجميل وتلك الورود العطرة فكانت في ذلك الوقت من السنة علفاً وقشاً يابساً مخزوناً لايام الشتاء ، وكان صاحب المغارة قد أعد قسماً من ذلك العلف ووضعه في المعلف غذاءً لعبيد الانسان . وكانت الحيوانات تلتهم تلك الاعشاب والورود اليابسة بأفواهها الواسعة ، وهكذا كانت الورود العطرة تتحول الى قذارة وسرقين في تلك المغارة

هذه هي المغارة التي ولد فيها يسوع . هذا هو اقذر مكان في

العالم وقد كان البيت الاول للطاهر النقي الوحيـد المولود من امرأة .
فان ابن الانسان ، الذي جاء لـكي تلتهمه حيوانات وحشـية تسمي ذواتها بشراً قد اتخذ ، كمقره الاول بملء اختياره ، المذود الذي تأكل الحيوانات منه ازهار الربيع العجيبة

على أن ولادة يسوع في مغـارة حقيرة لم تكن صدفة من الصدف لانه اي شيء هو العالم سوى مغارة واسعة الارجاء يتمرغ العـالم في حمأتها واقذارها ؟ بل أليس البشر انفسهم يغيرون في كل يوم اجمل واطهر واقدس الموجودات التي لديهم الى قذارة وسرقين ؟ ثم لا يلبثون ان يهبّوا صائحـين وهم يتمرغون في حمأة شرورهم واوساخهم قائلين انهم يتمتعون « بملذات الحياة » ! على هذه الارض زريبة الخنازير القذرة التي لا تستطيع زخارف البشر وعطورهم ان تخفي رائحة اوساخها — على هذه الارض ولد يسوع في سكينة الليل من عذراء بريئة من كل عيب ، متسلحة بطهارتها ، مدرّعة بعفتها .

الثور والحمار

ان الحيوانات قد سبقت البشر الى عبادة يسوع . لان يسوع قد اختار بسطاء القلب من البشر : ومن بسطاء القلب اختار الاولاد. ولـكن البهائم التعبة ، وهي ابسط من الاولاد وأودع من سائر أبناء الانسان قد رحبت بيسوع أولاً .

فالثور والحمار، مع ما هما عليه من الاحتقار، وبالرغم من انهما عبدان لمخلوقات اضعف منهما واشد همجية. قد شاهدا الجموع يسجدون على ركبهم امامهما. بل ألم يضطر شعب الله الخاص، شعب يهوه العظيم، الشعب المختـــار الذي حرَرَه الرب من عبودية المصريين — ألم يضطروا هارون عنـدما تركهم زعيمهم وصعد الى الجبل لكي يخاطب القـديم الايام — ألم يضطروا هارون ان يصنع لهم عجلاً مذهباً ليعبدوه؟ وفي بلاد اليونان كان الحمار مقدساً عند عبـاد اريس (١) وديونيسيوس (٢) وافلون (٣) وكذلك حمارة بلعام (٤) وهي احكم من النبي صاحبها، وقد خلصته عند ما تكلمت

(١) اريس او اوريس: (المريخ) اله الحرب ورب الفتك والبطش عند اليونان.

(٢) ذيونيس أو ديونيسيوس رب الكرمة والخمرة واله الطرب واللهو.

(٣) ابولو أو افلون «هو ابن جوبيتر المشتري» كبير الآلهة وسيدهم من امرأته لاتونا، ويسمى أيضاً فيبوى. وهو معروف باسماء كثيرة اهمها ما يأتي: سول (الشمس) كينثيوس، نسبة الى جبـل اسمه كينثيوس في جزيرة داليوس، وداليوس نسبة الى الجزيرة التي هي مهبط رأسه، ودالفيكوس، نسبة الى علاقته بهيكل دلفي العظيم، الذي كان يلقي فيه خطبه المشهورة. وكان اله الفنون الجميلة، وأبا الموسيقى والشعر والخطابة. وقد تقبل من زفس «المشتري» القوة الى معرفة الغيب. وفي الساعة التي ولد فيها قتل الحية فثون التي بعثت بها يونو لتضطهد لاتونا امه وتعذبها ولذلك سمي فيثيوس. وقد يمثل في النحت لشاب يحمل قوساً في يده وقد أطلق منها سهمها الاخير.

(٤) بلعام. هو ابن بعور من فتور، وهي قرية فيما بين النهرين. وكان نبياً مشهوراً في جيله: والظاهر انه كان موحدا يعبد الله. وليس ذلك بعجيب

وهكذا نرى اوكسوس ملك الفرس يضع حماراً في هيكل فثا (١) ويضطر شعبه الى عبادته واوغسطوس القيصر المعاصر ليسوع اقام في الهيكل حماراً من نحاس لكي يعيّد له الشعب تذكاراً لاجتماعه بحمار اسمه المنتصر .

الى ذلك الحين كان الملوك والعامة الملتهبون بمحبة المادة وعشق الفضة يسجدون للثيران والحمير . ولكن يسوع لم يأت الى العالم لكي

لانه من وطن ابرهيم الخليل حيث يظن أن جرثومة تلك العبادة كانت لم تزل معروفة عند أهل تلك البلاد (ما بين النهرين) في أيام هذا الرجل . وقد ذاع صيت هذا النبي بين أهل ذلك الزمان ، فعلا شأنه وصارت تقصده الناس من جميع أنحاء البلاد لينبأ لهم عن أمور مختصة بهم أو ليباركهم ويبارك مقتنياتهم وما أشبه . ومما هو جدير بالذكر أن بالاق ملك موآب استدعاه اليه ليكن شعب اسرائيل ، وأما هو فسأل ربه ليلة قدمت عليه رسل موآب ، فلم يؤذن له ، فلما كان الصباح رفض طلب بالاق وصرح علانية أن الرب لم يسمح له أن يلعن هذا الشعب . ثم عاد بالاق فأرسل اليه ثانيــة فأذن الله لبلعام أن يذهب الى بالاق وفيما هو في طريقه كان ما كان من أعجوبة نطق حمارته على ما هو مذكور في سفر العدد ٢٢ : ١١ — ٢٣ . ولما وصل الى بالاق أمره أن يبني سبعة مذابح ويقدم على كل منها ثوراً وكبشاً ، ثم سأل الله فيما يصنعه فأمره الله أن يبارك اسرائيل فباركهم على مسمع من بالاق وقومه وهم وقوف حوله . وانتهى الحال أن بلعام بارك اسرائيل ثلاث مرات وخسر بالاق ما كان أطرف به بلعام من الهدايا على يدي رسله بغية ان يستميله ليلعن له اسرائيل ، فلم يلعنهم فاغتاظ بالاق من ذلك ورجع كل منهما الى مدينته .

(١) بثا اوفثا : اله مصري قديم ، عبده الفرس أيضا واقاموا له الهيا كل في بلادهم ، وكان عند قدمائهم ينظر اليه كخالق جميع الاشياء وينبوع الحياة وكان يعبد بنوع خاص في مدينة ممفيس .

يحكم على العالم أو يتمرغ مع ابنائه في اوحال مادة العالم ، بل انما جاء لكي يضع حداً لعبادة الحيوان ، وليبطل ضعف هارون ، و يزيل اوهام اوغسطس وخرافاته .

ان بهائم اورشليم سوف يقتلونه ولكن ، اليوم ، بهائم بيت لحم تدفئه بلهاثها . وعند ما يصعد يسوع الى مدينة الموت لعيد الفصح الاخير يصعد راكباً على جحش ابن اتان ولكنه كان نبياً اعظم من بلعام اتياً لكي يخلص جميع الامم والشعوب لا اليهود وحدهم . ولم يرتد الى الوراء في عمله خائفاً مذعوراً ، لا لعمري انه لم يرتد الى الوراء مع ان كل بغال اورشليم كانت تنهق ضده .

الرعاة

جاء الذين يعتنون بالحيوانات لاظهار عواطف محبتهم ليسوع بعد الحيوانات ، فانه لو لم يعلن الملاك من السماء البشارة المفرحة كان الرعاة من تلقاء ذواتهم عازمين على الدخول الى المغارة لكي ينظروا ابن المرأة الغريبة التي كانت ضيفة في مغارتهم تلك الليلة . لان الرعاة يعيشون بعيدين عن ضوضاء العالم وحيدين ، منفردين ، وقلما يعرفون شيئاً عن العالم البعيد عنهم أو عن الاعياد التي يحتفل بها أبناء الارض ولذلك فهم يتأثرون بكل ما يحدث حواليهم في الحقول والجبال ولو كان ذلك الحادث من اتفه الحوادث وابسطها .

وفيما كان أولئك الرعاة يسهرون على قطعانهم في هجعات الليل الباردة رأوا نورا عظيماً اشرق عليهم فدهشوا وارتعدت فرائصهم. ثم ما لبثوا ان سمعوا صوت الملاك قائلا «لا تخافوا ، فها أنا ذا أبشركم بفرح عظيم يكون لكل الشعب : المجد لله في العلى وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة » فهبوا من ساعتهم راكضين الى المغارة فابصروا على نورها الضئيل أمرأة فتية جميلة تنظر الى طفلها بعينين تفيضان حنانا . وعندما نظروا الى الطفل ورأوا عينيه المفتوحتين لاول مرة أمام نور الشمس ، وجسمه الوردي اللطيف ، وفمه الجميل الذي لم يكن قد تناول بعد طعاماً تحركت قلوبهم واختلجت عطفاً وحباً فان ولادة طفل جديد في العالم ، تتحد نفسه في جسم بشري لكي تتألم مع غيرها من النفوس التاعسة لعجيبةٌ عظيمةٌ تُحرِّك الى الشفقة حتى البسطاء الانقياء القلوب الذين لا يفهمون سرها . فقد سبق أولئك الرعاة وعرفوا أن ذلك الطفل الذي وُلد حديثا في العالم لم يكن طفلا عاديا كباقي الاطفال بل انما هو الطفل الالهي الذي كان جنسهم المتألم ينتظره مدة ألف عام .

فقدم الرعاة حينئذ هداياهم الحقيرة من القليل الذي كان عندهم وما اعظم القليل اذا قرب بالمحبة . فقد حملوا الهدايا البيضاء من ثمار قطعانهم ، قليلا من لبن النعاج وجبنها وصوفها . ولا تزال هذه الروح الطيبة سائدة في جبالنا الى اليوم ، حيثما تجد آخر آثار الاريحية ،

والضيافة ، والمحبة الاخوية المحتضرة في هذا العصر . فانه بعد أن تلد المرأة طفلها تأتي بنات الرعاة ونساؤهم واخواتهم مسرعات الى بيتها ويستحيل ان تكون واحدة منهن فارغة اليد . فهذه تحمل ثلاث او اربع بيضات لا تزال حرارتها فيها لانها حملتها من تحت الدجاجة ، وتلك تحمل كأساً من اللبن اللذيذ الذي حلبته من بقرتها حديثاً ، وغيرها تأخذ بيدها فرخة حدثة لكي تعمل منها حساء للامّ المريضة .

يأتي مخلوق جديد الى عالم الآلام لكي يتألم مع اخوانه البشر وكأني بهؤلاء يأتون بهداياهم لكي يعزوا الامّ المسكينة ولو بعض التعزية وكان اولئك الرعاة في ذلك الزمان فقراء كأخوانهم رعاة هذا الزمان ، ولذلك لم يحتقروا اخوتهم الفقراء . . وكانوا بسطاء كالاولاد ولذلك احبّوا الاولاد . اما أصلهم فمن نسل راعي اور الذي خلصه راعي مديان (١) وكان اول ملوكهم رعاة مواشي قبل ان صاروا رعاة

(١) راعي مديان : مديان احد اولاد ابرهيم من قطورة (تك ٢٥ : ٢ و ٤) وقال بعضهم ان ارض مديان كانت تمتد من خليج عقبة الى موآب وطور سيناء وقال اخرون انها كانت تمتد من شبه جزيرة سيناء الى الفرات . وكان شعبها يتاجرون مع فلسطين ولبنان ومصر وكانوا برفقة الاسمعيليين عندما بيع يوسف (تك ٣٧ : ٢٨ و ٣٦) وكان الاسمعيليون من سكان مديان وسكن موسى مدة في مديان (خر ٢ : ١٥ — ٢٢ وعد ١٠ : ٢٩) والمديانيون نسل مديان القاطنون في ارض مديان . وقد اتحدوا مع مواب ضد اسرائيل فانبأ الله بهلاكهم (عد ٢٢ : ٢٥) ومع انهم انتعشوا بعد هذه الضربة وضايقوا بني اسرائيل غلبهم يشوع فكادوا يتلاشون ومن ثم حسبوا مع العرب والموابيين (قض ص ٦ و ٧ و ٨ : ١ — ٢٨ ومز ٨٣ : ٩ و ١١) .

قبائل . غير ان رعاة بيت لحم « الذين لا يعرفهم العالم المتحجر العواطف » لم يفتخروا بما نالوا من الحظوى لدى الطفل الجديد . فقد ولد رجل فقير بينهم فجاؤوا ونظروا اليه بعطف وحنان ، وقدموا له من ثروتهم باريحية ومحبة . وقد عرفوا ان ذلك الصبي المولود من والدين فقيرين ، في الفقر والشقاء ، المولود من العامة و بين ابناء العامة ، انما هو فادي ضعفاء ، ومخلّص ابناء المسرّة الذين قال لهم الملاك « وعلى لارض السلام » .

المجوس الحكماء (١)

وبعد ذلك ببضعة ايام جاء ثلاثة رجال من حكماء بلدان

(١) مجوس كلمة كلدانية أو مادية تعني كهنة رتبتهم بين الحاكم والشعب في مادي وفارس وكلدية وكانوا خدمة دين زردشت ، وكانوا معروفين بلبسهم الخاص وسكناهم المنفرد عن بقية الناس ومن جملة وظائفهم انهم ابقوا النار على مذبح ارمزد وقاموا ضد اهريمان . وكانوا علماء الامة الفارسية يعلمون الفلسفة والهيئة وغيرهما من العلوم المعروفة حينئذ . وكانوا يرافقون الملك الى ساحة الحرب (ار ٣٩ : ٣) ومع ان علمهم لم يكن مؤسساً على قواعد صحيحة فان دانيال يصفهم بالحكمة (دا ١ : ٢٠) وتوسط لاجلهم مع نبوخذ نصر (ص ٢ : ٢٤) وصار رئيسهم (ص ٥ : ١١)

وبظهر من قصة متى ان هذه الطغمة كانت معتبرة في ايام ولادة المسيح ولا نعلم من اي البلاد اتى المجوس . والمؤلف يرى هنا انهم اتوا من بلاد الكلدان ،

الكلدان وسجدوا ليسوع . ويعتقد البعض انهم جاءوا من اقبطانا او من شواطىء بحر قزبين . وقد عبروا نهري الدجلة والفرات راكبين جمالهم واخراجهم ممتلئة من خيرات بلادهم ، وبعد ان قطعوا الصحراء الكبيرة تابعوا سيرهم الى ان بلغوا شواطىء البحر الميت . وقد قادهم الى اليهودية نجم (١) عظيم جديد كالنجم المذنب الذي يظهر احياناً في السماء ليعلن للناس ولادة نبي عظيم أو موت قيصر من القياصرة .

الا انه يرجح انهم عرفوا عن اتيان المسيح من اليهود المتشتتين في بلادهم وكانوا هم باكورة الوثنيين الداخلين الى الكنيسة المسيحية وقد اقيم عيد ظهور المسيح للامم الواقع في ٦ كانون الثاني تذكارا لزيارتهم .

(١) النجم الذى ظهر للمجوس واشار اليه المؤلف هنا ، فيه رأيان :

١ انه نجم على سبيل الاية، وربما كان من المذنبات وقد تقدمهم « ووقف فوق حيث كان الصبي » (مت ٢ : ٩) ويرجح هذا الرأي لانه قريب من المعقول ومطابق للنص .

٢ انه اقتران زفس وزحل في برج الحوت ، وانه اضيف اليهما المريخ ونجم اخر لامع ، وكان منجمو اليهود يزعمون ان مثل ذلك حدث عند ولادة موسى وسيحدث عند ولادة المسيح . وهذا الرأي المبني على براهين فلكية واول من قال به كبلر (سنة ١٥٧١ ـ ١٦٣٠) وفي ١٠ تشرين الاول سنة ١٦٠٤ رصد نجما ساطعا اقترن بالمشتري والمريخ وزحل ، وبعد البحث المدقق وجد ان مثل ذلك حدث ثلاث مرات في السنتين ١٦ و ١٧ قبل المسيح . ولما كان التاريخ المسيحي الجاري متأخراً اربع سنين عن الحقيقة فيوافق ظهور هذا الاقتران المرة الاولى عندما رآه المجوس في بلادهم في المشرق وظهوره بعد ذلك حين سفرهم ومجيئهم الى حيث كان الصبي . وقدايد حساب كبلر عدة فلكيين

جاء اولئك الحكماء لكي يسجدوا لملك عظيم فاذا بهم يرون طفلاً رضيعاً مقمطاً باقماط صغيرة تحجبه مغارة البهائم . وقبل هذه الحادثة بالف سنة تقريباً جاءت ملكة من الشرق الى بلاد اليهودية وحملت معها كما حمل المجوس ، هدايا فاخرة من الذهب والعطور والحجارة الثمينة غير انها وجدت على العرش اعظم ملوك اورشليم فعلّمها حكمة لم يكن لها ان تتعلمها من بشر تحت السماء « ملكة سبا وسليمان الحكيم » .

لم يجد المجوس ملكاً بل وجدوا طفلاً مقمطاً ، طفلاً صغيراً لم يكن في مناله ان يخاطبهم بعد ولا ان يجيبهم على أسئلتهم ، وجدوا طفلاً كان عازماً على أن يحتقر كل كنوز الارض ومعارفها المبنية على المادة ومحبتها .

ولم يكن اولئك المجوس الحكماء ملوكاً ولكنهم كانوا اسياد الملوك ومعلميهم في مادي وفارس . فقد كان الملوك حكاماً على الشعب ولكن المجوس كانوا مرشدين ومدبرين للملوك . لم يكن لغير المجوس ان يخاطبوا هرمزدا — الاله الصالح . وكانت معرفة المستقبل منحصرة فيهم دون سواهم من الناس . فكانوا يقتلون بايديهم أعداء البشر والحصاد — الافاعي والحشرات الضارة والطيور المفترسة . وكانوا يطهرون الارواح وينقون الحقول من كل ما يعطل فيها . ولم يكن الاله الصالح يقبل ذبيحة من غير ايديهم . ولم يكن من الجائز

للملوك أن يعلنوا حرباً من غير مشورتهم . و بكلمة وجيزة فانهم كانوا يحتفظون لانفسهم باسرار السماء والارض . وكانت لهم الكلمة الاولى في القضايا الدينية والعلمية . فكانوا يمثلون الروح في عالم سادت المادة على جميع مظاهره فابعدته عن الروح بعد الارض عن السماء . ولذلك وجب ولاق بهم أن يأتوا من بلادهم لكي يسجدوا ليسوع . فقد سجدت له الحيوانات أولاً ، وهي تمثل الطبيعة ، ثم سجد له الرعاة وهم يمثلون الشعب ، واخيراً جاءت المعرفة وسجدت له وهي ممثلة باشخاص المجوس الحكماء — امام مدود البهائم في بيت لحم . جاءت طبقة الكهان القديمة في بلاد المشرق وقدمت خضوعها للسيد الجديد الذي كان عازماً على ارسال بشارته الى المغرب . وسجد المجوس العلماء أمام الطفل الخالد الذي جاء الى العالم لكي يبطل حكمة العالم المحدودة بالكلمات والارقام بحكمته الجديدة المتسامية بالمحبة .

أجل ، سجد المجوس في بيت لحم أمام النقاء والطهارة فمثلوا بذلك اللاهوت القديم ساجداً على أقدامه أمام الوحي الجديد الخالد ! والثروة خرت ساجدة على أقدام الفقر والعلم ، أمام البرارة .

وقد قرّب اولئك الحكماء الذهب ليسوع : الذهب الذي جاء يسوع لكي يدوسه تحت قدميه و يبطل سلطانه ، قر بوا له الذهب ليس لأن مريم كانت في حاجة اليه في غربتها ، بل قر بوه رمزاً الى الاية « بع كل املاكك واعطها للمساكين » وقر بوا له اللبان ، ليس لازالة

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY OF BEIRUT

رائحة المغارة الكريهة بل دلالة على انقضاء عهد طقوسهم وعباداتهم، واشارة الى ان مذابحهم لم تعد في حاجة الى دخان او بخور. وقربوا لهم المرّ لانهم عرفوا ان ذلك الطفل كان عليه أن يموت شاباً وان أمه التي كانت تبسم له اذ ذاك ستتمرمر احشاؤها وتحتاج الى الطيوب لكي تطيب جسده.

هنالك في ظلمة تلك المغارة في بيت لحم سجد المجوس بثيابهم الحبرية امام سرير القش الحقير، وهم الكهان ذوو المعرفة والقوة والتنجيم — هنالك سجدوا ليسوع عربون طاعة العالم وخضوعه له.

وهكذا فان يسوع قد حصل على جميع حقوقه من الكرامة والاعتبار. وما كاد المجوس يرجعون حتى بدأ اضطهاد الذين ابغضوه وسيبغضونه حتى الموت.

اكتافيوس اوغسطوس

عند ما ظهر يسوع على الارض كان المجرمون يحكمون العالم من غير اعتراض. فقد ولد وكان تحت سلطة حاكمين، كان أقواهما بعيداً في رومية وأضعفهما، وهو أردأهما، قريباً في اورشليم.

فالاول بعد ان اجتاز مغامرات عديدة سفك فيها دماء المئات من الابرياء، تسلط على الامبراطورية مغتصباً عرشها، والثاني استرق

طريقه الى عرش داود وسليمان بالقتل والاغتصاب . وقد بلغ كل واحد من هذين الرجلين ما بلغ من المركز الكبير عن طريق الحيل والمكايد والحروب الاهلية والخيانات ، والهمجية ، والمذابح . وبالحقيقة انهما انما ولدا ليعيشا معاً إذ كان كل منهما عارفاً بطباع أخيه الوحشية وقادراً على التفاهم معه . فكانا صديقين يشتركان في كل شر وغدر على مقدار ما يمكن ان يشارك الشيطان الأثيم رئيسه بعلزبول الرجيم .

وكان اوغسطوس جبانا اذا حارب ، حقودا اذا انتصر ، نا كثاً للعهود اذا صادق ، وحشيا اذا احتل بلادا جديدة . ومن حوادث وحشيته و بربريته ان رجلا محكوما بالاعدام سأله قبل ان تنفذ فيه الحكم ان يأذن بقبره في مقبرة اسرته بعد موته، فاجابه قائلاً «أن تقرير ذلك من خصائص النسور ! » وعندما سأله فريق من أعدائه رحمة في احدى المذابح قال لهم «لامفرّ من الموت» وفي موضع آخر اراد لاجل وهم خطر له ان يسمل عيني كوينتوس غاتوس قبل ان امر بقطع عنقه. هكذا طغى ذاك الطاغية والامبراطورية كلها في قبضة يده. ولما استتب له الامر وتبدد شمل اعدائه وامتد سلطانه تقنّع بنقاب من الوداعة مطلقا لشهواته العنان في الجهر والخفاء .. ومما يروى عنه انه باع بكارته مرتين في حداثته . أولا من القيصر في رومية وثانيا من هرتيوس في اسبانيا بثلاثمائة ألف ساستيريا

ولما بلغ سن الرجال كان يتلذذ بطلاق نسائه واحدة بعد واحدة والتزوج من النساء اللواتي ينتزعهنّ من اصدقائه ، ومن الزواني الفواجر ثم يدّعي انه مجدّد الاخلاق الطيبة والعادات الحميدة .

كان هذا الرجل القذر ، السافل بروحه ، المنحط بجسده ، حاكماً على المغرب في الزمن الذي ولد فيه يسوع . ولم يكن يحلم قط انه قد ولد في العالم صبي سيزعزع الاسس التي ترتكز عليها المملكة التي اوجدها ، وقد كانت شريعته في حياته الفلسفة الخاملة التي علّم بها ذلك القوم الغليظ هوراس (١) الذي كان يسرق افكار غيره

---

(١) هوراس : هو هوارشيوس فلاكوس كويتوس ، المعروف بهوراس ، اشعر شعراء اللاتين ، ولد قريباً من فانوسيا في جنوب ايطاليا ، سنة ٦٥ قبل المسيح . وكان ابوه عبداً متحرراً ، وجابياً للضرائب ، وقد اشترى لنفسه مزرعة ولد ابنه هوراس فيها . وعندما بلغ الصبي الثانية عشر من العمر انتقل به والده الى رومية فدرس العلم على اكبر علمائها ، ونال منه قسطاً وافراً . وعندما اكمل الثامنة عشرة ذهب الى اثينا لانهاء دروسه فيها . وبعد مقتل يوليوس قيصر جاء بروتوس الى اثينا ، فانضم هوراس مع اصدقائه الاحداث الرومان الى جيشه . وظل مع بروتوس الى ان انكسر فهرب الشاعر ونجا بنفسه وعندما رجعت مياه السلام الى مجاريها رجع هوراس الى رومية فوجد اباه ميتاً واملاكه محجوزة ولم يبق له شيء يعتمد عليه في حياته . ولكنه استطاع ان يجد مركزاً ككاتب في احدى الدوائر فتمكن بواسطته من الحياة ومن اظهار مواهبه الشعرية . وقد تعرف بواسطة اشعاره الى فرجيل وفاريوس . وبواسطتهما تعرف الى المثري الشهير نصير العلم والعلماء ماساناس ، الذي كان اقرب الاصدقاء المقربين من بلاط اوغسطوس قيصر ، وكان ينفق المال بسخاء على مناصرة العلوم والفنون ،

و ينتحلها لنفسه بقوله « لنتمتع اليوم انفسنا بالمحبة والخمر . فان الموت ينتظرنا بفارغ الصبر . فيجب ان لا نخسر يوماً من ملذاتنا ! ولذلك عبثاً أنبأ فرجيل (١) رجل البراري والحقول وصديق الاحراش

وقد احبه ماساناس واعطاه مزرعة غنية تكفيه للحياة برغد وطمانينة سحابة العمر . ومع ان هوراس صار فيما بعد مقرباً من القيصر ، ولكنه لم يسأله حاجة قط ، ويقال انه رفض ان يكون كاتبه الخاص . وقد مات سنة ٨ قبل المسيح وهي السنة التي مات فيها صديقه ونصيره ماساناس . اما مؤلفاته فهي عبارة عن اربعة كتب في الشعر القصصي ، وكتابين في الشعر النقدي ، وكتابين في الرسائل . واكثر اشعاره مبنية على الانغام والاوزان اليونانية ولكنها غاية في الجمال والبلاغة وله اساليبه واصطلاحاته الخاصة . اما فلسفته وعقائده ومذاهبه المتمردة الشاذة التي لاجلها يسخط عليه المؤلف في المتن ، فكلها مودعة في كتبه النقدية ورسائله .

(١) فرجيل : هو يوبليوس فرجيليوس مارو ، الشاعر الحماسي المحب للطبيعة والمتقشف للتهذيب في اشعاره المتفردة بهذه الصفات من بين جميع اشعار رومية القديمة ولد في اندس وهي قرية صغيرة قرب مانتوا في ١٥ تشرين الاول سنة ٧٠ قبل المسيح . وكان لابيه مزرعة في تلك القرية يشتغل في استثمارها وينفق ما يحصله منها على تهذيب ابنه ، وقد جاء فرجيل الى رومية ما بين سنة ٤١ و ٤٠ قبل المسيح عندما سرقت املاكه بثورة الفلاحين واغتصابها املاك الاغنياء . بيد ان املاكه استرجعت بعدئذ بمساعي اوغسطوس الذي تعرف اليه واحبه جداً . وكان من اقرب اصدقاء ماساناس وهوراس . وكانت بنيته الجسدية ضعيفة جداً ، ولذلك كان يقضي ايامه بعيداً عن رومية في تارانتوم او نابولي . وقد كتب اشعاره الرعائية ما بين ٤١ و ٣٩ ق. م. وفرغ من كتابة منظومته الزراعية سنة ٣١ قبل المسيح . اما الاونيئدية الكبرى المحتوية

والقطعان الهادئة والنخل الذهبي ، فرجيل الذي هبط الى الجحيم لكي يرى المعذبين فيه وسكب كآبته المتمردة في موسيقى الشعر ، عبثاً سبق فرجيل الخالد ، فرجيل المحب الصدوق والطاهر التقي ، فانبأ بعهد جديد و بنظام جديد وشعب جديد ، بملكوت سماوات — ينكسف أمام الملكوت الذي يبشر به المسيح — لكنه كم كان أشرف وأنبل من ملكوت الشر ذاك الذي كانوا يقيمون قواعده على الارض .

كل ذلك ذهب عبثاً لان اوغسطوس كان يحسبه وهماً من اوهام الرعاة الباطلة ور بما كان يعتقد ، وهو الفاجر وابو الفجور ، — انه هو نفسه ذلك الزعيم المخلص الذي يبشرون به والذي يستعيد ملك الاله ساتورن (١) ولكن صنيعته في اليهودية ، ووكيله الاعظم

على ١٢ كتابا فقد شرع في نظمها سنة ٢٩ ق. م. ولكنه لم يتمكن من الفراغ منها قبل موته . وفي سنة ٢٠ ق. م. عزم على سياحة في بلاد الاغريق ، ولكنه وهو في اثينا اضطر ان يرافق اوغسطوس وهو عائد من سفرته في الشرق . ولكن داء عضال حل دون وصوله سالماً الى رومية فمات في الطريق سنة ١٩ ق. م. في بروندوسيوم .

(١) ساتورن : اله روماني قديم ، وفي الخرافات انه ظهر للمرة الاولى في ايطاليا في عهد يانوس « احد ملوك ايطاليا القدماء » وكان يعلم الناس فنون الزراعة والحراثة وغيرهما وقد رفعهم من البربرية الى النظام الاجتماعي والمدنية ، ولذلك انتخب فيما بعد ليشارك يانوس في الحكم على البلاد ، ودعيت ايطاليا نسبة ساتورنيا . وقد دعا الشعراء عهد ملكه « بالعهد الذهبي » وهو يقابل

في الشرق كان يحدثه قلبه عن ولادة يسوع الملك الحقيقي الذي كان قادماً لكي يستأصل شأفة ملك الشر .

هيرودس الكبير

كان هيرودس مسخاً — بل كان اخبث وحش غدار من الوحوش العديدة التي قزفت بها صحارى الشرق الملتهبة . لم يكن يهودياً بجنسيته ولا يونانياً ولا رومانياً ، بل كان آدومياً : بربرياً قضى حياته راكعاً وساجداً على أقدام الرومانيين متذبذباً أمام اليونانيين ، لكي يتمكن بذلك من تأييد سلطته على اليهود . وقد ورث الغدر والخيانة من عهد أبيه ، فغدر برئيسه واغتصب المملكة من آخر حكام العصمونيين (١) التعساء . ولكي يجعل عمله شرعياً تزوج من ابنة

الاله كروناس عند اليونان • وقد كان هيكله خزينة المملكة • وكانت امرأته السيدة الجميلة أوبس • والاعياد والحفلات التي كانت تقام له اسمها ساتورناليا وهي تماثل أعياد كرونيا اليونانية • وقد جرت العادة أن تقدم ضحايا بشرية على مذابحه الى أن أبطل هذه العادة هرقل • وهو يمثل في الغالب شيخاً طاعناً في السن محدودب الظهر يحمل منجلا في يمينه •

(١) العصمونيون : يراد بهم هنا رؤساء الكهنة والامراء الذين حكموا اليهود مدة ١٣٠ سنة من ١٥٣ قبل المسيح عند ما كان يوناثان بن ماتاثياس أو عصمونيوس ، منتخباً لرئاسة الكهنة الى أيام هيرودس

أخيهم مريمن . و بعد ذلك قتلها ظلماً وعدواناً لظن باطل لا أساس له . ولكن لم تكن هذه أول جريمة اقترفها هذا الغدار ، فانه كان قد أمر قبلاً بقتل صهره اريستو بولوس غرقاً . وممن قتلهن أيضاً وذهبوا ضحية بربريته ابنا حميه يوسف وهيروكانوس الثاني « وهما آخر من تبقى من السلالة المنقرضة » ولم يكفه أنه قتل امرأته مريمن بل عاد فقتل امها الكسندرة ، واخيراً قتل أبناء بابا من غير ذنب اقترفوه سوى انهم من انسباء الاسرة المالكة التي هضم حقوقها . وفي الوقت نفسه كان قد امر بحرق يهوذا سارافوس ومتى مرغولوش وغيرهما من زعماء الفريسيين لكي يمتع همجيته برؤيتهم يحترقون وهم احياء . وقد بلغت شروره انه بعد ان فرغ من كل ذلك خاف ان ابناءه من مريمن امرأته الاولى ينقلبون عليه فيما بعد فيثأرون منه لانه قتل امهم فأمر بخنقهم للحال فخُنقوا خنقاً رائعاً . ومن غرائب بربريته انه وهو على فراش الموت أمر بقتل ابنه الثالث ارخلاوس .

ولما كان غدارا ، ظنانا ، مرتابا بكل انسان ، فاسقا ، طماعا ، عابدا للفضة ، متمسكا باذيال الشهرة الباطلة ، لذلك لم تذق روحه طعم الراحة والسلام لا في قلبه ولا في مملكته . وقد قدم للشعب الروماني هدية مالية ، ثلاثمائة وزنة ، لكي ينفقوها في الاعياد واهما بانه يستطيع بذلك أن يخفي آثار شروره ومذابحه التي كم اجرى فيها من الدماء البريئة . وكان يتظاهر بالذلة والخضوع امام اوغسطوس لكي

يجعله صديقاً له وشريكا في فجوره ، وعندما توفي ترك له عشرة الاف درهم ومركبة من الذهب ومركبة من الفضة .

وقد بذل هذا المغتصب جهده لكي يوفق بين اليهود واليونانيين فتوفق مع اليونانيين بان رشا الاردياء المتحدرين من نسل سقراط وجعلهم يقيمون له تمثالا في مدينة اثينا . ولكن اليهود كانوا يبغضونه بغضهم للموت الزوءام ، وظلوا كذلك حتى قصفت المنون عمره . وقد بنى لليهود مدينة السامرة وجدد لهم هيكل أورشليم غير ان ذلك لم يكن الا ليزيدهم بغضا واحتقارا له ، لانهم كانوا ينظرون اليه دائما نظرتهم الى كافر زنديق قد اغتصب مملكتهم وخرق حرمة ديانتهم .

وكان كسائر الاشرار الطاعنين في السن ، والامراء الاوغاد الحاصلين على نعمة حديثة لم يتعودوها لا هم ولا أباؤهم من قبلهم — يرتجف لاقل الحوادث ، ويضطرب كلما مرّ به خيال ، أو تموجت أمامه قصبة — وكالكثيرين من أبناء الشرق المتطيرين بالاوهام والخرافات كان يصدق أقوال العرافين والمشعوذين ويعتمد تدجيلهم في كثير من أعماله ولذلك لم يتردد في تصديق ما رواه له المجوس من انهم رأوا نجماً عظيماً في بلادهم استدلوا منه على ولادة رجل عظيم سيكون ملكاً على البلاد التي اغتصبها ظلماً وعدواناً . سمع هيرودس بذلك فهلع قلبه البربري . وما كان اسرع تصديقه لمثل هذه الاخبار ولا سيما وهو الشديد الخوف على عرشه شأن السارق الذي لا يطمئن

باله الى سرقته البتة . ولكنه عندما رأى أن المجوس المنجمين سخروا به ولم يعودوا ليخبروه عن الموضع الذي ولد فيه الصبي ابن داود امر للحال بقتل كل اطفال بيت لحم من ابن سنتين فما دون .

ان فلافيوس يوسيفوس لا يذكر شيئا عن هذه الفعلة الاخيرة التي اتاها هيرودس . لكن ذلك الذي أمر بقتل أولاده اما كان يستطيع ان يأمر بقتل اولاد الاخرين ؟

الابرياء

لم يعرف أحد بالتدقيق عدد الاطفال الابرياء الذين ذهبوا ضحية مخاوف هيرودس وبربريته . وليست هذه بالمرة الاولى التي ذهب فيها الاطفال والرضعان طعم سيوف الغادرين في بلاد اليهودية . فان هذا الشعب اليهودي قد أراق كثيراً من دماء الابرياء من أعدائه في العهد القديم ، فقد كان يدخل المدن ويذبح الشيوخ والنساء ، والرجال والاطفال على السواء ولم يكن يستبقي سوى العذارى ليستعبدهن ويتخذ منهن محظيات له . فلا عجب والحالة هذه إذا رأينا هذا الادومي ينفذ في ذلك الشعب نفسه الذي قبل به ملكاً عليه الشريعة اليهودية القائلة « عين بعين . وسنّ بسن » .

اننا لا نعرف حقيقة عدد أولئك الاطفال الابرياء ولكن إذا

جاز لنا أن نصدق رواية مكروبيوس (١) فاننا نعرف انه كان بين اولئك الاطفال طفل صغير لهيرودس الملك كان رضيعاً في بيت لحم . ولكن من يعلم اذا كان هذا الملك الشيخ الذي قتل امرأته ، وقتل اولاده انما فعل ذلك من قبيل المكافأة ، بل من يعلم اذا كان قد تألم لدى سماعه انباء ضلاله وشروره ؟ لانه هو نفسه كان مزمعاً ان يموت متألماً بعد وقت قصير من مرض خبيث افقده راحته وسعادته . فقد تعفَّن جسمه وانتن وهو بعد في قيد الحياة واكلت الدود اعضاء جسده . وكانت الحمى تشوي احشاءه ورئتيه شيئاً . ولذلك لم يكن له من القوة ما يخرج به انفاسه الاخيرة المتقطعة . وعندما يئس من النجاة عمد الى الانتحار فطعن نفسه وهو جالس الى المائدة بسكين جارح ، وهكذا قضى نحبه . بيد انه لم يشأ ان يفارق الحياة بسلام بل أمر سالومه في الدقائق الاخيرة من حياته ان تقتل كثيرين من الشبان السجناء .

ان مذابح الاطفال الابرياء كانت آخر فظائع هذا الشيخ الطاغية الفظيع . غير ان هنالك قصداً نبوياً من تضحية اولئك الاطفال الابرياء حول مهد البريء . فان تلك الذبيحة انما اهرقت دماؤها من

(١) هو امبروسيوس اورليوس ثيودوسيوس مكرويوس ، مؤلف لاتيني عاش في ايام الامبراطورين اونوريوس وثيودوس في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس • واشهر كتبه كتاب اسمه ساتور ناليا يصف عادات العالم القديم وتقاليده .

اجل طفل عظيم ولد حديثاً للعالم ، الطفل الذي قدّر له ان يسفك دمه من اجل الاشرار وحلهم من خطاياهم وقد قربت تلك التضحية البشرية لاجل طفل الهي جاء بطوعه واختياره لكي يكون ضحية في حينه . وهو الطفل الذي قدر الالوف الالوف من الناس ان يموتوا بعد موته في سبيل الايمان بقيامته من بين الاموات . فهو انما ولد لكي يموت لاجل غيره ، وهوذا نشاهد امام عيوننا الالوف من الاطفال يموتون كأنهم يكفّرون عن ميلاده .

اجل ، ان في ذبيحة الدم هذا لسراً عجيباً غريباً ، هو تضحية الوف الابرياء ، من معاصريه الاطفال . وقد كان اولئك الاطفال من الجيل الذي غدر بعدئذ بيسوع وصلبه . ولكن الابرياء الصغار الذين ذهبوا طعماً لسيوف جنود هيرودس في ذلك اليوم لم ينظروا يسوع في تلك الحالة ، لان الحياة لم تفسح لهم ان يكبروا لكي يشاهدوا مقتل ربهم والههم . فقد خلصوه بموتهم من الموت ، فخلصهم الموت الى الابد . كانوا ابرياء طاهرين في حياتهم فظلوا ابرياء طاهرين الى ابد الابدين .

واما اباؤهم واخوتهم بعدهم فسينتقمون لهم يوماً غير انهم يُسامحون « لانهم لا يعلمون ما يعملون . »

الهرب الى مصر

كان احد الشعراء المسيحيين ، وهو ايطالي ، يترنم بهذه الاغنية ليسوع الطفل الصغير قائلا :

« نم ايها الطفل ولا تبك »

« نم ايها الطفل السماوي »

« نم فان العاصفة لن تجرؤ ان تتعالى فوق رأسك ! »

ولكن ابن الله لم يتجسد على الارض متخذاً صورة الانسان لكي ينام ، فقد ثارت عليه العاصفة بيد انها ارتدّت عنه صاغرة ولم ترعبه ثورتها .

اجل ان يسوع احق باسم الرجل اليَقِظ الذي لا ينام من « سيدهارتا »[١] و كيف يستطيع ان ينام في المغارة الباردة حينما كان الحمار ينهق متقدماً سائر الحمير الذين كانوا مزمعين ان ينهقوا عليه . والثور يخور منتظراً رفقاءه الثيران التي كانت مزمعة ان تتكلم في حضرته . والرعاة يسألونه ، والمجوس يقدمون له هداياهم ؟ كيف كان يقدر أن ينام واقدام مذابح هيرودوس المراوغ كانت تتقدم مقتربة منه ؟ انه لن ينام ابداً حتى الليلة الاخيرة ، حتى ليل الالم والوحشة في بستان الزيتون !

(١) سيدهارانا : او سيدهاتا : احد اسماء بوذا احكم حكماء الشرق الاقصى وستأتي سيرته .

وقد كانت مريم امه ساهرة مثله لا تجد الى النوم سبيلاً . فقد اغتنمت تلك الأم التاعسة فرصة الليل ، وما أرخى الظلام سدوله على منازل بيت لحم وحجبها عن الابصار حتى خرجت من القرية خلسة خروج الهارب الشريد والسارق الطريد ، لتسترق من يد الملك حياةً وتُبقي للشعب أملاً ، خرجت وهي تضم الى صدرها وحيدها — ملك الانسانية ومخلصها .

تركت بيت لحم وولت وجهها شطر المغرب مجتازة أرض كنعان القديمة وهي تقطع الطريق مرحلة بعد مرحلة ، والايام قصيرة ، حتى وصلت الى ضفاف النيل ، الى بلاد مصرائيم التي طالما سقتها دموع أجدادها قبل ذلك الحين بالف وار بعمائة سنة .

وهكذا فان يسوع ، الذي جاء ليكمل شريعة موسى وينقض ما اعوجَّ منها ، رجع على الطريق عينها التي اتخذها المخلّص الاول لشعبه عندما هربوا من عبودية المصريين . فان راعي مديان عندما رأى اليهود يئنّون تحت سياط المصريين ، مضطهَدين ، محتَقَرين ، ممتَهنين ، أشفق عليهم وجعل نفسه راعياً لاسرائيل ، وقاد شعبه المتمرد القاسي الرقاب في عرض الصحراء حتى أشرفوا على نهر الاردن حيث الدوالي العجيبة : وقد ترك شعبُ يسوع أرضَ الكلدانيين مع ابراهيم وجاءوا مع يوسف الى مصر . أما موسى فقد قادهم من مصر الى أرض كنعان ولكن جاءهم في ذلك العصر أعظمُ مَن قام فيهم

من الانبياء والمُحـرَّرين والخطر محيق به ، جاء راجعاً الى شواطئ النيل حيثما أنقذ المخلصُ الاول موسى ثم عاد فخلص شعبه .

ان مصر ، مهد الحضارة و بؤرة القذارة القديمتين ، تلك الهند الافريقية التي تلاشت فيها أمواج التاريخ على شاطئ بحر الموت — التي فيها أنهي پومباي وانطونيوس حلمها الامبراطوري ، أرض الغرائب ، وليدة الماء وقد حرقتها الشمس ، وغطتها دماء الشعوب، — البلاد التي قطنتها البهائم المتباينة الاشكال، البلادالغريبة السماوية — مصر — بمتناقضاتها — كانت معدة لتكون ملجأ الهارب .

كانت ثروة مصر ولا تزال متوقفة على الطين ، الطين الغني بافاعيه وسمومه ، الطين والاوحال التي يقذف بها النيل في كل عام فتغمر وجه الصحراء . وقد كان الموت الد عدو من اعداء مصر الذين كانت تحاربهم ويحاربونها . ولذلك كان المصريون القدماء ، العريقون في الثروة والتنعم والرخاء ، يعتقدون بان في وسعهم التسلط على الموت واستعباده بما كانوا يقيمونه في قبورهم من التماثيل ، والصور المتنوعة ، وتحنيط الاجساد بطريقة تحفظ منظرها الطبيعي فلا يتغير . ومع كل ذلك فان المصري الغني البدين ، ابن التراب والطين ، الساجد للعجل المقدس والاله ذي الرأس الكلبي ما كان يريد ان يموت . ولذلك أقام لحياته الثانية قبوراً رحبة ممتلئة من المياه المعطّرة بالطيوب والمكفّنة بالكتان الثمين ، والربط المتينة ، والصور والتماثيل

المصنوعة من الاخشاب والرخام وبنى على بقاياه الفانية اهراماً ضخمة واهماً بان الحجارة والطين تدرأ عنها التلف والفناء .

وعندما يبدأ يسوع بشارته يبدأ حكمه المبرم بالقضاء على مصر — القضاء الذي لم يتناول مصر القائمة على حافتي النيل فقط ، بل تعدى الى مصر التي كانت تتحرك على وجه الارض ، مع ملوكها و بُزاتها ، زرازيرها وأفاعيها — أجل ، ان القضاء الاخير على شرور المصريين ومآثمهم كان بين شفتي يسوع لانه جاء الى الارض لكي ينقض هيا كل الثروة التي من التراب تأتي والى التراب تعود ، ويدين جميع أبناء النيل المستعبَدِين للمادة ، ويحطم اقتدار المنون عن غير طريق القبور المنقوشة ، وممالك الموت ، والتماثيل المزخرفة المصنوعة من المرمر والرخام الاسود البديع . فان انتصاره على الموت انما كان ثمرة تعليمه بان الخطيئة أشد شراهة من الحيتان والديدان ، وان طهارة الروح هي العطر الوحيد الذي يحفظ من الفساد ويقي من الفناء .

ان عبّاد الطين والحيوان وعبيد الثروة والبهيميَّة لم يستطيعوا أن يقيموا لانفسهم خلاصاً . ومع ان قبورهم كانت تناطح السحاب بعلوها الشاهق وتفوق بزينتها قصور الملوك وهي تبدو من خارجها جميلة بيضاء للنظر مثل قبور الفريسيين فانها لم تحتو في داخلها إلا على رماد حقير ، تراب قد عاد الى تراب ، وليس له أقل ميزة عن رماد أجسام الحيوانات .

أجل . ان الموت لا يمكن أن يُقهَر و يُخزَى بتصوير الحياة على الحجارة والخشب . لان الحجارة تتفتت وتعود الى التراب الذي تألفت منه ، وكذلك الخشب ينخره السوس ويرجع الى أصله التراب ، وكلاهما تراب في تراب الى الابد .

الضائع يُوجد

ان الاقامة في منفى مصر لم تطل مدتها . لان يسوع رجع الى الناصرة محمولاً على ذراعي أمه المترجرجتين طيلة الطريق . على ظهر الحمار الصبور رجع الى بيت أبيه الحقير ودكانه حيثما كانت المطرقة تدق والمبرد يبرد سحابة النهار .

ليس في الاناجيل القانونية كلمة عن هذه السنوات الاولى من حياة يسوع . وأما الكتب غير القانونية ففيها تفاصيل كثيرة في هذا الموضوع . ولكنها غير جديرة بالتصديق . أما لوقا الطبيب الحكيم فقد اكتفى بان قال ان الصبي كان ينمو ويتقوى بالروح ، وانما عنى بذلك انه لم يكن ضعيفاً سقيم الجسم ، فقد كان ولداً قوياً نشأ كما هو لائق به ، صحيح الجسم يحمل النشاط والصحة كمن هو جدير بان يمنح الصحة لذوي الاسقام والمرضى بمجرد وضع يده عليهم .

وكان أبواه ، كما أورد لوقا ، يذهبان الى أورشليم في كل عام

لاجل الاحتفال بعيد الفصح تذكاراً للخروج من مصر . وحدث انهما ذهبا مرة على جاري عادتهما مع كثيرين من الجيران والاصحاب والمعارف لاجل التسلية على الطريق . وكانوا سائرين في طريقهم وهم على أتم ما يرام من السرور شأن الذاهبين الى وليمة عظيمة ، وليس الى خدمة صلاة تذكاراً لحادث جلل لان عيد الفصح كان في تلك الايام أعظم الاعياد في أورشليم ، فكان يجتمع فيه سائر اليهود المتفرقين في انحاء المعمور .

وعندما كانت القوافل راجعة من أورشليم الى الناصرة في الاحتفال الحادي عشر لعيد الفصح بعد ولادة المسيح فتشت مريم عن ابنها بين الرفاق والاصحاب فلم تجده فقضت النهار بطوله تفتش وتسأل من غير جدوى . وفي الصباح التالي رجعت الأم المسكينة الى أورشليم وكانت تمشي على الطريق التي جاؤوا عليها تفتش يمنة ويسرة في كل شارع أو زقاق في أورشليم محلقة بعينيها السوداوين في كل ولد لعله ابنها وسائلة الامهات الواقفات أمام أبواب بيوتهن . متضرعة الى مواطنيها الذين كانوا لايزالون في أورشليم أن يساعدوها في التفتيش عن ابنها الضائع . ولا يخفى ان الأم التي يضيع ابنها من بين يديها لا تطمئن روحها حتى تجده ، فلا تفتكر في نفسها ولا تعبأ لحاجاتها الضرورية من مأكل أو مشرب ، محتقرة التعب والجوع والعناء ، ولا يهمها أن تنزع الغبار عن ثيابها ، أو أن تسرّح شعرها

المتبعثر من الرياح في الطريق . وقلما تؤثر فيها نظرات العابرين بها من الطفيليين والمتطفلين غير ان عينيها المضطربتين لا تستطيعان في تلك الساعة أن تنظرا سوى خيال ابنها الحبيب الذي لم يعد قريباً منها .

وأخيراً جاءت في اليوم الثالث الى الهيكل ففتشت في ساحاته ودواوينه ، وبعد ان طافت بها كلها رأت في احدى الاروقة جماعة من المشايخ يتباحثون ويتناقشون . فدنت منهم وَجِلةً لأن ملابسهم العريضة ، وجببهم الطويلة ولحاهم المسترسلة على صدورهم — كل ذلك كان يدل على انهم من ذوى الاعتبار الذين لا يتنازلون الى مخاطبة امرأة بسيطة زريّة من الجليل . ولكنها رأت فجأة في وسط الدائرة التي يؤلفونها بجلوسهم شعر يسوعها المتموج ، وعينيه المشرقتين، ووجهه الذي لفحته الشمس فزادته حلاوة ، وشفتيه الحمراوين . فكانوا يسألونه أسئلة متعددة وهو يجاوب على كل سؤال منها بطلاقة ومعرفة . ثم كان يسألهم في دوره فتأخذهم الحيرة ، ويعتريهم الدهش من ان ولداً صغير السن مثله يستطيع أن يعرف كلام الله بهذا الاتقان. لأن يسوع كان يحفظ في ذاكرته العجيبة كل الكتب التي كان يسمع قراءتها في مجامع الناصرة الحقيرة ويعيدها حرفاً حرفاً .

أما مريم فوقفت هنالك هنيهة تنظر اليه ، وهي تكاد لاتصدق عينيها وقد تغيرت نبضات قلبها في لحظة واحدة ، من نبضات الحزن والخوف الى نبضات الفرح والذهول . ولكنها لم تقدر على ضبط

نفسها طويلاً فنادت يسوع باسمه وباعلى صوتها . وعندما سمع الشيوخ صوتها انصرفوا في سبيلهم وتقدمت هي في الحال فاختطفت ابنها وضمته الى صدرها محتضنة إياه وناظرة اليه بلهفة وحنان والدموع تتساقط من مقلتيها على خديها وخدي ابنها الحلو .

ثم قادته بيده الى خارج الهيكل ومضت به في سبيلها . و بعد ان هدأ قلقها وتحققت ان يسوع معها وانها لم تخسره تذكرت سعادتها بوجوده وتَعْسها بفقده ، فسألته قائلة : « يا ابني ، لماذا صنعت بنا هكذا ؟ فها ان أباك وانا كنا نطلبك متوجعَين »

فقال لهما يسوع « لماذا كنتما تطلبانني ؟ ألم تعلما انه ينبغي لي أن اكون في ما هو لأبي ؟ » .

بالحقيقة ما أرصن هذه الكلمات وما أحكمها ، وخصوصاً وهي تصدر من ابن اثنتي عشرة سنة لأمه بعد ان قضت في التفتيش عنه ثلاثة أيام طويلة . ثم يزيد الانجيلي قائلاً « أما هما فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما » غير اننا اليوم بعد مرور عشرين قرناً من قرون الاختبارات المسيحية قد صرنا نفهم هذه الكلمات التي كانت تظهر أولاً جافة تدل على الاعجاب والفخر .

لماذا كنت تطلبينني يا أماه ؟ الا تعلمين انني لا اضيع البتة ، وانه لا يستطيع أمرؤ أن يضيعني حتى أولئك الذين سيوارونني في الثرى؟ انني حاضر في كل مكان والذين يؤمنون بي يجدونني اينما كانوا وان

لم ينظروني بعيونهم لان الانسان الذي يقيم لي بيتا في قلبه لا يقدر ان يضيع عني أو ان يجعلني اضيع عنه الى الابد . أنني لن أضيع وان كنت سأبقى وحيداً في الصحراء ، وحيداً على وجه الماء ، وحيداً في بستان الزيتون وحيداً في ظلمة القبر .

« ومن هو هذا الاب الذي تتكلمين عنه ؟ فانه الاب الشرعي الاب البشري الارضي ، ولكن أبي الحق هو في السماء . وهو الاب الذي خاطب البطاركة الاباء وجهاً لوجه ، ووضع في افواه الانبياء ما علّموا ونطقوا به فينبغي لي ان اعرف ما قال لهم عني . واعرف رغائبه الابدية ، والشرائع التي سنها لشعبه ، والعهد الذي قطعه مع سائر ابناء الانسان. وانا اصنع ما امرني به . يجب ان اعمل دائماً ماينطبق على ارادته الالهية. واي شيء هي صلة القرابة الشرعية الوقتية اذا قيست بالرباط السري الروحاني الخالد ؟ »

النجار

ان الساعة التي يترك فيها يسوع بيته ولا يرجع اليه لم تُحِنْ بعد. فان صوت يوحنا لم يكن قد ظهر الى ذلك الحين . ولذلك رجع يسوع مع أمه وابيه في طريقهما الى الناصرة الى دكان يوسف لكي يساعده في حرفته .

لم يدخل يسوع مدارس الكتبة واليونانيين لانه لم يكن في حاجة الى معلمين . فقد كان عنده ثلاثة معلمين اعظم من جميع علماء الارض — العمل ، والطبيعة ، والكتاب .

فانه غير خاف ان يسوع كان عاملاً بسيطاً وابناً شرعياً لرجل عامل حقير . فقد ولد فقيراً في محيط كان أبناؤه يشتغلون بايديهم لكي يعيشوا ، وقبل ان شرع في بشارته كان يحصل على خبزه اليومي بشغل يديه وعرق جبينه . وان اليدين اللتين باركتا المساكين بالروح والودعاء وشفتا البرص ، ووهبتا النور للعميان ، وشددتا المخلّعين ، واقامتا الاموات من القبور ، اليدين اللتين سمرتا على الصليب هما هما اليدان اللتان طالما اغتسلتا بعرق الكدّ والنصب وخبرتا لذة الشغل والتعب في العمل ، وادمنتا على العمل حتى تصلبتا — اليدان اللتان تمرنتا على استعمال الات الصناعة وكم ازلتا من المسامير في الاخشاب وهما بالحقيقة يدا عامل نشيط .

قد اراد يسوع ان يكون نجارا ماديا قبل ان يصير نجارا روحيا وكان فقيرا معوذا قبل ان دعا الفقراء والمساكين الى مائدته في وليمة الملكوت . انه لم يولد في عيلة غنية لبيت تحف به الثروة ويسود فيه الجلال على سرير موشى بالحرير والارجوان والبرفير والكتان . بل عاش في دكان نجار مسكين وهو ابن الملوك ، وولد في مغارة البهائم وهو ابن الله الازلي . لم يكن من طبقة العظماء ، ولا من فرق المحاربين

المستبدين ، ولم تكن له علاقة مع دوائر الاغنياء ولا مع مجالس الكهان والفريسيين . ولكنه ولد في احقر طبقة من طبقات الشعب ، وهي الطبقة التي كان منها المتشردون والمتسولون والغرباء ، والارقاء والمجرمون ، والزواني ، والفجار ، وعندما انتهت مهمته كعامل يومي ترك دكان يوسف ومضى الى احقر طبقات الشعب التي يحتقرها الجميع لقذارتها وشرورها . وهنالك كان ينشد اصدقاءه في ذلك الوسط القذر . ولكن الى ذلك اليوم الذي هبط فيه يسوع الى جحيم الاحياء ، قبل ان هبط الى جحيم الاموات ، كان مركزه مركز عامل حقير في المجتمع الانساني وكان ابناء الشرف الموروث الذي يفصل أجزاء البشرية بعضها عن بعض منذ الازل ينظرون اليه نظرة احتقار.

اما الصناعة التي مارسها يسوع فهي واحدة من الصنائع الاربع القديمة المقدسة في صنائع الانسان . وهذه المهن الاربع هي مهنة الفلاح ومهنة البنّاء ومهنة الحدّاد ، ومهنة النجّار ، وهي من اجل واطهر الحرف التي لازمت حياة الانسان على الارض ، فاستخدمها لراحته وسعادته. فالجندي المحارب قد ينقلب الى لصّ قاطع طريق ، والبحري قد يتسفل فينخرط في مصفّ قرصان البحر المنافقين ، والتاجر قد يتحول الى مغامر افاك ، ولكن الفلاح والبناء والحداد والنجار لا يغشون ولا يغدرون بل انهم لايستطيعون ذلك بطبيعة مهنتهم . وتنحصر اعمالهم في المواد الطبيعية الضرورية للانسان وعليهم ان يحولوا هذه المواد

بطريقة محسوسة الى الات نافعة صالحة لخدمة الانسان فالفلاح مثلاً ينقب الارض ويشق صعابها لكي يستخرج منها الخبز الذي يتناوله القديس في صومعته كما يأكله القاتل في سجنه . والبنّاء يربع الحجارة و يتقن نحتها لكي يبني منها بيتاً للرجل الفقير كما يبني منها قصراً للملك وهيكلاً للرب . والحداد يحمي الحديد ويطرقه لكي يصنع منه سيفاً للجندي ، وسكة للفلاح ، ومطرقة للنجار ، والنجار ينشر الاخشاب و ينقبها بالمسامير ليعمل منها أبواباً للبيوت تحفظها من اللصوص ، ومن هذا الخشب عينه يصنع الاسرّة التي يموت عليها المجرمون السفاحون كما يموت الابرياء الطاهرون .

ان هذه الامور البسيطة ، هذه الحقائق العادية التي يعرفها كل انسان ، والتي تعودت ابصارنا رؤيتها فبتنا ننظر اليها من غير ان نفكر في الحقيقة التي وراءها ، انما هي بالحقيقة على سذاجتها و بساطتها أغرب وأعجب الاكتشافات التي اهتدى اليها الانسان في حياته على الارض .

في وسط هذه الاعمال عاش يسوع النجار في حداثته ، وكان يمارسها بيديه ، وقد استطاع بواسطة عمل يديه فيها أن ينخرط في سلك أعمال الحياة البشرية ويحصل مقابل عمله على نفقاته البيتية في حياته المقدسة . فكان يصنع بيديه المائدة الجميلة التي كانت تستلذ نفسه الجلوس اليها في المساء مع أصدقائه حتى ولو كان بينهم خائن ،

وكان يصنع السرير الذي يلفظ الانسان عليه أنفاسه الاخيرة كما يرسل عليه أنفاسه الاولى ، والصندوق حيثما كانت الزوجة الصالحة تضع ثياب أسرتها الحقيرة ، ومآزرها ومناديلها لايام الاعياد ، وتحفظ القمصان البيضاء المنشّاة للايام العظيمة . وكان يصنع « المعجن » الذي يوضع فيه الدقيق فتخمّره الخميرة ليكون غذاء للانسان ، والكراسي ذوات اليدين حيثما يجلس الشيوخ يصطلون أمام نار الشتاء ويتحدثون متحسرين على شبابهم الزائل ولن يعود .

وكثيرا ما كان يسوع يشتغل في دكان يوسف والنجارة الرقيقة تلتف تحت شفرة فارته ، والنشارة تتطاير من بين اسنان منشاره ، وتتساقط على الارض ، وهو يفكر في مواعيد الآب وفي نبوات العهد القديم ، وفي ما يجب عليه فعله في العالم ، ليس بواسطة الاخشاب والمساطر والالات ، بل بالروح والحق .

وقد تعلّم يسوع من حرفته ان من يودّ ان يعيش فى هذا العالم يجب ان يحوّل المواد المائية فيه والتي لا نفع من ورائها الى الات حية صالحة لخدمة الانسان . وان احقر الاخشاب المطروحة على وجه الارض اذا عُنِي بنشرها ونجارتها تصبح جميلة ثمينة صالحة للنفع العام . تعلّم ان السبيل الواحد المؤدي الى الخلاص انما هو في التجدّد والتحول ، ورأى انه كما أن ارجوحة الطفل الجميلة ، وسرير الزوجة الثمين يصنعان من قرمة واحدة كثيرة العُجَر والبُجَر مأخوذة من الارض الفانية

هكذا يمكن أن يتحول العشّار الطمّاع والزانية الفاجرة الى ابناء صالحين في ملكوت السماوات .

الابوة

هنالك في الطبيعة حيثما تشرق الشمس على الاشرار والصالحين ويُسبل القمح لكي يعطي غذاء لليهود والكافرين ، وتنير النجوم اكواخ الرعاة كما تنير سجون المجرمين ، هنالك حيثما تحمل الدوالي عناقيدها الجميلة فتصنع من عصيرها خمراً يشربها الامراء في اعراسهم وولائمهم والسفاحون في تهتكهم ودعارتهم ، وطيور السماء المترنمة بجمال الطبيعة تجد غذائها من غير تعب أو نصب ، والثعالب الخبيثة الغدارة تجد لها اوجرة وملاجيء تقيها الاخطار والاضرار ، وزنابق الحقل ترتدي الملابس الفاخرة التي لا يحلم بها الملوك في جلالهم ومجدهم ، — هنالك رأى يسوع برهاناً محسوساً واثباتاً راهناً للحقيقة الازلية الراسخة في أعماق قلبه ، أن الله ليس بالسيد الذي يعاقب بألف سنة تعيير وانتقام عن يوم واحد من المسرة والحبور — كلا ولا يهوه الغضوب ، الراعب ، المحب للحرب ، الذي يأمر بقتل الاعداء على بكرة ابيهم : رأى ان الله ليس بالسلطان العظيم الذي يتلذذ بأن يخدمه الحكام المستبدون المُتحدّرون من العائلات القديمة ، ويشدد

النكير على خدامه في أن يحافظوا بكل دقة وضبط على العادات والتقاليد الرثة البالية التي تمثل الهيكل .

أجل ، ان يسوع وهو الابن الحبيب للاب قد أدرك ان الله هو أب ليس لنسل ابراهيم فقط بل لجميع الامم والشعوب أيضاً . ان محبة الزوج قوية بيد أنها جسمانية ممتلئة غيرة وشهوة ، ومحبة الشقيق والأخ كثيراً ما تكون متسممة بروح الحسد ، ومحبة الابن ملطخة أبداً باقذار التمرد والعصيان . ومحبة الصديق كثيراً ما تتدنى الى المكر والخداع ، ومحبة السيد فخورة منتفخة بروح العجرفة والكبرياء ، أما محبة الاب لابنه فهي المحبة الواحدة ، الكاملة ، البريئة من كل عيب ، المجردة من كل غاية أو مصلحة . فان الاب يعمل لابنه مالا يعمله لاحد سواه . لان ابنه هو خليقته لحم من لحمه وعظم من عظامه، ينمو الى جانبه يوماً فيوماً فيتعزى به ويتم كيانه بوجوده بل ان الاب الكبير يعيش خالداً بالابن الصغير . والماضي يرى ذاته متجسداً في المستقبل . فالذي عاش انما ضحى بحياته من أجل الذي جاء الى الحياة لكي يعيش . والاب يحيا بابنه ويشعر ويفاخر ويباهي بوجوده . لان هذا الولد انما هو ثمرة العاطفة الطبيعية التي ربطت قلبه بقلب المرأة الصالحة التي اختارها من بين كل نساء الارض لتكون رفيقة حياته ، هو فلذة كبده ، وحبة قلبه النابتة من احشاء امرأته بالآلام المقدسة ، والنامية بحرارة محبته ، وغزارة دموعه ، ووفرة أتعابه هو جزءه الصغير

وطالما رآه يلعب بين قدميه وهو ينمو ويكبر يوماً فيوماً ، وما أحلى تلك الساعات التي كان يضم بها يديه الصغيرتين لكي يدفئهما بحرارة محبته الوالدية الطاهرة — بل من يستطيع أن يصف عواطفه عندما سمع طفله الصغير يتلفظ لاول مرة بكلماته الاولى — وهي الاعجوبة الخالدة المتجددة في كل يوم ! هو الاب الذي رأى رجليه المرتجفتين على الارض وهما تحاولان المشي لاول مرة وهكذا فان هذا الاب يرى روحاً طاهرة تختلج في داخل ذلك المخلوق الصغير النامي بالمحبة عاماً فعاماً — يرى أمامه نفساً بشرية لا تُقاس قيمتها بكل جواهر الارض — يرى أمامه في كل يوم صورته متجسدة على ذلك الوجه الصغير اللطيف — يرى ملامحه وملامح زوجته مرتسمة في صورة ابنهما الذي يحفظ ذكرهما في العالم .

أجل ، ان الوحدة الروحية التي يتوق اليها الرجل والمرأة عن طريق المحبة لكي يصيرا جسداً واحداً لا تتم لهما إلا في الاولاد . لان الانسان يشعر لدى رؤيته ابنه المخلوق على صورته انه خالق جوّاد وقدير سعيد . ولما كان الابن يرجع إلى أبيه في كل أمر ، ويطلب منه كل شيء ، ولا رجاء له في حداثته بغير أبيه ، ولا يشعر بأمن أو راحة إلا وهو الى جانبه ، لذلك يرى الاب ذاته مضطراً بقوة غير منظورة أن يقف حياته لابنه ، ويحتمل كل ألم أو شقاء في سبيل ابنه ، ويشتغل عمره لاجل ابنه ، بل أن الاب في هذه الحياة هو اله

كبير في عيني ابنه ، كما ان الابن آله صغير في عيني أبيه .

وليس في محبة الاب أثر لعدم الاكتراث في القيام بالواجب الذي نراه في محبة الاخ ، ولا شيء من المنافسة والانانية اللتين نجدهما في محبة الصديق ، ولا تلك العاطفة المغموسة بالشهوة التي في محبة الحبيب ، ولا ذلك الادعاء بالاخلاص والامانة الذي يظهره الخادم للمخدوم . بل ان محبة الاب هي المحبة النقية ، المحبة الطاهرة الوحيدة، بل هي العاطفة الوحيدة التي تستحق أن تسمى محبة . ولما كانت مجردة عن سائر العناصر الغريبة عن طبيعتها فهي بحق السعادة الكاملة القائمة على تضحية الانسان بذاته من أجل سعادة سواه من الناس .

أجل ، ان هذا التعليم بابوّة الله ، الذي هو من أعظم التعاليم الجديدة التي جاءت بها بشارة يسوع ، هذا التعليم المُجدِّد العميق القائل بان الله هو أب لجميعنا يحبنا كما يحب الاب أولاده ، وليس كما يحب الملك عبيده ، أب يمنح الخبز الجوهري لجميع أولاده على السواء ويرحب بحرارة ومحبة حتى بالاشرار والمجرمين منهم متى رجعوا اليه لكي يحنوا رؤوسهم على صدره النقي . ان هذا التعليم الذي أغلق أبواب العهد القديم البالية وفتح أبواباً جديدة لعهد جديد خالد إنما وجده وتعلمه يسوع من الطبيعة الخالدة . وبصفته ابناً لله وواحداً مع الاب ، كان يشعر دائماً بحلاوة هذه الابوّة التي قلّما فطن لها جهابذة الانبياء . غير انه الآن بعد ان شارك البشر في اختبارات

حياتهم رأى انها قد انعكست وتفرقت في سائر انحاء الوجود ، ولذلك عمد إلى الطبيعة الجميلة فاستخرج منها بشارته المفرحة التي كان على أهبة اعلان فصولها للناس .

الحقل

كان يسوع يحب الطبيعة شأن سائر النابغين ذوي النفوس الكبيرة . فان الخاطيء التائب الذي يشعر في اعماق قلبه بحاجته الى التنقية ، والقديس التوّاق الى الصلاة ، والشاعر الشيّق الى اقتبال وحيه ، يعتصمون في الغالب بقنن الجبال لكي يجلسوا على الاظلال الخضراء يناجون الروح الكلي على خرير الماء ، أو في وسط الحقول المُعطَّرة بعبيرها زوايا السماء ، او في منحدرات تلال الصحراء وقد جففتها الحرارة وجملتها الطبيعة . اما اللغة التي كان يسوع يعبّر بها عن افكاره فقد استعارها من الطبيعة وقلماً كان يلجأ الى الكلمات العلمية او النظريات المجرّدة الجافة ، اوالاصطلاحات التي تقادم عليها العهد فرثت وبليت . فقد كانت احاديثه معطرة بعبير الحقول وورود البساتين ، وسذاجة الحيوان الذي كثيراً ما كان يستخدمه في امثاله عبرة للانسان . وكان ينظر في بلاده « الجليل » الى التينة تنمو وتنضج ثمراتها تحت اوراقها الظليلة ، ويتأمل عرانيس الدوالي الجافة

وهي ترتدي ثيابها الخضراء من أوراق الكرمة النضرة ، والعناقيد البيضاء والسوداء تتدلى من كل دالية منتظرة حلول ايام القطاف وما احلاها ، وكان يرى في حبة الخردل التي تكاد لا تراها العيون شجرة كبيرة تتعالى اغصانها البيضاء في أعالي الفضاء ، وتمتد فروعها الى اعماق الارض ، وكان يسمع في سكينة الليل صلصلة القلب المرتجف تحت خطرات الريح على حافات السواقي وينظر الى حبة الحنطة يوارونها في الثرى فلا تلبث ان تفيق من رقادها سنبلة ممتلئة من القوة والحياة ، ويتأمل الزنابق الارجوانية الحمراء والصفراء الجميلة المتعالية بحرارة الهواء بين حقول الحنطة المتموجة الخضراء . ويتفرس في عشب الحقل الذي لا يظهر على وجه الغبراء مخضلاً خصيباً في اليوم حتى تقطعه يد الانسان في الغد جافا وتطرحه في تنور النار رأى الحيوانات الاليفة النافعة كما رأى الحيوانات البرّية المؤذية ، رأى الحمامة رافعة عنقها البرّاق وهي فخور معجبة ، وسمع سجعها المُبشّر بالمحبة من على السطوح ، وشاهد النسر ينقض باسطا جناحيه من اعالي الجو الى الارض على فريسته المرتعشة الواجفة رعباً ، والخطاطيف كالملوك لا تسقط الى الارض الا بارادة الله ، والغربان تنهش اللحم من الجيفة المنتنة بمناقيدها القاسية ، والدجاجة ، الامّ العطوف ، تجمع افراخها تحت جناحيها عندما يظلم الليل وترعد الطبيعة وتبرق ، والثعلب الغدار عائداً الى ظلمة وكره بعد خيانته وشره وغدره ، والكلاب

تروح وتجي، تحت موائد الكبراء تلتمس الفتات الساقط على الارض من فضلات أربابها . رأى الحية مناسبة بين الاعشاب والافعى السوداء متغلغلة بين حجارة القبور المتبعثرة . فقد ولد بين رعاة الاغنام لكي يكون راعياً للخراف الناطقة ولذلك أحب المواشي والقطعان ، رأى النعجة تلتمس حملها الضائع ، واصغى الى ثغاء الحملان وهي تمتص اللبن من أمهاتها مختبئة تحت اجسامها الصوفية الجميلة ، وشاهد القطعان تشويها حرارة الشمس في مراعيها الضيقة على التلال ، وقد احب البدور الصغيرة التي لا تكاد تراها اذا وضعتها على راحة يدك كما احب غيرها على السواء . وأحب أشجار التين القديمة الملقية أظلالها السوداء على بيوت الفقراء والبائسين وطيور السماء التي لا تزرع ولا تحصد ، والاسماك الصغيرة تلمع في الشباك كالفضة النقية يعدها الصيادون غذاء للمؤمنين ، وعندما كان يرفع عينيه وينظر الى السماء في الليالي المظلمة العاصفة كان يرى النور خارجاً من الشرق ومبدداً ظلمة الليل الى أن يبلغ أقاصي المغرب .

غير ان يسوع لم يقتصر في درسه على كتاب الطبيعة المتعدد الالوان فقط ، بل كان يعرف ان الله قد خاطب الناس بواسطة الملائكة ، والاباء والانبياء . وان أقواله وشرائعه وانتصاراته كلها مدونة في الكتاب . وقد كان عارفاً بالاشارات السحرية السوداء التي بواسطتها كان الاموات يلقنون الاحياء الذين لم يكونوا قد

ولدوا بعد أفكار أبناء العهد القديم وتذكارات الاجيال المنصرمة ولم يدرس في حياته كتاباً سوى الكتب التي دونها أجداده في تاريخ شعبه ، وارادة الرب المعلنة في نبوآت الانبياء ولكنه كان يعرف تلك الكتب ويفهم وحيها اكثر من جميع الكتبة والمعلمين ، حتى ليستطيع ان يكون معلماً لا متعلماً .

العهد القديم

كان اليهودي أوفر أهل الارض سعادة كما كان أشدهم تعباً وشقاء . وما تاريخه سوى سرّ غريب بداءته موشّح جنّة عدن القصير ، ونهايته المأساة الخالدة مُثّلت فصولها على تلة الجلجلة . فقد جبلت يدا الله المنيرتان أبويه اللذين أقامهما الرب سيدين مطلقين على الفردوس ، أرض الصيف المثمر الخالد ، القائم في وسط الانهر العذبة النقية ، حيث الأثمار الشرقية الجميلة تتدلى من أغصانها شهية المنظر ، لذيذة الطعم ، تحيط بها الاوراق الغضّة فتزيدها جمالا وتكثر عصيرها ولذتها . في ذلك الفردوس السعيد عاشا الجدّان الأولان ترقبهما عيون النجوم اللامعة في السموات المصنوعة حديثاً في ذلك العهد ، الخالية من أقذار الغيوم ووميض البروق وصفير الرياح ولم يكن لذينك الجدين من عمل يعملانه في عهدهما الاول سوى أن يحبا

الله ويحب أحدهما الآخر . هذا هو العهد الاول الذي قطعه الله معهما. ولذلك عاشا من غير أن يعرفا حزناً أو اضطراباً لأن الحزن والاضطراب لم يكن لهما وجود بعد في العالم . ولم يكن في الطبيعة ما يرعبهما أو يخيفهما . حتى ان الموت مع هوله لم يرعبهما لأنه لم يكن قد وجد بعد. غير ان المخالفة الأولى قد سببت لهما النفي من الفردوس . فحكم على الرجل بان يشتغل ويحصل خبزه بعرق وجهه ، وقضي على المرأة أن تلد أولادها بالاوجاع .

أن العمل متعب شاق بيد انه يأتي بثمرة الحصاد اللذيذة ، والولادة مجبولة بالالام والدموع ولكنها تجلب الاولاد تعزية للرجل والمرأة . غير أن هذه التعزية نفسها والمسرات الناقصة لم يطل عهدها في تاريخ الابوين الاولين فانها زالت وابتلعها الشيطان كما تبتلع الحشرات اعشاب الارض . فقام الاخ لأول مرة وقتل اخاه . فانتن الدم المسفوك ظلماً على الارض وتولدت من بخاره جراثيم الاثم والخطيئة . فاتحدت بنات الناس بالشياطين والابالسة ومنهن كم ولي من الجبابرة والسفاحين الجهنميين الذين حولوا نعيم هذا العالم جحيماً .

اذ ذاك ارسل الله قصاصه الثاني للانسان المارق من شريعته والناكث لعهده فقضى عليه بعمودية الفناء ، وفتح ميازيب السماء على الارض وشرور الساكنين فيها ، فهطلت الامطار ، وجاء الطوفان فأخذ المنافقين وشرورهم ولم يبق سوى رجل واحد كان باراً في عيني

الرب مع اسرته . فقطع الله معه عهداً ثانياً .

وقد كانت ايام نوح فاتحة عهد جديد سعيد في تاريخ الاجيال الخالية ، الا وهو عهد البطاركة الأباء الرعاة الرُحَّل المعمّرين الذين قضوا حياتهم تائهين بين مصر و بلاد الكلدان ينشدون المراعي الخصبة حيث الماء والسلام . فلم تكن لهم بلاد مختصة بهم ولا مدينة ولا بيت قط . فكانوا يسافرون متنقلين من مكان الى مكان بقوافلهم العديدة ومعهم نساؤهم المثمرات بالاولاد ، واولادهم المحبون ، وكنائنهم الوديعات ، وحفدتهم البعيدون والقريبون وما كان أكثرهم ، وخدامهم وخادماتهم الامناء ، وثيرانهم النشيطة وهي تخور في سكون الصحراء ، و بقراتهم الحلوب المزينة بالاجراس ، وعجولهم الصغيرة اللعوبة ، وكباشهم وتيوسهم ذات الرائحة القوية ، وخرافهم المرتدية بالصوف الناصع البياض ، وجمالهم الكبيرة الرقطاء ، وخيولهم المطهمة ، ومعزهم الرافعة رؤوسها والخابطة بارجلها على الارض ضجراً وملالاً . وآنية الذهب والفضة ، والتماثيل المصنوعة من المعادن ، والحجارة الثمينة تملأ اخراجهم وأكياسهم .

وكانوا إذا بلغوا النقطة الاخيرة من رحلتهم ينصبون خيامهم قريبة من صهريج ماء أو عين ، أو بئر ، فكان البطريرك كبير الاسرة يجلس في ظلال الجميز والسنديان يراقب المضارب العظيمة يتصاعد منها دخان النيران ، والضجيج متعال في انحائها من حركة

النساء والرعاة العائدين من أشغالهم . وتعدّد أصوات الحيوانات من خوار الثيران وثغاء الخرفان ، الى نهيق الحمير ومواء السنانير وكان البطريرك يتأمل في ذلك والغبطة آخذة من قلبه كل مأخذ ، وعلائم القناعة والرضى بادية على وجهه المشرق بنور الاخلاص وهو ينظر أمام عينيه نمو بطنه المتكاثر بالمحبة ، ويفرح إذ يرى البركة تكثر أمواله ومواشيه سنة فسنة ، فيسبح بحمد ربه شاكراً .

وفي المساء كان يرفع عينيه ليحيي النجم الاول المشرق في حينه ، اللامع كالنار على قنن التلال ، ولحيته البيضاء المتجعدة تشع نوراً عند إنعكاس اشعة القمر عليها في الليالي المقمرة التي يكون قد تمتع بنورها أكثر من قرن كامل .

وكثيراً ما كان ملاك الرب يهبط من السماء ليزوره ، وقبل أن يقدم رسالته التي حملها اليه كان يجلس الى مائدته ويأكلان معا . بل ان الرب نفسه قد تنازل مرة في حر النهار وأتى بزي مسافر وجلس مع الشيخ البطريرك كبير الرّحل في ظلال الخيمة فحيّا كل منهما الاخر بشوق ومحبة كأنما هما صديقان قديمان اجتمعا بعد فراق طويل ، ثم جلسا وجهاً لوجه يتخاطبان ويتحادثان . وهكذا صار رأس القبيلة وسيد العبيد عبداً وخادماً في دوره لسيده وربه ، مصغياً الى أوامره ، ونصائحه ، ومواعيده ، وانذاراته ونبوآته ، هذا هو العهد الثالث الذي أمضاه الرب مع ابراهيم وهو أشدّ وقاراً واحتراماً

من العهدين الاولين . وبعد ذلك نرى ابن أحد البطاركة الاباء الذي باعه اخوته عبداً — تراه سيداً ومنقذاً في أرض الفراعنة يدعو نسله اليه . وقد كان ذلك مدعاة لفرح اليهود إذ انقذوا من الفاقة والموت ، ووجدوا أنفسهم ثانية في أرض خصيبة ، وبلاد سعيدة ، فتكاثروا وأثروا وبلغوا شأواً رفيعاً من النجاح والفلاح . ولكنهم ما لبثوا أن ذلوا وأغراهم المصريون ، فعبدوا آلهتهم ، فحمي غضب الرب وقضى عليهم بالقصاص الثالث فاستعبدهم المصريون الحاسدون وأذلوهم وسلبوا راحتهم وكنوزهم ، ولكي تطول أيام عبوديتهم قسّى الرب قلب فرعون لكي يزيد في استعبادهم وقهرهم وأخيراً أرسل اليهم المخلص الثاني فازال أوجاعهم ، وأخرجهم من مصر ، وأنقذهم من عبودية طينها وأقذارها .

بيد ان مصائبهم وتجاربهم لم تنته بهم عند ذلك الحد ، فقد تاهوا بعدئذ في البرية أربعين سنة يتقدمهم عمود دخان نهاراً وعمود نار ليلاً . ثم وعدهم الرب بأرض الموعد الخصبة الخضراء التي تدر لبناً وعسلا ، الارض المظللة بأشجار الزيتون والكرمة المثمرة . ولكنهم كانوا يئنون متشوقين الى مصر لانه لم يكن لديهم ماء ليشربوا ولا خبز ليأكلوا ، ولذلك كانوا يتذمرون متوجعين فأنبع لهم الرب الماء من الصخرة وأنزل عليهم من السماء المن والسلوى . بيد أن أولئك اليهود ، وقد كلّوا وسئمت نفوسهم السفر ، عادوا فأغضبوا

الهوم ، وصنعوا لهم عجلاً من النحاس وقاموا يعبدونه . فعاد موسى حزيناً كسائر الانبياء، مُهملاً كسائر المُخلِّصين ، يلحق به شعبه مُرغماً كجميع القواد والمكتشفين ، وترك ذلك الشعب الكنود المتمرّد وسأل الله أن ينقله الى دار الراحة الابدية . ولكن يهوه الرب القدير كان يريد كيفما قضت الظروف أن يقطع العهد الرابع مع شعبه فأطال أجل موسى حتى هبط من الجبل الملتحف بالدخان والضباب والبرق والرعد وهو يحمل اللوحين الحجريين اللذين كتب عليهما الله الوصايا العشر المقدسة .

أما موسى فلم يكن له أن ينظر أرض الموعد عن كثب ، وهي الفردوس الجديد الذي كان الانسان على أهبة احتلاله بعد ان خسر فردوسه الضائع ، ولكن وعد الله لم يتغير مع شعبه : فقد قطع يشوع والابطال الذين كانوا معه نهر الاردن ، ودخلوا أرض كنعان، واخضعوا لهم الشعوب التي كانت ساكنة في تلك النواحي وكانت المدن تسقط تحت أقدامهم لدى سماع أصوات أبواقهم والنبية دبورة تنشد أناشيد الغلبة والانتصار ، وكان الشعب يحملون معهم رب الجنود ، مختبئاً وراء الخيام ، على عجلة تجرها الثيران ، أما أعداؤهم فكانوا كثيرين جداً ولم تكن لهم رغبة في أن يخلوا لهم الارض لكي يسكنوها . غير أن اليهود ، واكثرهم رعاة ولصوص في ذلك العهد ، كانوا ينتصرون عليهم تارة وينكسرون طوراً — ينتصرون عندما

كانوا يحافظون على الشريعة وينكسرون عندما كانوا يهملونها .

و بعد ذلك نرى بينهم ذلك الجبار النذير الذي لم يعل موسى على رأسه ، نراه يقتل وحده الوفا من العمالقة والفلسطينيين ولكنه ما لبث ان أغوته أمرأة ، ففقأ الاعداء عينيه وجعله يدير حجر الرحا بيديه . ولكن الجبابرة والابطال لا يكفون وحدهم لتأسيس الممالك التي يحتاج عمرانها ، الى الملوك والرؤساء . ولذلك نرى شاباً من نسل بنيامين بينما كان ماشياً في البرية يفتش عن حمير أبيه الشاردة ، يلاقيه نبيّ ، ويمسحه بالزيت المقدس ، ويقيمه ملكاً على جميع الشعب الاسرائيلي . وهكذا صار شاول ملكاً ، وكان مُدرباً على الحرب ذا قوة شديدة ، فبطش بالعمونيين والعمالقة ، وأسس مملكة عسكرية ذاعت شهرتها بين سائر القبائل المجاورة فوقع رعبها في القلوب ولكن النبي عينه الذي اقامه ملكا نقم عليه وأقام له مناظراً يعكّر صفو راحته. ثم نرى داود الراعي الصغير يقتل عدو الملك الجبّار ، ويخفف من غضب الملك بانغامه الشجية ، وربابه الفتّان ، فيقع حبه في قلب ابن الملك الاكبر ويتزوج من ابنة الملك ويصبح في مقدمة المقرّبين منه ، والمتنفذين لديه . ولكن شاول المترجرج المتقلقل الافكار أراد أن يقتله حسداً منه وخوفاً . ففرّ داود ولجأ الى الجبال مختبئاً في كهوفها ومغاورها وصار رئيساً للصوص غير انه ما لبث ان ترك الجبال ونزل الى خيام الفلسطينيين متطوعاً في خدمتهم . وعندما

كسر الفلسطينيون شاول وقتلوه صار داود ملكاً في موضعه على اسرائيل . فاقام ذلك الراعي الجسور والشجاع ، العظيم كملك وشاعر، والشهواني القاسي مملكة في أورشليم وتمكن بمساعدة رجال حاميته من قهر سائر الممالك المجاورة والتسلط عليها . وكان ذلك أول مرة في التاريخ نرى اليهودي فيها مرهوباً مهيباً يخشى الناس بأسه . بيد انه ظل أجيالاً طوالاً بعد ذلك وهو راسف في اغلال العبودية يحن إلى تجديد مملكة داود ، ويتوقع مجيء رجل من نسل داود لكي يخلصه من عبوديته الغريبة المرة .

كان داود ملك السيف والغناء ، أما سليمان فكان ملك الذهب والحكمة لأن الذهب كان يقدم اليه ضريبة : فزين به الهيكل الفخم الاول للاله يهوه ، وكان يرسل المراكب إلى البلاد البعيدة في طلب الذهب ، وقد جاءت ملكة سبا من بلاد المشرق وطرحت تحت قدميه اكياس الذهب علامة خضوعها ، ولكن وفرة الذهب والفضة ، وغزارة الحكمة والمعرفة لم تقدر على حفظ ذلك الملك من الطيش والدعارة ، وصيانة مملكته من الخراب والدمار . فانه تزوج نساء غريبات . وعبد الهة غريبة . ولكن الرب صفح عن شيخوخته اكراماً لشبابه — غير ان المملكة تقسمت بعد موته وهكذا بدأت أجيال العار والشنار فقامت المكايد في القصر ، وتكاثر اغتيال الملوك، وتمرد القواد والمتنفذون وثاروا على رؤسائهم ، وشبت نيران الحروب

الاهلية في البلاد وكثرت عبادة الاصنام ، وازداد عدد المقبلين عليها حتى عمَّت البلبلة سائر انحاء المملكة ، وساد الانتقام بين الجميع . فقام الانبياء ينذرون ويوبخون ولكن الملوك كانوا يديرون لهم آذاناً صماء ، أو يضطهدونهم أو يطردونهم . فقويت شوكة أعداء اسرائيل وازدادت سطوتهم . فغزت الممالك الغريبة مملكة اسرائيل بعد ان تضعضعت قواها — فجاء الفينيقيون ، والمصريون ، والاشوريون والبابليون ، وغزوا البلاد بعضهم وراء بعض ، وارهقوا كاهلها بالضرائب . وقبل ميلاد يسوع بستمائة سنة جاء البابليون وضربوا أورشليم ، وهدموا هيكل رب الجنود ، وقادوا اليهود أسرى الى شواطىء أنهار بابل . في ذلك الحين طفح كيل شرور اليهود والحادهم فثار عليهم غضب الرب الذي انقذهم من عبودية المصريين فعاد وأسلمهم عبيداً للبابليين . هذا هو القصاص الرابع الذي قاصَّ به الله اليهود . وهو أشد قصاص نزل بهم لانه كان بلا نهاية . ومن ذلك الحين قضي على اليهود ان يتفرقوا بين أمم غريبة عنهم ، وان يحكمهم الغرباء والاجانب عن بلادهم . غير ان بعضاً منهم عادوا إلى أورشليم بعد ذلك لكي يجددوا بناء الهيكل فلم ينجحوا لان البلاد كانت ترتجف تحت أقدام الاسكيثيين الذين غزوها ، وتدفع الجزية للفرس . وفي الوقت ذاته كان يحكمها اليونانيون . ولذلك كانت حروب المكابيين اخر عهد اليهود في السعي وراء استرجاع مملكتهم التي

قضى عليها أخيراً أن تدفع إلى أيدي سلالة من برابرة العرب الخاضعين للرومان .

ان هذا الشعب الذي عاش في الغبطة والهناء عديد السنين حراً طليقاً في عرض الصحراء ، وتمتّع هنيهة بالسيادة على الملوك والسلاطين ، الشعب الذي طالما اعتقد — وهو الشعب الذي ترقبه عين الله وترعاه — انه أول الشعوب وأفضلها على الارض ، نراه أخيراً يرتجف تحت أقدام الغرباء السفاحين ، تعمل فيه سيوفهم فتقتل شيوخه وشبانه على السواء ، نراه هزءاً وسخرية على وجه الغرباء وأضحوكة في أفواه جميع الاحياء . بيد ان عاره وما قدّر له من الخزي والمذلّة قد ازداد بعد موت يسوع : إذ نرى أورشليم خربة خاوية مرة ثانية ، والهيكل رجاسة خراب ، ولا قوة ولا كلمة في أرض داود وسليمان إلا لليونانيين والرومانيين وبقية اسرائيل تتبعثر على وجه الارض كالغبار المتطاير من أمام الريح الشرقية السموم .

أجل ، انه لم يقم في العالم شعب أحبه الله كما أحب هذا الشعب الله ، ولم يقم شعب قط أدّبه ربّه كما أدب يهوه شعبه . فانه بعد ان اختارهم لكي يكونوا الاولين صاروا عبيداً لعبيد الآخرين . وبينما تراهم يتوقون إلى ان تكون لهم بلاد قوية مختصة بهم ، نراهم عبيداً وغرباء منفيين في بلاد ليست لهم .

ومع انهم كانوا رعاة أكثر مما كانوا رجال حرب وقتال فانهم لم

يذوقوا طعم السلام قط ، لا مع الغرباء ولا بعضهم مع بعض . كانوا يحاربون جيرانهم ، وضيوفهم ، وقوادهم وكثيراً ما حاربوا أنبياءهم والههم نفسه .

ولكن هذه البلاد النابعة شراً وفجوراً ، التي كان يتحكم فيها المجرمون والسفاحون والغادرون والزناة الفاسقون واللصوص والحكام المرتشون ، هذه الارض الفاسدة ، أرض الكفر والالحاد ، قد انجبت بالرغم من كل ذلك أشرف النساء اللواتي ولدن أقدس واطهر أنبياء المشرق ، وقديسيه الاطهار . وأخيراً جاء من نسلهن أبو القديسين الجديدين الذي كان محجّة لكل الاباء والانبياء وأملهم الوحيد بالخلاص . ان هذا الشعب الذي لم ينبغ في روحانية ، ولا علم ولا موسيقى ، ولا حفر ، ولا تصوير ، ولا هندسة قد كتب أعظم اشعار العالم القديم اللامعة بانوار وحي المزامير والانبياء ، والفخورة برقة قصص يوسف وراعوث التي لا تجارى ، والملتهبة بعاطفة نشيد الانشاد الخالدة .

قد نشأ هذا الشعب في وسط كثرت فيه الطقوس والتقاليد البالية ، والالهة الغريبة ، وعبادة الاوثان ، ولكنهم بلغوا ادراك كنه محبة الله الاب السماوي العام لجميع العالم ، كانوا أغنياء في وفرة ذهبهم وكثرة أملاكهم وأرضهم ، بيد أنهم يفاخرون العالم بأنبيائهم الذين كانوا أول من دافع عن حقوق الفقراء ، واحتقر ثروة الاغنياء ، وغناهم البعيد

عن روح الله . ان الشعب الذي طالما ذبح الابرار على مذابح عبادتهم، وفي هيا كلهم ، وحرق مدنا برمتها بجميع من فيها من كبار وصغار ، هذا الشعب نفسه قد قدم تلاميذ مساعدين لذلك الوديع الذي علّم الناس أن يحبوا أعداءهم . ان هذا الشعب الذي كثيراً ما كان يترك الهه ويتبع الهة غريبة حسداً من الهه الحسود ، لم يبق من هيكلهم الذي بني وتهدّم ثلاث مرات ، سوى جانب من حائط حقير عار من جميع امجاد سليمان وزينته ، يجتمع اليه الراثون والنادبون ويخفون دموعهم في ظله .

غير أن هذا الشعب الذي تجمعت فيه جميع المتناقضات. فكان أسعد شعوب الارض كما كان اتعسها — وكان الاول بين الاوائل والاخير بين الاواخر ، وكان العظيم الرفيع الفائق الطبيعة والوضيع المنسحق تحت اقدام العبيد ، الشعب الذي على رغم أنه لا يزال يخدم أمماً غريبة عنه فهو ما برح حتى اليوم يسود غيره من الامم والشعوب بماله وكلمته . الشعب الذي مع انه تغرب عن بلاده منذ مئات السنين ولم يبق له بلاد خاصة به فان أملاكه منتشرة في سائر انحاء الارض ، الشعب الذي رغما عن انه صلب قائده ومخلصه وسفك دمه على الصليب فقد قسم تاريخ الانسانية الى قسمين . ان سلالة قاتلي الالهة هؤلاء قد أثمرت للعالم شعباً هو أنجس وأقدس سائر الشعوب .

الانبياء

ما قام في العالم شعب انذره حكماؤه وأنبياؤه كاليهود منذ بداءة ملكهم الى حين تشتت شملهم وعبوديتهم : في أيام الملوك العظماء ، أيام النصر والرخاء . وفي أيام النفي الحزينة ، وفي أيام العبودية المرة، وفي أيام الشتات المشؤومة .

للهند نساكها الذين يعتزلون العالم ويفرون الى البراري فيقهرون أجسادهم بأنواع النسك والتقشف لكي تستطيع النفس أن تسبح مع اللامتناهي في قضاء اللانهاية . وللصين حكماؤها الودعاء ، وآباؤها المحبون للسلام ، الذين علموا الاداب لرجال الامبراطورية العظماء ولاحقر أبناء الشعب على السواء . ولليونان فلاسفتها الذين وضعوا في أروقتهم الظليلة النظم الدقيقة لفلسفتهم ، ونظموا أشراك منطقهم ونصبوا أحابيله بملء الدقة والعناية . وللرومانيين مشترعوهم الذين نقشوا على النحاس الشرائع والقوانين لتأييد العدالة في العالم القديم والاجيال التي توالت بعد ذلك العهد . وللاجيال المتوسطة رهبانها ووعاظها الذين قضوا حياتهم مجاهدين في سبيل تنبيه المسيحية ، الوسنانة وتذكيرها آلام المسيح وتخويفها من نار جهنم . أما اليهود فليس لهم سوى انبيائهم .

فالانبياء لم يعلنوا وحيهم ونبوءآتهم للناس في المغاور والكهوف

من على كراسيهم المثلثة القوائم والزبد يتطاير من اشداقهم مع كلماتهم وأقوالهم ولـكنهم تكلموا وأنبأوا الناس بالمستقبل .غير أنهم لم يحصروا كلامهم بالمستقبل وحده لانهم كانوا ينبئون بامور لم تحدث بعد وفي الوقت نفسه كانوا يذكرون الناس بما مضى من حوادث الاجيال الغابرة . فكانوا مسيطرين على الزمان بمظاهره الثلاثه ، يحلّون رموز الماضي ، ويكشفون أسرار الحاضر ، وينذرون بمآتي المستقبل وحوادثه التي لم تحدث بعد .

كان النبي اليهودي صوتاً يتكلم أو يداً تكتب ، صوتاً يتكلم في قصور الملوك ، وفي كهوف الجبال ، ومن على درجات الهيكل ، وفي قدس اقداس يهوه الاله العظيم ، كان صوتاً يرتفع بالصلاة ، وصلاة تتعالى بالانذار والوعيد ووعيداً يتحول إلى الرجاء والامال المقدسة . وكان قلبه مضغوطاً بالحزن ، وفمه ممتلئاً مرارة وعلقماً ، وذراعه مرتفعة بالارشاد ، منذرة بالديتونة الآتية على الجاهلين : كان يتكلم من أجل شعبه ، ويوبخهم من فرط حبه لهم . وكان يعاقب الناس لـكي يطهرهم من خطاياهم ، وبعد سيلان الدماء في ساحات المذابح ، واندلاع ألسنة النيران في الحرائق ، كان يعلم بالقيامة والحياة، بالغلبة والبركة ، بملك داود الجديد والعهد الباقي إلى الابد .

كان النبيّ يقود المشركين من ظلمة الشرك إلى نور ربّ العالمين الحق ، ويذكر الخائن بايمانه واقسامه ، ويسأل الرحمة للفقير

المسكين ، ويرجع المحبة والشفقة إلى قلب الظالم الأثيم ويعيد الطهارة للنجس ، والرحمة للاشرار والظالمين والعدالة للملوك ، والطاعة للثائرين المتمردين ، والقصاص للخطأة ، والضعة للمتكبرين . وكان يدخل قصور الملوك فيوسعهم توبيخاً وتأنيباً وينحدر إلى رعاع الشعب فيؤدبهم بسياط الحق والمعرفة : ويبكت الكهّان ورؤساءهم غير متغاض عن عيوبهم ونقائصهم ، ويقابل الاغنياء فيبعث بهم إلى ما هم أهل له من الحيرة والخذلان . وكان يعلن التعزية للحزين ، والاجر والثواب للمضطهدين والصابرين والصحة للمرضى والمضنكين ، والحرية للاسرى والمستعبدين ، — وعودة الظافر القاهر للامة الوضيعة الحقيرة .

لم يكن النبي من طبقة الملوك ، أو الامراء ، والكهان، والمتشرعين بل كان فقيراً مسكيناً من عامة الناس المحتقرين والمنبوذين من الجميع. كان صوتاً وحيداً منفرداً ، صوتاً حزيناً مضغوطاً بالكآبة والآلام ، صوتاً هائلاً ينذر ويصرخ بالعار والشنار ، صوتاً منادياً بالتوبة ومغفرة الخطايا وواعداً بالحياة الابدية والخلود .

لم يكن النبي فيلسوفاً ، ولم يكن يهمه إذا كان العالم قد تكوّن من الماء ، أو من النار ، إذا لم يكن للماء والنار من قوة على تطهير نفوس أبناء العالم .

كان النبي شاعراً ، بيد انه لم يكن مختاراً في شاعريته ، فكان يصوغ في حدة غيظه ، وجلال وحيه ، صوراً ذات قوة معنوية خالدة

لا يبلغ اليها خيال شاعر أو أديب على هذه الارض . لم يكن النبي كاهناً ، لانه لم يكن ممسوحاً بالزيت من خدام الهيكل الطامعين المستأجرين للمحافظة على تابوت العهد . ولم يكن ملكاً لانه لم تكن له السلطة على رجال الحرب الاشداء المسلحين ، ولم يكن له من سيف سوى الكلمة الهابطة من فوق ، من السماء ، ولم يكن جندياً بل كان مستعداً أن يموت في سبيل الهه وشعبه في كل لحظة .

كان النبي صوتاً متكلماً باسم الرب ، ويداً تكتب ما يمليه عليها الله ، وكان رسولا أرسله الله لهداية الضالين عن الصراط المستقيم ، الذين نقضوا العهد ولم يحفظوا حرمة أقسامهم وايمانهم ، كان النبي أمين أسرار الله ونائبه وموضح ارادته على الارض ولذلك كان أعظم من الملوك لأنهم لم يكونوا يطيعون الله ، وكان أعظم من الكهان لانهم لم يفهموا شريعة الله ، وكان أعظم من الفلاسفة الذين ينكرون الله ، اعظم من سائر أبناء الشعب لانهم تركوا الله ليعبدوا أصناماً من الحجارة والاخشاب .

النبي هو الذي ينظر بقلب متألم وعين يقظة إلى الشرور السائدة في العالم والعقاب القريب ، ويشاهد ملكوت السعادة الذي يلي العقاب والتوبة .

أجل ، كان النبي لساناً ناطقاً للابكم الاصم ، ويداً كاتبة للاقطع

المسكين ، ومنقذاً رؤوفاً للمظلومين والمضطهدين المشتتين في شقائهم . والمدافع عن حقوق المساكين ، والمنتقم للمنسحقين تحت الاقدام وهم يئنون متوجعين وليس لهم من يصغي إلى أنينهم . كان رفيق المغلوب المرتجف تحت سنابك الخيول ونصير المبغي عليهم والمستعبدين . ولم يكن يخالط المُشبَعين والشرهين بل كان يقضي حياته مع الجياع والبائسين .

كان صوتاً مضطرباً ، لجوجاً ، سابقاً لاوانه ، ممقوتاً من العظماء ، محتقراً من العامة ، وقلما كان يفهمه أحد حتى تلاميذه المقربون ، كان النبي في اسرائيل يروح ويجيء في الازقة والشوارع والعيون ترقبه حسداً وغدراً ، والالسنة تندلع عليه بالشتائم واللعنات، كأنما هو ضبع قد شمت رائحة الجيفة النتنة من بعيد ، أو مهذار ثرثار يضرب دائماً بريشة حلقه على أوتار واحدة ، أو ذئب جائع يعوي على قنن الجبال ، ولم يكن يرحب به أحد من أفراد الشعب سوى الفقراء والمضطهدين ، غير انهم ضعفاء ولا يعرفون إلا ان يستمعوا له صامتين .

وككل المنادين بالحق ، الذين يقلقون راحة العامة الهاجعة في ظلمة الغفلة ، ويزعزعون دعائم سلامة الاسياد المستبدين ، كان يتجنبه الناس كأنما هو ابرص نجس ، ويخشونه كأنه مريض سقيم ووابيء حمى ، ويضطهدونه كأنه ألدّ عدو من أعدائهم . كان الملوك

يبغضونه لانه كان يوبخهم لظلمهم وغدرهم ، وكان الكهنة يعاملونه كزنديق كافر لانه كان يزيح الستار عن مراوغتهم وريائهم ، وكان الاغنياء يحتقرونه لانه كان يشبعهم توبيخاً على طمعهم وبخلهم .

لاجل ذلك كله نرى إيليا يهرب من أمام غضب إيزابل زوجة اخاب وقاتلة الانبياء ، وعاموص يُطرد من بيت اسرائيل في أيام اماصيا كاهن البعل ، واشعيا يقتل بامر منسى ، واوريا يذبح بامر الملك يواكيم ، وزخريا يقتل بين الهيكل والمذبح ، ويونان يُطرح في لجة البحر ، ويوحنا المعمدان يقطع رأسه بحد السيف ، والصليب يهيأ لكي يعلّق عليه يسوع .

كان النبي نقاداً للعيوب ، وقاضياً على الجرائم ، ولكن قلما يعترف الناس بعيوبهم ، ويقرون بجرائمهم . كان النبي الشفيع الصالح الذي يقود تابعيه الى الحياة ، ولكن العميان قلما يريدون أن يقودهم أبناء النور . كان النبي رسولاً مبشراً بالحياة ، غير أن الاصم عبثاً ننذره بالبشائر والمواعيد . كان النبي مخلصاً ، ولكن الناس يستلذون حياتهم القذرة ، وأمراضهم الوابئة ولا يريدون لأنفسهم راحة أو شفاء . غير أن كلمة الانبياء هي الشهادة الخالدة لهذا الشعب الذي مع انها أذلته وأنزلته عن عرش امجاده فقد كان لها من القوة ما جددت به ميلاده ثانية . لان موت نبي واحد ، وهو أعظم الانبياء أجمعين ، قد كان وحده كافياً لان يكفّر عن خطايا وجهالات جميع

الشعوب الذين كانوا يتمرغون في قذارات الارض وحمآتها .

الذي يأتي بعدي

كان يسوع في بيته في الناصرة مواظباً على درس أوامر الشريعة والتأمل فيها . وكان يشاهد بعينيه ما سيصير اليه أمره في قراءة مراثي الانبياء الفاجعة ، وفيها بملء الدقة والصراحة جميع المواعيد الثابتة ، التي كانت تتكرر وتعاد في حياة جميع الآباء ، ويثبتها الجميع من غير أن يعترض أحد لانكارها ، وكلها تصف حياته بوضوح كامل وتشهد شهادة صريحة ، لا تقبل النقض ، لجميع ما سيحلّ به . وعندما بلغ يسوع الثلاثين من عمره وتعرف الى أبناء زمانه كابن الانسان ، كان يعلم كل ما ينظره من الحوادث من البداية الى النهاية ، لان حياته المقبلة كانت مدونة صحيفة صحيفة قبل ميلاده البشري بزمان طويل .

فقد عرف يسوع أن الله وعد موسى بنبي جديد قائلاً له «سأقيم لهم نبياً من أخوتهم ، نبياً مثلك ، وسأضع كلامي في فيه ، وسيخاطبهم بجميع ما آمره به » وأنه سيقطع عهداً جديداً مع شعبه « ليس كالعهد الذي قطعته مع أبائهم ... بل سأجعل شريعتي في ضمائرهم ، وأ كتبها على ألواح قلوبهم ... وسأغفر آثامهم ولن أذكر خطاياهم

من بعد» هذا هو العهد المحفور في أعماق النفوس وليس على الحجارة: عهد الصفح والغفران وليس عهد القصاص والتأديب ! .

وقد جاء في الانبياء أن ماسيا يجب ان يتقدمه سابق لكي يعلنه للناس . « ها انا مرسل ملاكي امام وجهك يهيء طريقك قدامك » .

« لانه قد ولد لنا صبي وأعطيناه ابناً : ويدعى إسمه رسول الرأي العظيم مشيراً عجيباً ، والهاً قوياً مسلطاً رئيس السلام ، أبا الدهر الآتي » . غير ان الشعب سيتعامى عن رؤيته ولن يصغي إلى صوته ، قال النبي ، « قد غلظ قلب هذا الشعب ، وثقلت آذانهم وعميت أبصارهم ، لئلاً ينظروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ، ويرجعوا فاشفيهم » .

« وسيكون حجر عثار وصخرة شك لجميع بيت اسرائيل ، وفخاً وشركاً لسكان أورشليم »

ولن يتعظم ويتباهى في ذاته : ولن يأتي بغلبة وانتصار وكبرياء ، « إفرحي يا إبنة صهيون وتهللي يا إبنة أورشليم ، فهوذا ملكك يأتي اليك : عادلاً ومخلصاً ، وديعاً ومتواضعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان »

وسيؤيد العدالة ويرفع التعساء المتضعين كما وصفه النبي قائلاً : « الرب قد مسحني لكي أبشر المساكين وارسلني لاعصب منكسري

القلوب ، لانادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق ... واعزي جميع النائحين » « ويزداد البائسون فرحاً بالرب ، ويتهلل مساكين الناس بقدوس اسرائيل . لان العاتي قد باد ، وفني المستهزىء وانقطع كل الساهرين على الاثم »

« حينئذ تنفتح عيون العميان ، وآذان الصم تنفتح ، حينئذ يقفز الاعرج كالأيل ويترنم لسان الاخرس »

« أنا الرب قد دعوتك بالبرّ ، ان تفتح عيون العميان ، وتخرج المسجونين من سجونهم ، والجالسين في الظلمة من عبودية سجنهم »

وسيكون محتقراً ويتألم من الذين جاء لكي يخلصهم ، « لا صورة له ولا جمال فننظر اليه ، ولا منظر فنشتهيه . محتقر ومخذول من الناس ، رجل اوجاع مختبر الحزن ، قد حجبنا عنه وجوهنا ، فاحتُقِرَ ولم يُعتدَّ به . »

« ولكنه قد حمل احزاننا ، وتحمَّل اوجاعنا ، اما نحن فقد حسبناه مصاباً مضروباً من الله ومذلولاً . بيد انه كان مجروحاً لاجل معاصينا ، ومسحوقاً لاجل آثامنا ، تأديب سلامنا عليه وبجبره شفينا .

« كلنا كغنم ضللنا وملنا كل واحد في طريقه ، والرب وضع عليه آثامنا اجمعين .

« قد ظلم ولكنه تذلل ولم يفتح فاه ، كشاة تساق الى الذبح

وكنعجة صامتة امام جازّيها هكذا ولم يفتح فاه . . . لانه قطع من ارض الاحياء : وقد ضرب من اجل ذنب شعبي .

« اما الرب فسرّ ان يسحقه : ولذلك اسلمه إلى الحزن ، ان جعل نفسه ذبيحة اثم يرى نسلاً تطول ايامه ومسرة الرب بيده تنجح . من تعب نفسه يرى و يشبع : وعبدي البار بمعرفته يبرّر كثيرين وآثامهم هو يحملها . لذلك اقسم له بين الاعزاء ، ومع العظماء ، يقسم غنيمة من اجل انه سكب للموت نفسه : واحصي مع الاثم وهو حمل خطايا الكثيرين ، وشفع بالمذنبين »

ولم يستنكف عن احتمال احقر الاهانات كما نرى في قول النبي ايضاً :

« بذلت ظهري للضاربين ، وخدّي للناتفين ، ولم استر وجهي عن العار والبصاق ، »

وفي الساعة الاخيرة يكون الجميع ضده ، « قد تكلموا علي بلسان غاش و بكلمات نفاق اجتمعوا حولي ، ابغضوني مجاناً ، ولاجل محبتي صاروا اعداء لي »

« انت عرفت عاري وخزيي وخجلي ، قدامك جميع مضايقي ، العار قد كسر قلبي فمرضت ، سألت الرحمة فلم اجد وطلبت معزين فلم اصب .

« جعلوا في طعامي مرارة وفي عطشي سقوني خلاً » وسمروني

بالمسامير واقتسموا ثيابي بينهم . قد أحاطت بي كلاب كثيرة ، وجماعة الاشرار اكتنفني ثقبوا يدي ورجلي وأحصوا كل عظامي وهم ينظرون ويتفرسون بي . اقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي اقترعوا»

« . . . . وسينظرون الى الذي صلبوه ، وينوحون عليه كما ينوح الانسان على إبنه الوحيد ، سيتمرمرون على فقده كما يتمرمر الانسان على فقد إبنه البكر .

« ويسجد له كل الملوك . كل الامم تتعبد له . لانه ينجّي الفقير المستغيث والمسكين الذي لا معين له . يشفق على المسكين والبائس ويخلص نفوس الفقراء .

« وأبناء الذين أحزنوكِ سيأتون منحنين أمامك ، وجميع الذين أذلوكِ سيركعون صاغرين تحت مواطىء قدميك »

«لانه هوذا الظلمة القاتمة ستغطي وجه الارض وجميع الساكنين فيها ولكن نور الرب سيشرق عليكِ ، ومجده سيحيط بكِ .

« وسيأتي الامراء إلى نوركِ ، والملوك إلى نور قيامتك .

« إرفعي الحاظك باستدارة وانظري فانهم قد اجتمعوا جميعاً عليك . وسيأتي بنوك من بعيد و بناتك ستنمو إلى جانبك .

« ها قد أعطيته شاهداً للشعب ، وقائداً وزعيماً للامم . وها انك ستدعين امة ما لا تعرفين . والامم التي لم تعرفك ستأتي اليك لأجل الرب الهك »

بمثل هذه الآيات كان يسوع يناجي نفسه في أسهاره وخلواته قبل ان دخل إلى العالم . فقد كان عالماً كل شيء ولم يشأ أن يتحولّ عنه. ومن ذلك الحين كانت تتمثل أمام عينيه القساوة ، ونكران الجميل ، والآذان الصماء التي كان مزمعاً أن يصادفها من أصدقائه ، و بغض الاشداء له ، والسياط والبصاق ، والتعبيرات ، والاهانات ، وطعنات الحراب ، وتسمير اليدين والرجلين بالمسامير ، والتعذيبات ، وآلام الصليب والموت ، وكان يعلم ان اليهود الملتصقة أرواحهم بقذارات المادة بعد ان انسحقت نفوسهم باضطهادات الغرباء ، وهم ممتلئون من الضغينة والافكار الشريرة ، لم يكونوا ليقبلوا ماسيا كما جاء يسوع — فقيراً ، وضيعاً ، ومحتقراً ذليلاً . بل كانوا — ما خلا نفراً منهم من ذوي البصيرة النيرة والانبياء — يحلمون بماسيّا ارضيّ يكونَ ملكاً مدرّعاً مسلحاً ، وداوداً ثانياً ، ومحارباً جباراً ، سفاكاً للدماء لكي يهرق دماء اعدائه — يحلمون بماسيا ذي ثروة يستطيع بها قصر سليمان وهيكل سليمان . كانوا يحلمون بان يشاهدوا ملكاً جباراً تخر على اقدامه جميع ملوك الارض مقدمين له الجزية عن يد وهم صاغرون ، الجزية المؤلفة من الذهب الخالص والفضة النقية وليس من المحبة والاحترام . وكان يخيل اليهم ان هذا الملك الارضي سينتقم لاسرائيل من اعدائهم الذين خربوا بلادهم ، واتعسوا حياتهم ، واستعبدوهم في أرض ابائهم واجدادهم . وان العبيد سيصيرون أسياداً

في مملكته ، والاسياد سيصيرون عبيداً ، وأن اورشليم ستكون كعبة العالم كله ، وأن ملوك الارض سيخلعون تيجانهم ساجدين امام ملك اسرائيل الجديد . وأن حقول اسرائيل ستصير أوفر خصباً من سائر حقول المعمور ، ومراعيهم ستكون أنضر وا كثر نمواً من كل مراعي العالم ، وقطعانهم ومواشيهم تنمو إلى ما لا نهاية له ، والحنطة والشعير وسائر الحبوب تنبت وتحصد مرتين في العام ، وسنابل القمح تثقل اكثر من ذي قبل بضعفين ، وتعطي الكرمة عنباً لم تنظر العين مثله فيما مضى من الازمنة حتى ان رجلين قويين يقدران بالجهد على حمل عنقود واحد منه . ويكثر الخمر حتى لا يبقى للناس أين يضعون نتاج كرمتهم ، ولا أين يضعون الزيت والزيتون ، ويكثر العسل حتى يجده الانسان في شقوق الاشجار وزوايا الشوارع والجدران . وتتكسر أغصان الاشجار تحت ثقل الأثمار اللذيذة الطعم والجميلة المنظر ، التي لم ير الانسان ثمرة مثلها منذ أضاع فردوسه الاول .

هذا هو ماسيّا الذي كان ينتظره اليهود الجسدانيُّون الذين كانوا في عهد يسوع أما يسوع فقد كان عالماً انه لا يمكنه ان يمنحهم رغبات قلوبهم الامارة بالسوء ، وانه لم يأت لكي يكون ذلك الملك الجبار العاتي الذي يريدون منه ان يتحكم في ملوك الارض وشعوبها . وكان واثقاً بان مملكته ليست من هذا العالم ، وانه لم يكن له أن يعطي العالم سوى القليل من الخبز والسمك ، وكل ما كان في قلبه من المحبة ،

واخر نقطة من دمه ، غير انه كان يعرف ان أبناء العالم لن يؤمنوا به ، وانهم سيقابلون محبته له بالتعذيبات والاضطهادات ، وانهم سيقتلونه أخيراً كنبي كاذب . عرف يسوع جميع ذلك كأنما قد رآه بعينيه ، ولامسه بيديه ، وتحمله في نفسه وفي جسده . ولكنه عرف أيضاً ان بزرة تعاليمه التي جاء لكي يبذرها في الارض بين الشوك والعليق وتدوسها أقدام الاشرار والسفاحين — عرف انها ستفرخ نبتة حية قوية عند دنو الربيع ، ومع ان الريح ستلويها وتضغطها عند أول نموها فانها ستكبر رويداً رويداً حتى تصبح شجرة عظيمة ترتفع فروعها إلى أعالي السماء ، فتغطي الارض باغصانها . وان جميع الناس سيجلسون في فيئها متذكرين موت الذي زرعها .

نبي النـــار

بينما كان يسوع يعمل في دكان الناصرة الحقـيرة مشتغلاً بالنجارة مع أبيه ، خرج صوت عظيم في البرية عبر الاردن والبحر الميت مبشراً ومنـادياً أن قد اقترب ملكوت الله . وقد كان ذلك الصوت صوت اخر الانبياء ، يوحنا المعمدان الذي جاء يدعو اليهود إلى التوبة معلناً لهم اقتراب ملكوت السماوات ومجيء ماسيا الموعود به . وكان يطهـر الخطاة الذين كانوا يأتون اليه معمداً إياهم في مياه

الاردن لكي تكون هذه التنقية الخارجية لاوساخ الجسد مقدمة للتنقية الداخلية من ادران الخطيئة .

في ذلك العهد المظلم بقذارات هيرودس تدنست اليهودية القديمة بالادوميين المغتصبين، وتنجست بفسق اليونانيين وفجورهم ، واحتقرت تحت أقدام العساكر الرومانيين : أبناؤها مشتتون عنها في سائر انحاء الارض يغدر بها كهانها أنفسهم فيسلمونها إلى أيدي أعدائها ، ولا تعزية لها إلا بتذكار مجدها القديم في أيام مملكتها الارضية القديمة يحن أبناؤها بفارغ الصبر إلى تجديد عزها والانتقام من أعدائها ، ويتوقعون لها النصر عن يد الهها القدير بمجيء المسيح المخلص الموعود به الذي يحررها ويملك في أورشليم الجديدة الفائقة بجمالها وقوتها على أورشليم سليمان ، ومن أورشليم يخرج فيستولي على سائر الامم والشعوب ، ويتغلب علي جميع الملوك والسلاطين ويغزو كل الممالك في أربعة أقطار الارض ، فيسود حينئذ السلام والراحة في جميع الامم ، في ذلك العهد كانت اليهودية تمقت السائدين فيها ، والمتسلطون عليها يسلبونها غناها وثروتها ، وهي ترتجف تحت أقدام الغرباء ، والأجراء، والفريسيين المرائين . في ذلك الحين واليهودية منقسمة بعضها على بعض ، محتقرة مسلوبة قوتها وثروتها ، وهي بالرغم من كل ذلك لا تزال شديدة الايمان والرجاء بالمستقبل ، أصاخت مسامعها إلى الصوت القادم من الصحراء ، وهبت بسرعة إلى مجاري الاردن .

ان في حياة يوحنا وهيأته ما يستولي على خيالنا فيسحره ويستعبده . فقد ولد من والدين شيخين بعد أن بلغا من العمر عتيًا ولم يرزقهما الله ولداً ولذلك كان نذيراً من بطن أمه ، وكان شعره المسترسل على كتفيه وعلى صدره يزيد في هيبته ووقاره لانه لم يحلق قط شعر رأسه منذ ولادته . ولم يشرب قط خمراً ولا مسكراً وقدعاش متبتلا فلم يعرف امرأة ، ولم يعرف قلبه محبة سوى محبة الله ، ترك بيت أبيه وهو بعد في فجر حياته وذهب فاعتصم بالبرية ، وقد عاش هنالك سنين عديدةوحيداً ، فريداً . ولم يكن له لا بيت ولا خيمة، ولا خدام ، ولم يكن يملك شيئاً من حطام الارض سوى ثوب يستره: فكان لباسه من وبر الابل وعلى حقويه منطقة من جلد ، وكان طويل القامة — قوى البنية ، نحاسي اللون حمصته الشمس بحرارتها ، وكان شعره طويلاً يتدلى على ظهره ،ولحيته كثةمسترسلة على صدره ، وعيناه تشعان نوراً من تحت حواجبه المتحركة عندما كانت تخرج من فمه ـ الذي يغطيه الشعر من جميع جهاته ـ تلك العظات الخالدات المنذرة بالويل والثبور للعاصين والمتباعدين عن التوبة والنور .

وقد كان هذا الرجل الجاف المغناطيسي المشابه للفلاسفة الهنود

بانفراده ، والرواقيين (١) بكرهه للمسرات ومقته للملذات — كان الامل الوحيد لذلك الشعب الذي كان يعمّده .

(١) الرواقيون شيعة من الفلاسفة ، نشأت للمرة الاولى في بلاد اليونان وانتشرت منها الى رومية . وقد سموا بالرواقيين نسبة الى رواق كان يجلس عليه زينون الحجر الاساسي لهذه المدرسة الجديدة في سنة ٣٠٨ قبل المسيح وبعد موت ارسطو بأربع عشرة سنة ، وبعد موت افلاطون بتسع وثلاثين سنة . وقد عاش زينون عمراً طويلا ، وكان في حياته مكرماً معززاً من الاثينيين ، ولكن مؤلفاته اندثرت ولم يحفظ منها شيء قط . وأشهر تلاميذه اثنان ، إكليثيوس وخريسيبوس ، وهما اللذان نظما عقائد الرواقية وحفظاها وقد سافرا الى رومية وانتشرت فيها مبادئها بواسطة مانيثيوش الرودسي ، الذي صار تلميذه فوسيدونيوس فيما بعد استاذاً ومهذباً لشيشرون . ومن الذين اعتنقوا المذهب الرواقي كانوا من يوتيكا وبروتوس ، وكان زعماؤها العاملون في رومية شيشرون ، وسنكا ، وابيقطيطوس ومارقوس اوريليوس . وخلاصة المذهب الرواقي التوفيق بين المذهب القائل بكثرة الالهة والمذهب الجاحد لجميع الالهة وذلك بقوة المنطق الذي يسعى الى أسس المعرفة عن طريق الحواس المدركة ، والاداب التي تضع في مقدمة مبادئها المقدسة الحرية المطلقة للارادة البشرية . ومن تعاليمها أن الفضيلة اسمى غاية في الحياة وأعلى صلاح يبلغ اليه الانسان ، وان الفضيلة التي يجب ان يسعى الانسان الى حلها هي العمل دون النظر والتأمل ، وأن الفضيلة كافية للسعادة ، ولكن السعادة أو اللذة يجب الا تكونا هدفين يسعى اليهما الانسان . ويقضي المذهب الرواقي بالتسلط على جميع العواطف والرغبات البشرية التي هي في تعليمه مثمرة شراً وضلالا ومن أهم تعاليمه أيضاً ان الرجل الحكيم وحده يستطيع ان يقوم بواجباته قياماً حقاً . وهو وحده يعيش بدون اهواء مع انه لا يكون بدون احساس . وهو عادل في جميع احكامه على نفسه كما على غيره ، وهو وحده الكامل الحرية ، وهو اخيراً رب وملك ، ولا يفوقه اله من الالهة بالعظمة والكمال ، حتى ولا زفس نفسه .

وقد سمع يسوع بخبر يوحنا من أولئك المعتمدين منه الذين كانوا يعودون من الاردن الى حياتهم الاولى ، كما يخلع الانسان عليه في الصباح ثوب الشغل ليخلعه عنه في المساء . وعرف أن يومه قريب وكان حينئذ في الثلاثين من عمره ، في السن الملائمة لكل عمل لان الانسان ليس قبل الثلاثين سوى مسوّدة لاتزال تحت التنقيح والتصليح وقصبته تسير مع كل ريح وتميل مع كل نسمة . ولا يستطيع امرؤ قبل الثلاثين أن يعرف الناس معرفة صحيحة ولذلك فهو لا يقدر أن يحبهم ذلك الحب المتحلي باسمى العواطف التي يجب أن يتحرك بها قلب أخيه الانسان نحو أخيه الانسان. وإذا كان الانسان لا يعرف أخوانه البشر ولا يعرف كيف يحبهم فانه لايستطيع أن يخاطبهم كمن له سلطان أو أن يجعلهم يصغون الى أقواله كما أنه لا يقدر أن يخلصهم .

البشارة الاولى

أن شمس الصحراء المحرقة قد كوت جسم يوحنا كما أن شوقه المضطرم للملكوت المقبل كان يلهب روحه ولذلك فهو بحق نبي النار . وكان يرى في ماسيا الاتي قريباً سيداً للهيب المحبة ، وينادي بأن الملك الجديد سيكون كرّاماً صارما عنيفا ، فكل كرمة لا تعطي

ثمراً صالحاً يقطعها ويلقيها في النار . وسينقي بيدره جيداً فيجمع الحنطة في الاهراء واما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ . سيكون معمدانا ولكنه يعمّد بالنار .

أما يوحنا فكان متحمساً غضوباً ، خشنا ، جافياً ، سريع التأثر ، عادم الصبر ، قاسياً ، لا يتلطف بالذين يأتون اليه وان حق له أن يفاخر بتقربهم منه .

وإذ كان يأتي اليه الفريسيون والصدّوقيون والكتبة المحترمون من الشعب العارفون الكتاب لكي يعتمدوا منه كان يشدّد في توبيخهم وتعييرهم أكثر من الجميع . وعندما كان يرى كثيرين منهم أتين اليه كان يقول لهم « يا أولاد الافاعي ، من دلكم على الهرب من السخط الآتي ؟ أثمروا أثماراً تليق بالتوبة : ولا يخطر لكم أن تقولوا في نفوسكم ، ان أبانا ابرهيم : لاني أقول لكم ، أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لابرهيم »

« انتم الذين تختبئون في بيوت من حجارة ، كما تختبيء الافاعي في ثقوب الارض وشقوق الصخور ، الا انكم بالحقيقة ايها الفريسيون والصدوقيون لاصلب من الحجارة : فان عقولكم متحجرة بحروف الشريعة وطقوسها الرثة البالية : وقلوبكم الانانية أشبه بالصوان منها بقلوب بني الانسان : لانكم تعطون الفقير الجائع الملتمس منكم رغيفاً من الخبز — تعطونه حجراً علامة على صخرية قلوبكم ، وتحكمون

بالرجم على الكثيرين لانهم لم يجاروكم في خبثكم وشركم . الحق أقول لكم ، أيها الفريسيون والصدوقيون ، أنكم تماثيل حجرية ، غليظة ، ضخمة ولا يؤثر فيكم سوى النار لان الماء الذي أسكبه عليكم يجفّ ويتبخر سريعاً . ولكن الله الذي جبل آدم من حفنة من تراب الارض يستطيع أن يقيم من حصى الشواطىء ومن حجارة الطريق ومن صخور الخلجان رجالاً أحياء ، وأبناء مختارين لنفسه سواكم . بلى ، انه قادر ان يحوّل الصوان إلى لحم وروح كما انكم حولتم اللحم والروح إلى حجارة وصوّان . ولذلك لا يكفيكم ان تستحموا في مياه الاردن . ان هذا الغسل مقدس وشاف غير انكم في حاجة إلى اكثر منه . فجدّدوا حياتكم ، واصنعوا عكس ما كنتم تصنعون فيما مضى من عمركم حتى الآن ، وإلا فانكم ستلتهمون بنار ذلك الذي يأتي بعدي لكي يعمد بالنار » وعندما سأله فريق منهم قائلين : « ما ذا نصنع نحن ؟ » أجاب وقال لهم « من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليصنع كذلك » و « جاء أيضاً عشارون ليعتمدوا ، فقالوا له ، ماذا نصنع يا معلم ؟ فقال لهم لا تستوفوا اكثر مما فرض لكم » .

ثم سأله الجند قائلين ، ماذا نصنع نحن أيضاً ؟ فقال لهم لا تظلموا أحداً ، ولا تفتروا على أحد ، واقنعوا بما قسم لكم »

وقد ذاع خبر يوحنا وطبقت شهرته سائر أنحاء البلاد ، وكان

شديد الوطأة على الفريسيين وتقاليدهم . أما تعاليمه فقد انحصرت في الحض على عمل الخير والاحسان والابتعاد عن الامور الباطلة . ولذلك لم يطلب من العشارين سوى أن يعدلوا و يتجنبوا الظلم . فاذن لهم أن يستوفوا ما فرض لهم من غير أقل زيادة . وكذلك زمرة الجنود الاشرار واللصوص الظالمين فانه لم يأمرهم سوي أن يكونوا حكماء فطنين قائلاً « اكتفوا بما قسم لكم ولا تسرقوا أحداً » ولم يكن في جميع التعاليم التي علم بها يوحنا شيء جديد لم تفرضه الشريعة الموسوية ، بل ان اشعيا وعاموص قد تقدماه بمئات السنين وعلما تعاليم ربما كانت أفضل من تعاليمه .

ولذلك فقد حان الآن لنبي البحر الميت المؤنب العيّاب أن يخلي مركزه لنبي بحيرة طبرية المنقذ والمخلص . ولكن حظ السابقين قليل في هذا العالم : فانهم يعرفون الحوادث التي تأتي بعدهم ، غير انهم يحرمون لذة التمتع بها . يبلغون شواطىء الاردن ولكنهم لا يفرحون بمشاهدة ارض الموعد ، يعدّون الطريق امام الآتي بعدهم ويجعلونها سهلة خالية من العقبات . ولكن الذي يأتي بعدهم يجتاز بهم عابراً في طريقه ، يضعون العرش ولكنهم لا يستطيعون أن يجلسوا ذواتهم عليه . يتجندون في خدمة سيدهم وكثيراً ما يحرمون رؤيته وجهاً لوجه . قد يجوز لنا أن نبرّر شدة يوحنا وشراسته بانه كان سفيراً مندوبا عن غيره لا أكثر ولا اقل . غير انه لم يكن في تلك السفارة

من اثر للحسد . ولكنها أبقت فيه صبغة حزن حتى في ضعته وفقره . وعندما جاء اليه قوم من اورشليم ليسألوه من انت ، اعترف ولم ينكر واقرّ قائلاً : « لست المسيح »

فسألوه ، « اذن ماذا ؟ أ ايليا انت ؟ »

فقال : « لست اياه »

فقالوا له ، « وهل انت ذلك النبي ؟ »

فاجاب : « كلا ! »

فقالوا له ، « وهل انت المسيح ؟ »

فقال : كلا ، بل انا صوت صارخ في البرية قوّموا طريق الرب كما قال اشعيا النبي . . . . ولكن بينكم من لستم تعرفونه ، هو الذي يأتي بعدي وقد كان قبلي ، الذي انا لا استحق ان احلّ سير حذائه » .

وفي تلك الساعة كان أحد العمال الحقيرين في الناصرة يشدّ سير حذائه بيديه متأهباً للخروج الى البرية . مردّداً الصوت الذي ارعد ثلاث مرات قائلاً — كلاً — لست اياه .

اليقظة

كان يوحنا يدعو الخطاة الى المعمودية قبل التوبة . وقد جاء يسوع الى يوحنا لكي يعتمد منه ، فهل كان هذا اعترافاً من يسوع بانه واحد من اولئك الخطاة ؟

ان الاية صريحة في هذا الموضوع : ان النبي كان يبشر بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا وكان مجرد المجيء اليه برهانا على أن القادم رجل خاطيء يرغب في التوبة والمغفرة ، لان الذي يذهب الى الحمام يشعر بان جسده في حاجة الى التنقية من الادران والاوساخ .

غير أن الحجاب المسدول على حياة يسوع بين الثانية عشرة والثلاثين من عمره ، السنوات التي لا يعرف العالم عنه شيئاً فيها ، وهي سنوات نقائص الشبيبة وزلاتها الناتجة عن نزق الشباب وحرارة الدم ، كل ذلك قد دفع البعض من علماء النقد الى الزعم ان يسوع كان في ذلك العهد من حياته تحت تأثيرات الخطيئة مثل سائر البشر ، او أنه على الاقل اتخذ من ذلك العمر عذراً لكي ينخرط في سلك الخطاة القادمين الى معمودية يوحنا . واما حياته في السنوات الاخيرة من عمره فقد افاض في شرحها الأنجيليون الاربعة لان الناس قلما يتذكرون شيئاً عن الاموات سوى اعمالهم واقوالهم في اواخر ايام حياتهم . ولكننا لا نجد في حوادث هذه السنوات الاخيرة اقل

دليل على صحة هذا الزعم بوجود الخطيئة في حياة يسوع بين طهارة ظهورها ومجد نهايتها وجلالها .

وليس ذلك فقط ، فانه ليس من اثر على الاقل للارتداد والتوبة في حياة يسوع على الارض . فان لكلماته الاولى التي تلفظ بها في حياته نفس القوة والروح التي كانت لكلماته الاخيرة ، والمورد الذي كانت تجري منه مياه روحه النقية كان عذباً صافياً منذ اليوم الاول ، بعيداً عن الاقذار — أقذار الشر وأوحال الخطيئة . فقد بدأ بشارته بالحقيقة الخالدة بملء الصراحة والوضوح ، وكمن وثق الجميع باخلاصه وطهارته . وانك لتشعر بانه لم يترك ورائه في ماضيه ما يشين أو يعيب قط فقد كان صوته صافياً شجياً ينشد الاناشيد المطربة التي لم تفسد الرغائب الدنيئة خشونتها ، ولم تنزع التوبة الغريبة حلاوة محبتها ، واما صفاء عينيه وابتسامته وذهنه المتناهي — فلم يكن بالهدوء الذي يعقب غيوم العاصفة ، كلا ولا بياض أنوار الفجر الضئيلة التي تستولي ببطء على شبح الليل القاتم ، بل إنما كان بهاء ذلك الذي ولد طفلاً نقياً وظل طفلاً نقياً إلى نهاية حياته : كان صفاء النهار وجلاءه وسكونه ، وسلامه — النهار الذي ينتهي بالليل ولكنه لا يظلم حتى المساء ، النهار الخالد ، والطفولة الطاهرة النقية حتى الموت .

فقد عاش بين المدنسين بسذاجة الفقير الطبيعية وطهارته بين الخطاة ، وعاش بين الضعفاء بقوة الرجل الممتلىء من العافية بين

السقماء والمرضى ، وكان نشيطاً قوياً . وفوق ذلك فان الرجل المرتد تظهر آثار حياته الماضية في كل مظهر من مظاهر حياته في زمن ارتداده. فان ضميره يتأثر لاقل التذكارات التي تعيد اليه ذكرى حياته الماضية وشروره فتقوده إلى الغم والكآبة . وهو يشعر أبداً بارتعاش في قلبه لاقل عواطف الشهوة ، أو الغضب وغيرهما من أنواع التجربة التي تمثل امامه باحرف من نار ما مضى من حياته فتجعله في شك وريبة من أمر نفسه وانه لم يتخلص بعد من آدم القديم وان انسانه العتيق الذي كان يقوده إلى الشر فيما مضى من حياته ربما لا يكون قد فارقه بل انه لا يزال ساكناً في أعماقه ، يتمثل أمامه انه قد انفق كثيراً في سبيل خلاص نفسه ، وتتألم روحه إذ يشعر بان هذا الثمن الباهظ الذي دفعه معرض للتهلكة والخسران . ومع ان المرتد لا يهرب من الخطأة والاشرار فهو انما يقترب منهم وجلاً خائفاً ، ويشعر في أعماق قلبه بارتعاش غير اختياري مخافة ان تسري اليه شرورهم بالعدوى فتعيد إلى قلبه الرغبة في الشرور والقبائح التي طالما استلذتها نفسه قبلاً فتجدد فيه تذكارات عاره وشروره الماضية ، وفي ذلك ما فيه من دواعي اليأس والقنوط لذلك المسكين وهو في اوج سعادته وخلاصه . لان العبد الذي يسود فجأة على اقرانه العبيد قلما تتم له السيادة عليهم بأمن وسلام . فان روح السيادة بعيدة عن طبيعته . والفقير إذا اثرى قلما يحسن إلى نظرائه الفقراء . ومثلهما الخاطىء المرتد

الى الدين فانه قلما يحسن معاملة رفقائه الخطأة . فيناجي نفسه في خلواته قائلا : « لماذا لا يفعل الخطأة ما فعلته انا ؟ ان الطريق مفتوحة للجميع ، ولو كانوا في اسفل دركات الشر والقسوة : والجائزة كبيرة تعطى لكل واحد على السواء ، فلماذا يتمرغون هنالك في ظلمة الجحيم القاتم الرهيب ؟ »

وعندما يخاطب الخاطىء المرتد اخوانه الخطاة لكي يردهم عن غوايتهم وضلالهم لا يجد بداً من ان يقدم لهم نفسه شاهداً فيشرح لهم سيرته الماضية وسقوطه ثم تجرده من عبودية الخطيئة ليكون لهم من ذلك عظة وعبرة ، يقدم على ذلك رغبة منه في أن ينفع اخوانه البشر ولا يستنكف من ان يظهر عاره لا يفتخر متباهياً بنفسه ، ولكنه لا بد ان يشير دائماً إلى نفسه كمثال حي حاضر لحلاوة الخلاص .

أن الانسان يستطيع أن يتخلص من ماضيه تخلصا باتا ولكنه لا يقدر أن يستأصله من ذهنه . لان الماضي يعيد نفسه بطرائق غير محسوسة في نفس الانسان الذي تخلص منه وعاش حياة جديدة بميلاد التوبة الثاني . ولكنْ حياة يسوع خالية من كل ما يشير أو يدل على أن هنالك أقلّ فرق في حياته أو أقل ذكر لاهتدائه ولحياته قبل الاهتداء وبعده ، لا في مثل ، ولا في أي عمل أو قول صدر منه على الارض . أما محبته للخطاة فهي مجردة كل التجريد من حرارة التمّرد والكبرياء المتحركين في قلب التائب الذي يريد ان

يرد الناس عن الضلال إلى الدين : هي محبة طبيعية بحتة ، وليست محبة واجب لازب لابد منه . هي المحبة الاخوية الخالصة التي لا تتعمد ثلبا ولاتعييراً ولا مذمة ، والاخاء الاختياري السليم الذي ليس في حاجة الى شيء للتسلط على الكره والنفور ، هي العاطفة التي تختلج في قلب الشرير عندما ينظر الى الكمال المجرّد متجسداً في إنسان مثله فيؤخذ بمحبة ذلك الكامل الذي لا يستطيع أحد ان يعيبه او يلطخه بوصمة ، وهو وحده القادر ان يقدسه وينقيه — هي المحبة القائلة بالتضحية — المحبة التي اختلجت بها قلوب القديسين والابرار في احرج لحظات حياتهم — المحبة التي دونها اية محبة كانت على الارض — المحبة التي لم يذق طعمها إنسان قط في العالم قبل يسوع ، المحبة التي يندر ان يجد الانسان لها مثيلا اليوم إلا في الخيال والرمز والاقتداء بمحبة يسوع — المحبة التي سيعرفها العالم ابداً باسم المحبة المسيحية ، وبغير هذا الاسم لن تعرف ولن تخبر لذتها — الى الابد هي المحبة الطاهرة — محبة المسيح ! المحبة .

جاء يسوع الى الارض وعاش بين الخطأة والاشرار بيد أنه لم يكن خاطئاً مثلهم وقد ذهب لكي يستحم في المياه الجارية امام يوحنا ولكنه لم يكن فيه عيب قط . لأن روح يسوع كانت مثل روح طفل وديع طاهر يفوق الحكماء بحكمته ! والقديسين بطهارته وقداسته .

ولم يكن يسوع رافضياً صارماً ، لأنه لم يشعر في حياته بالرعب الذي يستولي على قلب الانسان الذي أعتِقَ من عبودية الموت الادبي وبات خائفاً من الخطيئة مرتعداً ، كلا ، ولم يكن فريسيا مترفضا ، فانه كان يعرف كيف يميز الخير من الشرّ فلا يضيع جوهر الروح في مادة الحرف .

عرفته الحياة وقد رضي الحياة التي ليست هي خيراً بل شرطا لكل خير . وما الشرّ في الاكل والشرب ولا أن يُنظر الى العالم نظرة — ولو نظرة عطف واشفاق على اللص الهارب في ظل الظلام وعلى المرأة التي صبغت شفتيها لتمحو آثار قُبلة لاحب فيها .

المعمودية

في وسط زمرة من ألاشرار جاء يسوع لكي يغطس ذاته في مياه الاردن . ولم يكن سر ذلك التغطيس ليخفى عليه وهو الذي ينظر الى وراء ذلك الطقس الذي كان يقوم به يوحنا المعمدان اما معمودية يسوع فكانت فريدة في بابها . أجل انها كانت ككل معمودية غيرها بحسب الظاهر ولكنها قد أُثبتت بطرق اخرى . غير ان المعمودية ليست دائماً عبارة عن غسل الجسد للدلالة على الرغبة في تنقية النفس كما كان الرأي السائد عند القدماء : انه كما

ان الماء ينظف الجسد من أوساخه فهي كذلك تنقي الروح من ادرانها الروحية . فان هذه الاستعارة الروحية الرمزية كانت ولا تزال نافعة شديدة التأثير في نفوس العامة المتأثرة بمثل هذه الطقوس والرموز القديمة ، وهي طقس ضروري للعيون البشرية التي تحتاج الى مساعدة المادي الفاني على تفهّم اسرار الروحاني الباقي ، ولكن يسوع لم يكن في حاجة الى هذا الطقس قط .

اما ذهابه الى يوحنا فانما كان لكي تكمل نبوة السابق . فقد اظهر بسجوده امام نبي النار اعترافه الصريح بصلاحية يوحنا لان يكون مبشراً حقاً به ، ونائباً صالحاً ، ورسولاً أميناً قام بواجبه خير قيام واستطاع اخيراً ان يصرخ قائلاً « قد اكملت عملي » وفوق هذا فان يسوع بخضوعه لهذا التقليد الرمزي انما قلّد يوحنا عن اهلية وجدارة المنصب لان يكون سابقاً له يعدّ الطريق امامه .

ومن شاء ان يرى معنى آخر لعماد المسيح يسعه ان يذكّر الناس ان التغطيس انما هو احياء وتجديد للذبائح البشرية . فقد اعتادت الشعوب القديمة أن تقدم لغضب الآلهة احد اعدائهم او اخوانهم ، اما تكفيراً عن جريمة واماً نيلاً لنعمة خارقة او خلاص لا أمل به . وكان اليهود يقدمون للرب حياة أبكارهم . اماً أمر الله ، في عهد ابراهيم ، بترك هذه العادة ، فلم يكن دائماً معمولاً به ، بعد ذلك . كان الغسل ضرباً من ضروب تقديم الذبائح فقد كانوا يلقون

في قيرينيا بقبرس ، وفي تراقينا ، وفي مرسيليا ، كلّ عام ، رجلا الى البحر لانقاذ المدينة .

والعماد انما هو فضلةٌ من بقايا رُتب التغطيس الطقسي : فانه في هذه التقدمة الاستعطافية للماء — التي كان قد اشتهر امرها بانها تنفع الذابحين وتبين استحقاق المذبوحين — يسهل جداً أن يرى مبدأ حياة جديدة .

الغارق في الماء يموت لخير الجميع وهو خليق بان يحيا حياة جديدة .

والعماد — حتى بعد ان يُتناسى مبدأه القاسي — قد ظل دائماً رمزاً الى القيامة .

اذن كان يسوع مزمعاً أن يدخل في عهد جديد من حياته ، حياته الحقة وقد شهد بتغطيسه ؛ لارادته في الموت ، وثقته بالبعث مجيداً .

ان نزوله الى الاردن يبيّن مبدأ حياته الثانية ويعني : ان صوته لن يكون الآ ظاهراً كما ان هذه التنقية ظاهرة فقط .

البرّية

عندما صعد يسوع من الماء خرج في الحال إلى البرية ، من ضجيج الجماعات إلى سكينة العزلة والانفراد ! وقد كان إلى ذلك الحين عائشاً بين حقول الجليل وسواقيه وفي المروج الخضراء على شواطىء الاردن ، والآن نراه صاعداً في عقبات الجبال الصخرية التي لا تعرف خضرة الربيع ، ولا نضارة الاعشاب وعبير الازهار ، وليس فيها من المخلوقات سوى الافاعي والحيات . كان إلى ذلك الحين عائشاً بين عمال الناصرة الفقراء وجماهير التائبين الذين كان يوحنا يبشرهم ، ولكنه جاء إذ ذاك لكي يعيش في سكينة الجبال حيث لا يستطيع ان يرى وجه إنسان أو ان يسمع صوت آدمي من بني البشر . لانه ، وهو الانسان الجديد ، شاء ان يجعل البرّية حداً فاصلاً بينه وبين الانسانية .

أجل ، ان الرجل القائل . « ويل للمنفردين » انما يظهر مقياس جبنه وخمول روحه . لان الحياة عبارة عن تضحية يتنوع الثواب عليها بالنسبة إلى ما يتكبده صاحبها من الشدة والمرارة . اما ذوو النفوس الكبيرة فانهم يستقبلون الوحدة وحياة العزلة كجائزة ثمينة وسعادة قلما تتأتى لهم في ضجة الاجتماع ، ولا يجدون في ذلك أقل مرارة أو شدة ، بل تكون العزلة لهم وقتاً ذا فائدة اكيدة ، وقتاً

يجدون فيه جمالهم الداخلي وصلتهم مع عالم الروح والغيب . في الوحدة فقط نستطيع ان نعيش مع قرنائنا أولئك الذين وجدوا هم وحدهم الافكار السامية التي تعزي عن ترك كل الخيور .

الوحدة لا يتحملها متوسطو العقــول ، الذين ليس لديهم ما يعطونه ، فيخافون من نفوسهم ومن فراغ عقولهم . وقد قضي عليهم ان يتحركوا في وحــدة عقولهم الموحشة ، وهي صحراء أشد قحطاً من أية صحراء على وجه الارض لا ينبت فيها سوى أشواك الخمول التي تسمم الحياة وتقتل القلب وكل ما فيه من قوة وعاطفة . وهم أبداً قلقون ، مضطربون ، مكتئبون ، لانهم لا يستطيعون ان يتحدوا هم ذواتهم في اعوجاج حياة سواهم من الادنياء والاشرار الذين يتمرغون في حمأة اضطرابهم وغوايتهم . وبالاختصار فانهم لا يقدرون أن يعيشوا ما لم يستحموا في كل صباح — بالقذارات الـكريهة التي تحملها بلاليع المدن ومتاعبها .

ولد يسوع في العالم ، وعاش إلى ذلك الحين في العالم لانه أحب العالم . ولـكننا نلاحظ انه كثيراً ما كان يخفي نفسه عن العالم بعد ذلك ليكون وحيداً منفرداً حتى عن أعز أصدقائه وتلاميذه : لان من يريد أن يحب الناس يجب أن يبتعد عنهم بين الهنيهة والاخرى، لان الانسان كلما أبعد ذاته من محبيه تعلقت قلوبهم به وقربت روحه من أرواحهم . فمن كان ذا نفس حقيرة لا يتذكر في وقت الفراق

سوى الاساءة والشر الذين صدرا ضدّه : فيقضي ليله قلقاً ، متمرماً غيظاً وحقداً ، ومحبة الانتقام تغلي في صدره . واما الرجل الكبير بنفسه وعواطفه فانه لا يذكر سوى الحسنات ، شاكراً ما لقيه من معروف صديقه ، ومتناسياً ما لحق به من السيئات كأنها لم تكن قط حتى ان الاغلاط الكبيرة والاضرار الكثيرة التي الحقها به الناس ولم يغفرها لهم في حينها — جميع هذه أيضاً يغفرها في نقاء عزلته مجدداً المحبة الكاملة في قلبه للجميع وهكذا يرجع إلى الناس وديعاً محباً للجميع على السواء .

وقد كانت الايام الاربعون التي قضاها يسوع في عزلته في البرية اخر المعدات لحياته الجديدة . تاه اليهود الذين هم رمز نبوءة إلى يسوع أربعين سنة في البرية قبل ان دخلوا أرض الموعد .

صام موسى أربعين يوماً على الجبل وظل قريباً من الله لكي يأخذ الشريعة وايليا النبي ضلّ في البرية أربعين يوماً عندما هرب من غضب الملكة الشريرة وانتقامها .

هكذا قضى المحرر الجديد يستعد أربعين يوماً قبل أن يبشر بالملكوت الموعود ، مع الله ليستمد منه الوحي السماوي .

ولم يكن وحده في البرية : بل مع الحيوانات الضارية والملائكة : مخلوقات أحقر من الانسان كلها مادة ، ومخلوقات أرفع من الانسان كلها روح .

أجل ، ان الانسان حيوان يجب أن يصير ملاكاً : مادة تتحول روحاً . فاذا تسلطت عليه عواطف الحيوان هبطت به إلى أن يصير أحقر من الحيوان وأدنى من البهيمة لانه يرمي بقية عقله تحت اقدام البهيمية : وإذا تسلطت عواطف الملاك على قلبه فانه يصير مثل الملائكة ، حتى ليكون اكثر من جندي ّ اعتيادي ّ لله : يشارك خالقه في الطبيعة الالهية .

ولكن الملاك الساقط الذي حكم عليه أن يتخذ صورة البهيمة هو ألد ّ أعداء الناس الذين يريدون أن يرتفعوا حتى إلى الاعالي التي هبط منها .

ان يسوع عدو لحياة البشر البهيمية . قد جاء لكي تصير البهائم بشراً والبشر ملائكة . وُلد ليقهر العالم ويحارب سلطان العالم وعدواً لله والناس ، ذلك الشرير ، الخادع الخناس : ولد ليطرد الشيطان من الارض كما طرده الآب من السماء .

ولذلك نرى الشيطان في نهاية الاربعين يوماً يأتي إلى البرية ليجرب ّ عدوه .

المجرّب

ان الحاجة اليومية إلى قوت البطن هي علامة الاستعباد للمادة والحال ان يسوع يريد أن يقهر المادة .

فقد سبق له ان شارك الناس في طرائق معيشتهم ، فكان يعيش معهم كما يعيشون : يأكل ما يأكلون ويشرب ما يشربون ، لان الجسد يجب أن يعطى ما هو في حاجة اليه من الجهة الواحدة ولانه أراد أن يحتقر أصوام الفريسيين من الجهة الاخرى . وقد كان آخر عمل من أعماله على الارض في اثناء حياته بالجسد عشاء شارك فيه تلاميذه . وكان أول عمل عمله بعد معموديته صيامه أربعين يوماً في البرية . فانه عندما رأى نفسه وحيداً في البرية بعيداً عن ضوضاء الحياة حيث لا يؤذي صيامه أحداً من رفقائه الساذجي القلوب كما انه لا يجلب له فخراً وكرامة باطلين يعطلان عليه فضيلته ، هنالك في سكينة القفر تناسى طعامه وشرابه واتحد بروحيانيته مع أبيه المالىء ارجاء ذلك القفر بكيانه .

وبعد ان صام أربعين يوماً جاع . فاغتنم الشيطان هذه الفرصة التي كان يترقبها بفارغ الصبر ووثق انه سيتسلط عليه في وقت حاجته إلى الخبز فقال له ، « ان كنت ابن الله فمر هذا الحجر أن يصير خبزاً » فاجابه يسوع على الفور موبخاً اياه وقائلاً ، « مكتوب ليس

بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة من الله » أما الشيطان فلم يقرّ بانغلابه بل « أصعده إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان وقال له ، أعطيك جميع سلطان هذه الممالك مع مجدها، لانها قد دفعت إلي وأنا أعطيها من أشاء . فان سجدت لي فاملك ذلك كله .

فاجابه يسوع وقال له « اذهب عني أيها الشيطان : فقد كتب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد » ثم جاء به الشيطان إلى أورشليم واقامه على جناح الهيكل ، وقال له : « ان كنت ابن الله فالق بنفسك من ههنا إلى أسفل ، لانه مكتوب انه يوصي ملائكته بك لتحفظك ، وانها تحملك على أيديها لئلا تصدم بحجر رجلك »

فاجابه يسوع في الحال وقال له « انه مكتوب لا تجرّب الرب الهك »

ثم يزيد لوقا على ذلك قوله « وعندما أتم ابليس جميع التجارب انصرف عنه إلى حين » وسنرى رجوعه اليه وجهوده الاخيرة في تجربته فيما بعد .

وان من يقرأ هذه المحاورة لاول وهلة يرى انها عبارة عن مبادلة آيات الكتاب على التناوب . لان يسوع والشيطان لم يستخدما كلماتهما في المباحثة التي قامت بينهما بل انما تناقشا بآيات مقتطفة من الكتاب المقدس . وانه ليخيل إلى قارىء هذا المثل انه في مجلس

ديني يصغي إلى مباحثة لاهوتية صرفة والحال ان هذا المثل هو أول الامثال التي وردت في الانجيل .

اما ان الشيطان جاء — وفيه أملٌ محالٌ — بتجريب يسوع ، وان يسوع ، بكونه انساناً ، قد خضع للتجربة ، فليس ثمت موضع استغراب .

فان الشيطان لا يجرّب سوى العظماء والاتقياء . وقلما تراه في حاجة إلى ان يهمس ولو كلمة واحدة لغيرهم داعياً اياهم إلى التجربة لانه واثق بانهم خاصته إذ يخلعون عنهم ثوب الحداثة . يتصرف بهم كيفما أراد وليس هو في حاجة إلى أن يزعج نفسه بان يجعلهم عبيداً لسلطانه لانهم تحت قبضة يده في كل مكان وزمان يقودهم حيثما يرغب في لحظة واحدة . ومع ذلك فان كثيرين منهم لا يدرون بوجوده في الوجود . لانه لم يظهر نفسه لهم قط فانهم يرونه عن بعد وليسوا في حاجة اليه . ولذلك ينكرونه لانهم لم يروا وجهه في حياتهم . فان كتائب ابليس اللعينة لا تؤمن بابليس لان من ميزات ذكائه ، كما قال القدماء ، انه ينشر الاخبار في سائر الامصار عن موته وانقراضه وانه لم يعد له من وجود في العالم لكي يتناسى الناس أمره ويقعوا في مكايده باوفر سرعة . وهو شديد المكر في اختيار الاجساد التي يحلّ فيها ، والصور التي يتخذها مظهراً لنفسه وكثيراً ما تكون هذه الصور آية في الجمال حتى أن الكثيرين يضلون عن معرفتها ، وادراك شرور

الساكن فيها . وهكذا نرى أن اليونانيين وهم عجائب الذكاء والبلاغة في العالم لم يكونوا يؤمنون بالشيطان بل اننا لا نجد له أثراً في تاريخ خرافاتهم ، غير أن الذي يفحص الهتهم فحصاً دقيقاً يرى أن قرون الشيطان كانت مختبئة تحت اكاليلهم المصنوعة من أوراق الغار والدوالي . فقد كان الرجيم متجسداً بشخص جيوبيتر [١] المتليء

(١) جوبيتر : أو المشتري ، اعظم الهة الرومان ويسميه اليونانيون زفس . وقد أطلق عليه الرومان لقب اعظم العظماء . ولما كانت السماوات مركز للالهة . لذلك كان المشتري اله الطقس وجميع التقلبات الجوية يجريها وفقاً لارادته . وكان القدماء يعتقدون بانه يملك في قبضة يده التصرف بجميع مصالح الناس . فكان خبيراً بأمور المستقبل يعرف حوادثه قبل حدوثها ويكيفها كما يريد ، ولذلك كانوا يقدمون له الضحايا كلما ارادوا القيام بعمل من الاعمال الهامة لكي يوفقهم ويبارك عملهم . وكانوا يعتقدون بأنه حارس الاملاك والارزاق الخصوصية والعمومية . وكان الابيض ، لون نور النهار مقدساً لديه . ولذلك كانت الحيوانات التي تقدم على مذابحه بيضاء ، وكان كهانه يلبسون الملابس البيضاء ، وكانت عربته تمثل باللون الابيض تجرها اربعة من جياد الخيل البيضاء ، وكان الحكام وكبراء الدولة مضطرين الى لبس البياض كلما دخلوا هياكله للتضحية أو الصلاة . ويمثل في الغالب وهو يحمل الصواعق بيده ، والنسر ، طيره المحبوب ، يصور واقفاً الى جانب عرشه . وقد درس المشتري « جوبيتر » في مغارة في جبل ايدا بكريت ، وعاش على حليب العنزة امالثيا . وعندما كان بعد صبيا اثار حربا على الطيطانيين (وهم الابناء الجبابرة لفيلوس وتارا الالهين العظيمين وأشهر هؤلاء الجبابرة ساتورن وهيبريون ، واوقيانوس ، وغايطوس ، وبرياريوس وغيرهم) وانتصر عليهم . وقد ثار عليه في أوائل ملكه الجبابرة أبناء الارض طالبين الانتقام منه لقتله الطيطانيين ، ولكنه تمكن بمساعدة

من روح الاستبداد والدعارة ، وفينيس (١) الاهة العشق العاهرة ،

هرقل من الانتصار عليهم . وقد تزوج ماتيس، وثاميس ، وتيريس وغيرونيمي ، ومناموسيني ، ولاتونا ويونو . وكانت عبادته عمومية . ففي افريقيا اطلقوا عليه اسم عمون ، وفي بابل سموه البعل ، وفي مصر دعوه اوزيريس .

(١) فينيس : هي الزهرة أو عفروديت ، الاهة الغرام والتهتك او ربة الجمال . من اشهر الهة القدماء . وهي أم المحبة ، وقد خرجت من زبد البحر وحملت الى السماء ، وهنالك هام جميع الالهة بجمالها . وقد ازوجها زفس بفولكان اوهيفست اله النار ومثير البراكين والصواعق وحداد الالهة ، ولكنها لم تخلص له بل احبت غيره من الالهة سراً ، وبنوع خاص حارس « المريخ » اله الحرب فولد لها منه هرميوني ، وكوبيد وانتيروس . وقد وقع قلبها بحب ادونيس فهجرت او لمبوس ، الجبل العظيم ووطن الالهة ، من اجله وان محاربتها مع يونو « قبريس » وميترفا « أثينا » (يونو امرأة زفس وميترفا الاهة الحكمة والحرب وجميع الفنون الجميلة) التي فازت فيها على خصمها وربحت التفاحة الذهبية — هي من اعظم حوادث الميثولوجيا القديمة . وقد كانت فينيس من جملة العوامل التي سببت حرب طروادة . لانه عندما رمت الاهة الشقاق التفاحة الذهبية بين الاهات العالم القديم لكي تقدم لاجملهم منظراً ، قضى فاريس (ابن فريام ملك طروادة) أن تعطى التفاحة لفينيس ، فاوحت في قلبه حب هيلانة ، امرأة ميناالاوس ، ملك سبارطة فحمل فاريس هيلانة الى طروادة . وهكذا اضطر اليونانيون ان يلحقوا به الى طروادة ويحاصروا المدينة . ويذكر الشعراء فينيس باسماء عديدة أهمها : عفروديت ، كوبرياء ، فافيا ، والالاهة المحبة للضحك وكانت تحب الاقامة في قبرس اكثر من اي مكان آخر . ولم يكن يقدم على مذابحها سوى البخور ، وان صدف ان يقدم حيوان فكان يجب أن يكون تيساً ابيض . وكانت اسمى رمز للجمال عند اليونانيين والرومانيين ، وما بقي لنا من تماثيلها شاهد على ذلك .

وأبولو ومارس [١] القتّال الغدار ، وباخوس السكّير وقد كان الهة اليونانيين من الفطنة بحيث صبوا على المائتين الخمور والعطور حتى لا يشتمّوا كراهة الروائح التي أخذت تغشي الارض رويداً رويداً .

ولكن إذا كان الاكثرون لا يعرفون الشيطان ويضحكون منه كأنما هو شبح مخترع لحاجات التوبة ، فلأنه يتغيظ حقداً على أولئك الذين يعرفونه ولا يتبعونه .

فقد أفسد طهارة الجدين الاولين وقادهما إلى الخطيئة ، وأغوى داود القوي ونجس سليمان الحكيم ، وشكا أيوب الصديق امام عرش الله . لان الشيطان يجرب ، وسيجرب أبداً ، الابرار والقديسين الذين يهجرون العالم ويتوارون في البرية ويجرب معهم

(١) مارس : او المريخ . هو اله الخرافات ، ابن جوبيتر (المشتري) من امرأته يونو ، او ابن يونو وحدها كما يقول اوفيد الشاعر الروماني الشهير . وهو مشهور بحبه لفنيس . وحدث مرة وهما مجتمعان معا بطريقة سرية أن فولكان ، اله النار ، القى عليهما شبكة اسرهما ضمنها ولم يستطعا ان يتخلصا من اسره بدون مساعدة . وقد تعرضا بهذه الطريقة لاحتقار الالهة وظلا على تلك الحالة الى ان اقنع نبتون « اله البحر » الاله فولكان فاطلقهما . وفي اثناء حرب طروادة انضم مارس الى الطروادين ، وكان يساعد انصار فنيس بكل قوته . وقد كان يعبد بالدرجة الاولى كاله الحرب ، ولذلك كان يحمل لقب غراديفوس . ولكنه كان يعتبر ايضا حاميا للزراعة ولذلك دعي سيلفانوس وحاميا للبلاد ولذلك دعي قيرنيوس . ويمثل مارس في النحت بشاب نشيط يلبس خوذة عالية ويحمل بيديه ترسه ورمحه . ويندر أن يصور بلحية طويلة واسلحة كثيرة .

جميع الذين يحبون الله . وكلما بعدنا عنه نراه قريباً منا اكثر من قبل ، وكلما ارتفعنا يزداد غضبه وسخطه لكي يهبط بنا من ارتفاعنا . لا يستطيع ان يدنس إلاّ النقي الطاهر أتراه يهتمّ بالمزبلة التي تفسد من ذاتها بحرارة أنفاس الحيوانية والبهيمية ؟ ولذلك نرى ان تجربة الشيطان برهان على الطهارة والعظمة ومن عرف الشيطان ورآه وجهاً لوجه يحق له ان يقول ان له امالاً كباراً في الخلاص :

وقد تمتع يسوع بهذه الآمال اكثر من أي انسان سواه في العالم .

فقد جرّبه الشيطان مرة واستشهده مرتين إذ سأله ان يحوّل المادة الميتة إلى مادة تعطي حياة للبشر ، وان يرمي بنفسه من علو شاهق ملتمساً من الله ان يخلصه فيبرهن للناس انه هو بالحقيقة إبنه . وقد عرض عليه الشيطان ان يقدّم له جميع ممالك العالم مع مجدها على شرط ان يقلع عن خدمة الله ويتعهد بالتجند في خدمة ابليس . طلب منه خبزاً مادياً واعجوبة مادية ووعده مقابل ذلك بان يعطيه قوة عالمية مادية . اما يسوع فلم يقبل ذلك بل رفضه رفضاً .

فان يسوع لم يكن ماسّيا الجسداني الزمني الذي كان ينتظره اليهود ، كلا . ولم يكن ماسيا المادي كما خيل إلى الشيطان في دناءته وشرّه . بل كان ماسيّا الروحي الذي لم يأت لأجل اطعام اجسادنا بل لكي يقدم نفسه غذاء خالداً لنفوسنا ، — ويوضح لنا الحقيقة

الخالدة التي هي طعـام النفوس الواحد الحي" . غير أنه عندما كان في القفر مع أخوانه ولم يكن لهم طعام ليأكلوا ويخففوا جوعهم ، أخذ أرغفة الخبز القليلة التي أحضرها تلاميذه وكسرها وأعطاها للجموع ، فأكلوا جميعهم وشبعوا وزاد من الكسر سلال مملوءة من الفضلات. ولـكنه لم يوزع ذلك الخبز المادي إلا في أوقات الحاجة الماسة الى الخبز الذي من الارض يخرج والى الارض يعود ... لانه لو اجاب ملتمس الشيطان وحوّل الحجارة التي في الشوارع الى خبز لـكان كل إنسان يتبعه لـكي يشبع جوفه من الخبز وليس ليسمع تعاليمه ، ويتظاهر حباً بجسده ، أنه يؤمن به ويصدق كل أقواله . حتى أن الـكلاب ما كانت لتتأخر عن أن تتبعه لاجل الخبز . ولـكن لم تكن مثل هذه الرغبة الدنيئة برغبة يسوع فانه كان يعلم أن الانسان يجب أن يتبعه على يقين وإيمان محتقراً كل ما يقوم في سبيله من عقبات الجوع والـكآبة والفقر . ولذلك وجب على الذين يتبعونه أن يتركوا وراءهم حقولهم الخصبة وأموالهم التي يحولونها الى خبز . ويجب عليهم أن يتبعونه بدون كيس ولا فضة ، وبثوب واحد ، وأن يعيشوا كطيور السماء فاركين سنابل القمح في الحقول أو ملتمسين صدقة على الابواب. فانه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان فهنالك ما يسد مسد الخبز في الطبيعة ، من تينة مختبئة بين الاوراق الصغيرة وهي ذابلة على أمها ، أوقرص من شهد العسل ، أوسمكة تصطادها شباك الصيادين الفقراء ،

كل ذلك يغني الانسان عن الخبز الارضي . ولكن ليس على الارض إنسان يستطيع أن يعيش بدون الخبز السماوي وهو يريد أن ينجو من الموت الابدي الذي هو نصيب من لا يتذوق حلاوة هذا الخبز . فان الانسان لا يعيش بالخبز وحده ، بل بالمحبة والشوق والحق . ولم يأت يسوع الى الارض لكي يحول الحجارة الى خبز . والمادة الصامتة الى مادة صامتة بل أنما جاءلكي يحول ملكوت الارض الى ملكوت سماوات .

وقد رفض يسوع طلب الشيطان الثاني لنفس الاسباب التي دعته الى رفض الطلب الاول . فان الناس يحبون كل ماهو خارج عن حدود تصوراتهم وأفهامهم من العظائم والمعجزات المادية،ومشاهدة الامور المستحيلة بظواهرها متممة فعلا امام عيونهم ، ويجوعون ويعطشون لكل نادرة غريبة . وكثيراً ما يجتمعون ويسجدون امام مجترح الاعجوبة . ولو عرفوا أنه رجل شرير أو دجال مشعوذ ولذلك كانوا يطلبون آية من يسوع ، وهم يعنون بذلك أن يصنع أمام عيونهم شعوذة بخفة وحيلة نادرتين ، ولكن يسوع كان يرفض طلبهم دائماً لانه لم يشأ أن يقنع الناس عن طريق العجائب والخوارق قط . ولكنه انما كان يشفي المرضى رحمة بهم — وخصوصاً الخطأة والمرضى بأرواحهم — ولكنه كثيراً ما كان يتجنب حتى مثل هذه العجائب أيضاً موصياً الذين يشفيهم أن لا يخبروا أحداً عنه وعما صنع

بهم . وفوق ذلك فأنه لم يستخدم هذه القوة قط في حياته لاجل صيانة ذاته حتى في بستان الجثمانية عندما جرّبه الشيطان وطلب اليه أن يرفض كأس الموت عن شفتيه ، ولا عندما سمّر على الصليب وأعاد الشيطان تجربته له بأفواه اليهود . « ان كنت انت ابن الله فانزل عن الصليب وخلّص نفسك ، فقد رفض الشيطان في عزلته في البرية وفي اثناء صيامه كما رفضه حين موته ، ولم يصنع آية قط ليدافع بها عن نفسه . لان الناس يجب أن يؤمنوا به بالرغم من كل مايقوم في سبيلهم من المقاومات ويؤمنوا بلاهوته ولو لم يروا سوى بشريته المجردة التي لبسها على الارض . بل أية منفعة كانت ليسوع أم للبشرية من أن يرمي بنفسه من جناح الهيكل إلى أسفل الارض ، أو ان يزيل آلام واحد من الناس لكي يستولي على العالم فيخدعهم ويدهشهم بالغرائب والمعجزات : أو ان يجرّب الله ويضطره إلى اجتراح عمل غريب عجيب ، وكل ذلك حتى ان الشيطان لا يربح رهفة الدنيء المبني على التهكم والعجرفة والكبرياء .

كان يسوع معين محبة فياضا فاحبّ ان يتدفق منه على القلوب البشرية وكان بالغاً أوج الكمال باخلاقه ومبادئه فاحب ان يرفع حياة البشر إلى أوج الطهارة والكمال ، وكان روحاً نقية طاهرة فاحب ان ينقي أرواح أبناء الارض من أقذارها ، وكان ذا قلب لا يُدرَكُ قرارُ عاطفته فاحب ان يشعل نبراس المحبة في قلوب الناس ، وكان ذا نفس كبيرة فاحب ان يرفع النفوس الصغيرة الحقيرة من

الدناءة والعار إلى المجد والفخار ، ولذلك فانه عوضاً عن ان يطرح ذاته من جناح الهيكل — والجناح أدنى من الهيكل — عزم على الصعود إلى ما فوق الهيكل ، إلى الجبل ، لكي يقدم للبشرية من أعاليه عظته الخالدة المكللة بتطويبات ملكوت السماوات .

ان طرح ممالك الارض امام قدميه ربما كان راعباً ، وأكثر من ذلك الثمن الذي سأله فيها الشيطان . فان للشيطان حقاً ان يهب ما هو في ملكه وتحت مطلق تصرفه لمن يشاء . وقد أسست ممالك الارض على القوة ، فقامت بالمكر والخداع ، ولذلك فهي ملك الشيطان وأرض ابائه واجداده ، وفردوسه الذي استعاد ثانية على الارض . لان الشيطان ينام في كل ليلة على وسادات الاقوياء والاشداء الذين يؤدون له الجزية والرشوة من أموالهم وباقوالهم واعمالهم في كل يوم . وقد كان يسوع قادراً ان يأخذ ممالكهم هذه من غير ان يخضع للشيطان . فقد كان يكفي لاجل ذلك ان يقدم الخبز للناس من غير ان يشتغلوا ولا شك ان الجموع كانت تقبل وتأتمر باوامره لو فتح كمشعوذ دجال مسرحاً لصنع العجائب واجتراح الآيات والمعجزات وادعى انه ماسيا الذي كان الشعب اليهودي ينتظر مجيئه بفارغ الصبر لكي ينقذهم من عبوديتهم المرة فيستولي عليهم بالمعجزات والعطايا ، ويقيم من كل أرض مملكة واسعة الارجاء كثيرة الغبطة والرخاء ، ويحتل عروش جميع الملوك الذين اقامهم الشيطان معتمدين

له في ظلمة هذه الارض . ولكن يسوع لم يشأ ان يكون مجدداً لشباب تلك المملكة المضمحلّة ولا ان يشهر العداء على الممالك المستبدة المنتفخة بروح الكبرياء والحرب ، فهو لا يحتقر السلطة والمجد واما المملكة التي يبشر بها ويهيئها فليست من هذا العالم وينبغي ان تلغي الممالك الارضية .

أجل ، ان ملكوت السماوات داخلنا — في قلوبنا . وان رجوع كل انسان إلى الفضيلة والتوبة انما يعني ان ملكوت يسوع الروحاني قد ازداد نمواً لانه ربح جندياً جديداً في معسكره وقد خلف مملكة العالم وراءه . فمتى أصبح كل انسان صالحاً باراً ، ومتى أحب جميع الناس بعضهم بعضاً كما يحب الاباء أبناءهم، بل متى صار الاعداء أنفسهم يحبون بعضهم بعضاً ان كان للاعداء من وجود — ومتى أصبحوا لا يفكرون في اشتهاء مال الناس والتناحر عليه بل يطعمون الجائع ويكسون العاري فاين تكون ، إذ ذاك ، ممالك الارض ؟ ولماذا يوجد الجنود إذا كان الناس لايطمحون إلى زيادة أملاكهم وتوسيع دوائر ثروتهم بالسرقة والاغتصاب ؟ بل أية حاجة تظل إلى الملوك إذا كان الانسان يتخذ له من ضميره شريعة ومن وجدانه قاضياً ومن محبته جنداً وأعواناً ؟ وأية حاجة تكون إلى المال في عهد يكتفي فيه كل انسان بما قسم له وهو واثق بان حياته في أمن وسلامة ، وحيث لا أثر للعبودية ودفع الاجور للعمال والجنود ؟ لانه إذا تجددت نفس

الانسان تجدداً روحياً وأدرك كل منا الغاية الفضلى من وجـوده على الارض فانني واثق بان اساسات الحياة الاجتماعية الحاضرة التي نسميها المجتمع الانساني ، أو الوطن أو العدالة ، أو غير ذلك من الالفـاظ تزول كلها وتضمحل كاحلام الليالي الطويلة ، فان كلمة يسوع لاتحتاج إلي الاموال والجنود . لان فيها من روحانيتها ما يوصلها إلى القلوب من غير وسيط أو شفيع . ولو أتيح لها ان تصير الجزء المكمـل العامل في حياة ضمائرنا لسقطت جميع الروابط التي تربط الناس بعضهم ببعض وتعمي بصائرهم ، ولانسحقت كل قـوة ظـالمة لم تبن على الحق ، ولتزعزع مجد الاشرار في كل ما يصادفونه من الفخار والانتصار — أجل ولزال كل ذلك كما يزول ضباب الصباح أمام أشعة الشمس ونسيمات الفجر . ألا ان ملكوت السماوات في داخلنا وهو وحـده سيزعزع أسس الممالك الارضية جميعها ويخلفها في السيادة على ابنـاء الانسان . وقلما تذكر الروح المتحررة في ملكوت السماوات ما قاسته من الظلم والاستبداد في ممالك المـادة لان النـاس في ذلك العهد لا ينقسمون إلى ملوك ورعايا ، واسياد وعبيد ، واغنياء وفقراء ، وابرار متكبرين واشرار حقيرين ، وسجناء مقيدين واحرار طليقين . فان هذه القسمة تبطل في ذلك العهد الذي تشرق فيه شمس الرب على الجميع ، ويـكون سائر ابنـاء المملكة السماوية رعيـة واحدة ويعيشون بالمحبة كالاباء والبنين ، وتفتح إذ ذاك ابواب الفردوس

ثانية لابناء آدم الجديد الصائرين مثل الله

يسوع غلب الشيطان في داخله والآن يخرج من القفر ليقهره بين الناس .

العودة من البرية

وعندما رجع يسوع من البرية الى العالم سمع ان رئيس الربع (وهو الزوج الثاني لهيروديا) قد القى يوحنا سجيناً في قلعة ماخروس . وهكذا أخرس ذلك الصوت الصارخ في البرية ، ولم تعد القوافل القادمة الى الاردن ترى شبح ذلك المعمدان البرّي مرتسماً على مياه النهر. لانه قد قضى عمله وفرغ من مهمته وتنحّى لمن هو أقوى منه ، لصوت أشد وأشجى من صوته . وهو ينتظر في غيابة السجن أن يقدم رأسه الدامي على طبق ذهبي على مائدة الاعراس آخر طعام للخيانة والغدر .

حينئذ عرف يسوع أن ساعته قد جاءت ليقدم بشارته للناس فاجتاز بالسامرة عائداً الى الجليل لكي يبشر أن ملكوت الله قريب . فلم يذهب الى أورشليم مدينة الملك العظيم وعاصمة البلاد في ذلك الحين ، لانه انما جاء لتحطيم أورشليم الحجارة والكبرياء ، الفخورة على تلالها الثلاث ، المتحجرة القلب والصخرية العواطف . والرجال

الذين جاء لمحاربتهم هم أولئك الرافلون بأثواب المجد الباطل في المدن الكبيرة ، وفي العواصم وفي أورشليمات العالم .

وقد كانت أورشليم في ذلك الحين مدينة الكبراء والعظماء ، يقطن فيها الاسياد الرومانيون الاشداء حكام العالم الاقوياء والمسيطرون على اليهودية بجنودهم المدربين المسلحين ، عمال القياصرة : طيباريوس السفّاح السكّير خليفة اكتافيوس الغدار وقيصر الفاسق الفاجر .

هنالك في أورشليم يعيش رؤساء الكهنة حُفَّاظ الهيكل ، والفريسيون ، والصدوقيون والكتبة ، واللاويون ورجالهم المتحدرون من سلالة قتلة الانبياء والذين كانوا يحجّرون روح الشريعة فيجردونها حتى من جلالها ، والمتعصبون للحرف وانصار التقاليد الرثة

هنالك في أورشليم كان الامناء على خزائن الله ، وخزائن القيصر ، الذين كانوا يحرسون الاموال والكنوز وعبّاد الثروة الاغرار ، والعشارون مع جباتهم وحشراتهم التي تعيش على أجسام غيرها ، والاغنياء مع خدامهم ومحظياتهم ، والتجارة في مخازنهم أو متاجرهم القائمة في الفضاء ، وأكياس المال يرن الذهب في داخلها بحرارة الصدور التي تحملها وفوق القلوب التي لا تختلج الا بمحبتها .

قد جاء يسوع لكي يحارب جميع هذه القوات : فيتسلط

على أسياد الارض — الارض المختصة بالجميع ، ويحيّر أسياد الكلام — الكلام الذي يجب أن ننطق به بصراحة ووضوح حيثما شاء الله ، ويدين أسياد الذهب ، العنصر الدنيء الزائل المشؤوم . قد جاء لكي يقلب مملكة جنود رومية الذين يضطهدون الاجساد ، ويزعزع أسس مملكة كهان الهيكل الذين يضطهدون النفوس ، ويحطم مملكة جباة الاموال الذين يضطهدون الفقراء والمساكين . قد جاء لكي يخلص الاجساد والنفوس والفقراء معاً ، فعلم بالحرية بالرغم من سياسة رومية ، وعلم بالمحبة فحطم دعائم عقائد الهيكل وتعاليم كهانه ، وعلم بالفقر فهدم سائر نظريات الاغنياء .

لم يشأ قط ان يباشر أعمال بشارته في أورشليم حيث كان يجتمع أعداؤه ويؤلفون باجتماعهم قوة هائلة ضده . بل رغب في ان يحيط بالمدينة فيحاصرها من الخارج ويدخل اليها أخيراً بجيش جرار من جنود ملكوت السماوات الذي يكون قد أتمّ تأسيسه إذ ذاك وصار له من القوة ما يدك به حصون أورشليم . لان احتلال أورشليم كان آخر حلقة من سلسلة الاختبارات وأعظم تجربة من تجارب يسوع التي أثارت المعركة العظمى ، المعركة الهائلة بين يسوع الاعظم من كل الانبياء وأورشليم المدينة القاتلة الانبياء . ولو دخل يسوع في بدء كرازته إلى أورشليم « حيثما كان عليه أن يدخل كملك منتصر ويعتبر كمجرم أثيم » لسيق في الحال إلى ظلمة السجن ولما تمكن من

زرع بذار كلمته في أرض أقل حسكاً وأشواكاً وصخوراً من أرض أورشليم .

وكانت أورشليم آنئذ كسائر المدن الكبيرة — البلاليع الغليظة التي تتجمع فيها نفايات الامم وأقذارها وسقطاتها — كانت مجتمعاً لاوباش الادنياء والظرفاء الخاملين ، والكفرة والزنادقة المعطلين ، وابناء الشرف الموروث الذين لم يرثوا من أبائهم وأجدادهم سوى طائفة من التقاليد البلهاء ، والطقوس العقيمة العمياء ، يمارسونها وهي تقودهم إلى الخراب والبلاء ، وغيرهم من صفوف الاغنياء والمحتكرين وهم جيش ممّون (١) وزد على ذلك الرعاع من العامة الجاهلين المتمردين المضطربين الذين ما كانت حدة ثورتهم لتهدأ لولا خرافات كهانهم ، وسيطرتهم على أرواحهم بالاوهام والشعوذات ، وسيوف الجنود الرومانيين المصلتة فوق رؤوسهم لاجل ذلك جميعه لم تكن أرض أورشليم صالحة في ذلك العهد لبذار يسوع .

ولما كان يسوع ابن المزارع — الممتلىء صحة ومحبة للوحدة — فقد تاقت روحه إلى العودة إلى الولاية التي نشأ فيها . وقد شاء ان يقرب البشارة المفرحة التي كان يحملها للعالم لاولئك المواطنين الذين

(١) ممون كلمة سريانية مستعملة في انجيل متى كما هي مستعملة هنا لتمثل الغنى ومحبة العالم . وليس لدى علماء الميثولوجيا من دليل على وجود اله أو صنم بهذا الاسم كان يعبده أبناء العالم القديم .

كانوا أول من قبله ، شاء ان يقربها أولاً للفقراء والمتضعين لان البشارة انما ارسلت اليهم خصيصاً ، ولطالما كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر ولان حلاوتها أشد في قلوبهم من سائر البشر . وفوق ذلك فان يسوع انما جاء إلى العالم لاجل الفقراء ولذلك ترك أورشليم وجاء إلى الجليل فدخل إلى المجمع وبدأ يعلّم .

ملكوت الله

كانت كلمات يسوع الاولى قليلة ، بسيطة ، كثيرة الشبه بكلمات يوحنا ، وقد جاء إلى الجليل يكرز بملكوت الله قائلاً « قد حان الزمان ، واقترب ملكوت الله ، فتوبوا وآمنوا بالانجيل . كلمات عارية وربما كانت باختصارها بعيدة عن افهام ابناء العصور الحديثة لهدوئها ورزانتها . لاننا إذا أردنا ان نفهمها ورغبنا في ان نميز بين رسالة يسوع ورسالة يوحنا وجب علينا ان ننقل هذه الكلمات الوجيزة الى لغتنا الحديثة ونعيد اليها ثانية معناها الحي الخالد .

« قد حان الزمان » : الزمان الذي طالما ترقبه الناس وتنبأ عنه الانبياء والمرسلون ، وقد قال يوحنا ان ملكاً عظيماً سيأتي و يؤسس مملكة جديدة هي ملكوت السماوات . وها قد جاء ذلك الملك العظيم مبشراً بان أبواب الملكوت مفتوحة للجميع ، جاء الملك

لكي يكون مرشداً ، وطريقاً ، ويداً قبل ان يصير ملكاً في مجده السموي .

إذ يقول يسوع ، « قد حان الزمان » لا يشير الى التاريخ البشري الدقيق بانه جاء في السنة الخامسة عشر لملك طيبيريوس . ان زمان يسوع هو اليوم وغداً والى الابد ، هو الابدية كلها هو زمن ظهوره وزمن موته هو الابدية كلها هو زمن عودته وزمن انتصاره ، الكامل الذي لم يأت بعد فان الفرصة سانحة في كل دقيقة وفي كل ثانية ، اذا كان الفعلة حاضرين ومستعدين للعمل . فان كل الايام ملك للرب يسوع ، والارقام احقر من ان تحدّد عهده لأن الخلود لا يمكن ان يحدّد بالحدود . وكلما جرب الانسان ان يدخل الملكوت فانما هو يثبت الملكوت بايمانه ، ويغنيه بمحبته ، ويؤيد قداسته ، ويدافع عن طهارته ، ، معلناً شرف اسمه للجميع ، ومظهراً حقه في مقاومة جميع ممالك الارض الدنيا (الدنيا لانها بشرية ارضية لا الهية سماوية) ولذلك فالزمان حاضر في كل لحظة للبشارة والعمل . وقد سمّي هذا الزمان بعهد يسوع ، او التاريخ المسيحي ، او العهد الجديد .

أجل ان الفي سنة تقريباً تفصلنا عن هذا العهد ، وهي بالحقيقة لا تزيد عن يومين . لان الف سنة في عين الرب وعيون ابنائه العارفين كيوم امس الذي عبر .

« قد حان الزمان » وها نحن اليوم في ملء هذا الزمان الخالد الذي لا يعرف النهاية لان يسوع لا يزال معنا ينادينا قائلاً ، « قد حان الزمان » زمن اليقظة والحياة . قد مضى اليوم الاول ولكن اليوم الثاني لم ينقض بعد . لان الملكوت لا يزال في عهد التأسيس الى اليوم . وانني أستطيع ان أقول اننا نحن العائشين اليوم ، بل في هذا العام ، بل في هذا القرن (ولن نعيش الى الابد ، وربما لا نرى أواخر السنة التي نحن فيها ، بل اننا ولا شك لن نشاهد نهاية القرن الحاضر) نحن الاحياء في هذا الزمان نقدر ان نشترك في تأسيس هذا الملكوت ، فندخل اليه ، ونعيش فيه متمتعين بما فيه من السعادة والحياة . فان الملكوت ليس وهماً من أوهام رجل يهودي فقير — وهماً قد اكل الدهر عليه وشرب مدة عشرين قرناً ، كلا ، ولا هو بالخرافة القديمة أو الاسطورة المنسية ، أو تذكارات متبول مجنون من مجانين العصور الخالية كلا ! بل هو هو اليوم وغداً والى الابد ، هو حقيقة ظاهرة للمستقبل ، جديدة في أذهاننا أبداً ، حية فعالة محيية ، هو عمل قد شرع فيه منذ عهد قصير ولكل انسان ملء الحرية ان يشترك في عمله ويجني منه ثمار الحق والحياة . هو ملكوت جديد ، فتيّ ، قد ولد في الامس لكي ينمو ويزهر ويأتي بالثمار الخالدة ، غير ان الحجارة التي يتركب منها تبدو قديمة العهد ، والرسالة التي يتضمنها قد اظلمت قليلاً على ممر العصور . القى يسوع بذار هذا

الملكوت العلوي في الارض وقد نبت هذا البذار بالجهد بعد الفي سنة مرت كشتاء ممتلىء من العواصف في اثناء الستين جيلاً التي تقضت على البشرية ولكن هل نحن اليوم ، بعد ان جزنا طوفان الدم ، هل نحن في العهد الالهي الذي طالما تاق اليه البشر وترقبوا حلوله ؟

أجل ، اننا سنتعلم من كلمات يسوع التي سنقرأها في صحائف هذا الكتاب شيئاً فشيئاً عن ماهية هذا الملكوت ، غير انه من الجدير بنا ان لا يخيل الينا انه فردوس ملذات ومسرات ، أو سلسلة غبطة لا أول لها يعرف ولا اخر يوصف ، أو جوق عظيم من المنشدين الذين يرتلون اوصنا وهم يمشون على الغيوم وينـاطحون برؤوسهم عاليات السحاب .

على أن يسوع قد وصف ملكوت الله بانه ضد ملكوت الشيطان ، ونقيض ملكوت الارض . أما ملكوت الشيطان فهو ملكوت الشرّ ، والخداع ، والمكر والبغض والكبرياء ، وبكلمة وجيزة هو ملكوت الخساسة والدناءة . ولذلك فان ملكوت الله إنما هو ملكوت الخير ، والاخلاص ، والامانة ، والمحبة ، والتواضع وبالاختصار فهو ملكوت السمو والرفعة .

وأما ملكوت الارض فهو ملكوت المادة والجسد ، ملكوت الذهب ، والبغض ، والبخل ، والشهوات ، ملكوت جميع القبائح

والرذائل التي يحبها الاشرار والمجانين . ولذلك فان ملكوت الله هو ملكوت الروح والنفس ، ملكوت الامانة والمحبة ، والاريحية ، والعفة ، ملكوت جميع الكمالات والفضائل التي يتخلق بها رجال الله الذين يدركون نقص كل شيء بازائها . فالله هو الآب الواحد مصدر الصلاح ، والسماء — ماهو أعلى من الارض ، أعني الروح ، والسماء مقرّ الله . والروح ارض الصلاح .وكل من يدبّ على الارض ، وينقب في الارض لكي يتلذذ بمادة الارض — انما هو وحش قذر ، وجميع الذين يعيشون بعيون مرتفعة نحو السماء ، وهم يتوقعون النقلة الى السماء لكي يعيشوا هنالك الى الابد — فاولئك هم الانقياء الطاهرون . وقد عرف يسوع أن أكثر الناس حيوانات قذرة ولذلك رغب من صميم قلبه أن يحوّل هذه الحيوانات الى ابرار وقديسين . هذا هو معنى ملكوت الله ، الملكوت البسيط الحي الى الابد — ملكوت السماوات .

أن ملكوت الله للناس. لأن : «ملكوت السماوات في داخلنا» كما قال يسوع . فهو عملنا وهو سعادتنا في هذه الحياة وعلى هذه الارض . ان ذلك متوقف على ارادتنا وجوابنا سلبا أو ايجابا . كونوا كاملين ينبسط ملكوت السماوات ما بين الناس .

وقد زاد يسوع على ذلك قوله « توبوا » ولكن هذه الكلمة قد تحرفت لسوء الحظ و بعدت بها ترجماتها عن معناها الاصلي الحقيقي

الجميل . فهي كما أوردها مرقس باليونانية METANOITE يجب أن لا تعرّب بكلمة « توبوا » لان كلمة METANIA اليونانية انما تفيد تغيير الفكر أو تجديد النفس . لأنه كما أن كلمة METAMORPHOSIS تعني تغيير الشكل كذلك كلمة METANIA تعني تغيير الروح . وكان الاولى أن تترجم بكلمة تبديل أو تجدّد أي تجدد حياة الانسان الداخلية . وأما كلمة «التوبة» فليست سوى ايضاح تفسير لامر يسوع .

وقد كان هذا التجدد الروحي في مقدمة الشروط الاولية الجوهرية التي فرضها يسوع للانخراط في جندية الملكوت السماوي . فقد أمر بالتبديل الروحاني وتغيير الاحكام والعواطف والنيات والافكار تغييراً كاملا وسمّى ذلك كله عندما كان يخاطب نيقوديموس « الولادة الثانية » ثم عمد إلى ايضاح طريقة هذا التجدد في النفوس البشرية شيئاً فشيئاً . وقد وقف حياته كلها على تعليم هذه الحقيقة للناس وجعل نفسه مثالاً يهتدى به في هذا التجدّد . وفي الوقت ذاته ختم يسوع عبارته البسيطة بهذه النتيجة السعيدة قائلا « وآمنوا بالانجيل » .

ان أبناء هذا الزمان يفهمون من الكلمة « انجيل » الكتاب الذي سطر فيه الانجيليون الاربعة ما عرفوه وشاهدوه من حياة يسوع . ولكن يسوع لم يكتب قط في حياته كتاباً ولا فكر مرة في الكتب

والمجلدات ، وانما عني بكلمة « انجيل » ما تعنيه هذه الكلمة اليونانية من المعنى الجميل والحلو، الا وهو « البشارة بالفرح » وقدكان يسوع نفسه مرسلاً (وباليونانية ملاكاً) يحمل البشائر الصالحة ، فانه جاء بالبشارة المفرحة المعلنة أن المرضى سيتعافون ، والعميان سيبصرون ، والفقراء سيثرون وستكون ثروتهم خالدة والحزانى سيفرحون ، والخطأة والاشرار سيسامحون ، والبرص سيطهرون ، والناقصون سيكملون ، والحيوانيون يمكن أن يصيروا قديسين والقديسين ملائكة شبيهة بالله .

فاذا كانت هذه المملكة على أهبة الظهور ، وإذا كان على كل انسان ان يهيء ذاته لمجيئها ، فلهذا يجب علينا أن نؤمن بالرسالة التي جاءت بها ، ونصدق أن المملكة حقيقية قريبة منا . لانه اذا لم يكن للناس ايمان بهذا الموعد فانه لا أحد يعمل ما يجب عليه لكمال الموعد . وليس في العالم من قوة تستطيع ان توقظهم الناس للنهوض الى العمل في أساس هذا الملكوت الخالد مثل الحقيقة التي حملتها هذه البشارة المفرحة والاعتقاد بأنها ليست كذبة مغامر أو وهم متحمس مشعوذ ، والوثوق بان السذاجة والاخلاص والامانة ظاهرة في كل سطر من سطورها .

بهذه الكلمات القليلة الغامضة على أكثر الناس حصر يسوع مبادىء تعليمه « فكمال الزمان » يعني انه يجب أن نشرع في العمل

للحال ! « واقتراب الملكوت » يشير الى انتصار الروح على المادة ، والخير على الشرّ والقديس على البهيمة . و « التجدد الروحي » يعني تبديل طبائع النفس تبديلاً كاملاً و « الانجيل » يعني البشارة المفرحة المؤكدة بان كل هذه الامور صادقة اليوم وغداً والى الابد .

كفر ناحوم

هناك على درجات بيوت الجليلين القذرة كان يسوع يعلّم مواطنيه الجليليين . هنالك في ظلال الاشجار عند مداخل مدنهم أو على شاطىء البحيرة كان يعظهم وهو متكىء على سفينة رست على الشاطىء ورجلاه على الحجارة الملساء ، والشمس قد مالت الى المغيب فتحوّل شعاعها الى احمرار وهي تدعو الناس الى الراحة من عناء النهار .

وكانت الجموع تتبعه كما روى لوقا ، لكي يسمعوا كلامه ، لانه كان يعلمهم « كمن له سلطان » ومع ان كلماته لم تكن كلها جديدة ولكن شخصه كان جديداً ، وحرارة صوته كانت جديدة ، والصلاح يتدفق من بين شفتيه خارجاً من معين قلبه النقي ومنسكباً في قلوب جميع الذين كانوا يسمعونه . وكانت رنة كلماته جديدة ، وكانت

الروح التي تمليها على ذلك الفم المشرق بنور لحاظه جديدة فعّالة .

فما هو الان ذلك النبي البعيد المنفرد في الاماكن السحيقة البعيدة عن البشر المنفردة عن العالم فيضطر الناس الى ترك اعمالهم اذا شاءوا أن يأتوا ويسمعوا أقواله — بل هذا هو نبي يعيش بين الناس كما يعيشون ، وكان صديقاً لاعدائه يحبهم كما يحب اصدقاءه ، رفيقاً بكل انسان ، متواضعاً مع جميع من يودون أن يرافقوه ، يفتش عن اخوانه المحتاجين اليه في مصانعهم واعمالهم ، وفي الشوارع المزدحمة فيأكل من الخبز الذي يأكلون ، ويشرب الخمرة التي يشربون ويمدّ يده لمساعدة الصيادين الفقراء في سحب شباكهم الى الشاطىء ، ويعزي كل انسان باقواله ومثاله ومواعظه الالهية ، فيمسح دموع المحزونين ويبرىء اسقام المرضى والمضنين ، ويشبع حاجات الفقراء والجائعين .

ان بسطاء القلب ، كالحيوانات والاولاد يفهمون ويدركون بغرائزهم الرجل الذي يحبهم ، فيؤمنون بما يقوله أو يعلمه ويشعرون بسعادة فائقة عندما يزورهم (فتشرق وجوههم فرحا ومحبة) وتكتنفهم الكآبة عندما يفارقهم . وكثيراً ما يتعذر عليهم ان يفارقوه فيرافقوه حتى الموت .

وقد قضى يسوع حياته بين أولئك الساذجين من أصدقائه متنقلاً من مكان إلى مكان أو جالساً في وسطهم واعظاً ومبشراً .

وكان شاطىء البحيرة الزاهي بنور الشمس عزيزاً على قلبه ، ذلك الشاطىء الممتد حول المياه العذبة الهادئة ، التي قلما تؤثر في سكينتها رياح الصحراء ، والشباك منتشرة فيه هنا وهناك ، تذهب بها الامواج حيث ذهبت فتزيد في جلال المنظر وجماله وقد اتخذ يسوع الجانب الغربي من الشاطىء كمملكته الحقيقية ، فهنالك وجد أول من أصغى إلى تعاليمه ، وهناك وجد تابعيه من تلاميذه ومريديه .

ولم يكن يذهب إلى الناصرة الا فيما ندر لقضاء بضعة أيام بين أهله وأقربائه لانه كان عازماً على الذهاب اليها فيما بعد مع تلاميذه الأثني عشر بعد ان تسبقه اليها شهرته وعجائبه ، لكي يعامله مواطنوه فيها كما عاملت أثينا وفلورنسا — وهما مدينتا العالم القديم اللتان اشتهرتا باللطف والظرف — ابناءهما الذين رفعوا اسميهما وشرفوهما فوق سائر مدن الارض . هنالك في تلك المدينة — الناصرة — نرى يسوع محتقراً مهاناً من مواطنيه الذين بعد ان رأوه رضيعاً بين رضعانهم وصبياً يلعب في شوارعهم لم يستطيعوا ان يصدقوا انه نبي عظيم — بل جربوا ان يرموا به من عن قنة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه .

ولم يكن يسوع يقيم وقتاً طويلاً في مدينة واحدة بل كان سائحاً يتجول من مدينة إلى أخرى فاذا حياته رحلة لا نهاية لها . واذا هو هو — قبل ذلك الذي حكم عليه بالموت فكان الحكم

عليه للخلود — ذلك اليهودي التائه الحقيقي . قد ولد في مغارة ، في سفر — حتى انه لم يولد في فندق لان ليس في بيت لحم موضع لامه الحامل .

وتاه في الصحراء المحرقة وهو بعد محمول على الساعدين في الرحلة إلى مصر ومن مصر عاد إلى مياه الجليل وحقوله الخضراء . وطالما ذهب مع والديه من الناصرة إلى أورشليم في عيد الفصح . و بعدذلك دعاه صوت يوحنا إلى شواطىء الاردن ، ثم قاده صوت داخلي إلى البرية والجبال ، و بعد أر بعين يوماً قضاها جائعا مجرّباً من الشيطان بدأ حياته الجديدة المضطربة ، فشرع يطوف من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية ، ومن جبل إلى جبل في سائر انحاء فلسطين . وكثيراً ما نراه في الجليل : في كفر ناحوم وكورزين وقانا ومجدلة وطبرية ، وقد اجتاز الى السامرة وجلس مختاراً ، على بئر سوخار . وكان يتردد من حين الى حين على رباعية فيليبس الى بيت صيدا وغداره [1] أو ببرية هيرودس انتيباس . وفي اليهودية كان يشوقه النزول كثيراً الى بيت عنيا قرب أورشليم أو أريحا ، حتى انه ليجرؤ

---

(١) غدارة احدى مدن سوريا القديمة ، كانت في المقاطعة المسماة في الانجيل بالعشر المدن ، على بعد نحو ستة أميال من الجنوب الشرقي من بحر الجليل . وقد لعبت دوراً هاماً في الحروب ضد انطيوخوس «الاسكندر» وفاسباسيانوس ولم تتهدم وتنقرض الا بعد الاحتلال الاسلامي .

ان يتخطى حدود المملكة القديمة وينزل على الامم فوطىء فينيقية ودخل صور وصيداء وتجلّى على جبل حرمون في سورية و بعد قيامته جاء الى عمواص ثم ظهر على شواطىء بحيرته طبرية التي كان يحبها، وأخيراً ظهر في بيت عنيا قرب بيت لعازر عندما فارق أحباؤه الفراق الاخير وصعد إلى السماء .

أجل ، كان يسوع مسافراً لا راحة له ، وهائماً على وجهه لا يملك بيتاً يأوي اليه ، وعابر طريق في سبيل المحبة ، ومنفياً بارادته في ارض أبائه وأجداده ، وقد قال بفمه الطاهر انه لم يكن له حجر يسند اليه رأسه . وبالحقيقة انه لم يكن يملك فراشاً ينام عليه في ليله ولا غرفة يستطيع ان يقول انها ملكه . فكانت الطريق بيته الذي آواه مع أصدقائه الاولين الذين اختارهم من العالم لكي يهيم معهم ناشدين لهم أصدقاء ومعارف آخرين على وجه الارض . واما فراشه فكان ثلم الحقل . أو مقعد السفينة . أو ظل شجرة من أشجار الزيتون . وكان ينام في بعض الاحيان في بيت من بيوت أصدقائه ومعارفه ولكن هذا لم يكن الا لمدة قصيرة .

في بدء كرازته كان كثير التردد الى كفر ناحوم . هذه المدينة قد سماها متى الانجيلي « مدينته » فهي مبدأ أسفاره ومنتهاها ولقد أصبحت « كفر ناحوم » في لغاتنا مرادفة للبلبلة والاختلاط فهي قائمة على طريق القوافل التي كانت تأتي من دمشق فتجتاز ايتوريا

في طريقها الى البحر . ولذلك تعاظم مركزها التجاري شيئاً فشيئاً حتى صارت تحسب مركزاً عظيماً من مراكز التجارة في الشرق . ولذلك كان يأتي اليها أصحاب الحرف على اختلافها ، والمقاولون ، والسماسرة ، والدلالون ، وأصحاب الحوانيت ، والتجار على اختلاف طبقاتهم وتنوع أشغالهم . وكان يجتمع فيها أرباب الاموال — كما يجتمع الذباب حول البرك الراكدة — والصيارفة ، والجباة ، وغيرهم من عباد الثروة وهكذا تحولت تلك المزرعة الحقيرة من قرية يعيش فيها بعض الصيادين الفقراء الى مدينة تمثلت فيها الهيئة الاجتماعية بكل مظاهرها ، من الجنود الى الزناة والفاسقين . غير ان كفر ناحوم الجميلة المتكئة على شاطىء البحيرة الهادئة ، ينعشها هواء التلال القائمة بجانبها ، وتعطر انفاسها نسيمات عليلة تبعث بها الامواج القريبة منها ، لم تكن كلها نتنة الروائح كأورشليم وكمدائن سوريا ، كان يمكن استنشاق هوائها : فقد بقي فيها فقراء وصلاّح سذج طيبو السرائر وفلاحون يبكّرون الى حقولهم وصيادون يقلعون بسفائنهم .

اما يسوع فكان يذهب الى المجامع في يوم السبت ، وكان لكل انسان ملء الحق في الدخول الى المجمع لكي يقرأ أو يفسّر ما يقرأه سواه من الداخلين . وكان المجمع عبارة عن قاعة بسيطة يجتمع فيها المؤمنون ليباحث بعضهم بعضاً ويحلموا بالله .

وقف يسوع وطلب درجا من الكتاب — وآثر الانبياء على سائر الاسفار — وقرأ بعض السور بصوته الهادي . ثم أخذ يتكلم بفصاحة نادرة و بلاغة فائقة حيرت الفريسيين ، وانعشت قلوب المكتئبين وحركت شواعر الخطأة والمجرمين ، واستمالت اليه عواطف الفقراء والمساكين ، وسحرت قلوب النساء مع جميع السامعين .

حلّل النبوّة القديمه فجأة حتى صارت حقيقة واضحة امام الجميع كأنما قد كتبت عن عهدهم ، فظهرت للحضور كأنها حقيقة جديدة أو اكتشاف حديث لم يهتدوا اليه من قبل ، أو خطاب لم يسمعوا مثله قط في حياتهم ، والكلمات التي سطرت في العهد القديم وفقدت روحها على كرور الايام خرجت من فمه حيّة قوية ذات تأثير فعال وكأنما قد أشرقت عليها شمس جديدة فأنارت ظلماتها حرفا حرفا وجملة جملة ، وجعلتها كلمات جديدة قد كتبت في تلك اللحظة فبرزت تشعّ امام عيونهم كأنها وحي لم يكونوا في انتظار ظهوره .

الفقراء

لم يكن في كفرناحوم رجل أو امرأة سمع في ما مضى من حياته وعظاً مثل وعظ يسوع من أي شيخ أو معلم قبله . فان المجامع كانت تغص بالسامعين عندما كان يعظ يسوع ، لان الجموع الذين

كانوا يذهبون من قبل الى البرية لسماع يوحنا صاروا يتقاطرون من كل حدب وصوب الى كفر ناحوم لكي يسمعوا المعلم الجديد .

كان البستاني، في يوم السبت ، يترك معوله ولا يستقي من بئره ماء ليروي مزروعاته النضرة ، والحداد الصالح ، العائش عمره بين الدخان والاقذار كان يغتسل ويرتدي الملابس النظيفة ، وعلائم الاسوداد لا تزال آثارها على وجهه ويديه بالرغم من انه غسلهما بمياه كثيرة ، فيسرح شعره ويدهن لحيته بالعطور البخثة الأثمان — لكنها طيبة الرائحة كعطور الاغنياء — هذا الحداد الذي كان في كل يوم ما خلا السبت يقف امام النار والعرق يتصبب من جبهته ، والاقذار تملأ جسده كان في مقدمة القادمين لكي يسمع الكلام عن اله آبائه .

أجل أنه يذهب الى المجمع بداعي العبادة . لكنه أيضاً لكي يرى اقرباءه واصدقاءه وجيرانه فالهيكل هو المجمع الاوحد في كفرناحوم وايام الاعياد هذه تطول عليه وليس في يده مطرقة وملقط .

وكان البنّاء يأتي مع الحداد أيضاً — البنّاء الذي اشترك في بناء ذلك المعبد الحقير الصغير الذي لم يشأ الشيوخ الاتقياء المتظاهرون بمخافة الله أن يجعلوه أكبر مما هو قليلاً لشدة بخلهم وطمعهم . كان ذلك البناء يأتي الى الهيكل ولا يزال يشعر بتخدّر وكلال في ذراعيه من عمل الايام الستة الشاق ، بيد أنه لم يكن يتذكر كم ملعقة من

الطين وضع بين الحجارة التي بناها في ذلك الاسبوع ، يأتي ذلك البنَّاء بعد أن يلبس ملابسه الجميلة فيدخل المجمع ويجلس ، وهو الرجل الذي يقضي حياته منتصباً وهو يعمل بتيقظ وفطنة لكي يكون البناء الذي يبنيه متيناً مستقيماً جميلا ، مراقبا المشتغلين معه بعين ساهرة ليكونوا محافظين على واجباتهم وكان يأتي ذلك البناء الصدوق الى الهيكل ويجلس على مقعده كأنما هو في بيته الخاص .

وكان الصيادون يأتون أيضاً كباراً وصغاراً ووجوههم قد لوحتها حرارة الشمس وعيونهم تكاد تكون مغمضة من انعكاس أشعة الشمس عليها من البحر . والشيخ اجمل من الشاب بتناسب شعره الابيض ولحيته البيضاء مع وجهه المتجعد المشرق بنور الصحة والعافية ، كان أولئك الصيادون يتركون سفنهم على الرمال بعد ربطها الى الاوتاد ، وينشرون شباكهم على السطوح ويأتون الى المجمع بالرغم من أنهم لم يتعودوا الحياة السجينة ضمن الجدران في حياتهم الحرة الطليقة ، حينما تطربهم الامواج بهديرها ، وتبهجهم بمناطحتها جباه سفنهم .

وكان الفلاحون يأتون من الحقول المجاورة لاستماع الكلمة التي كان يرنّ بها صوت يسوع في المجمع : فكانوا يعودون من حقولهم الخصيبة وملاك السعادة يرفرف فوق رؤوسهم لكي يؤدوا الشكر لله ، الذي ينمي زرعهم ويبارك كرومهم وحصادهم ببركته السماوية . وكان

كثيرون من الرعاة يهبطون من جبالهم عند الصباح بعد أن يعيشوا في سكينة مراعيهم اسبوعاً كاملا من غير أن يشاهدوا وجه انسان، او ينبسوا ببنت شفة ، وهم وحيدون منفردون مع قطعانهم التي تقضم ألاعشاب الطريَّة بسكينة وسلام .

وكان أصحاب الاملاك الاغنياء والفقراء يأتون أيضاً مع الصناع وأرباب الحرف وأعيان كفر ناحوم المتنفذين ، ويجلسون في المقاعد الاولى برزانة ورصانة وعيونهم متجهة الى الارض وهم راضون عن سير أعمالهم وتوفيق أشغالهم،وضمائرهم مطمئنة مستريحة لانهم يحافظون على الشريعة من غير أهمال أو نقصان ، وقلوبهم ترقص طربا لانهم لم يتنجسوا بخطيئة العصيان . وكان الناظر الى صفوفهم من مؤخر المجمع لا يرى الا ظهوراً منحنية قد ارتدت بأفخر الملابس وأثمنها ، ظهور الاسياد وأرباب الوظائف والصنائع والجميع على وفاق مع العالم ومع الله ، ظهوراً ممتلئة من القوة والنفوذ والتقوى .

واذا أيضا غرباء مقبلون الى طبرية أو ذاهبون الى سورية ، قد تنازلوا ودخلوا ، وربما للبحث عن عميل ، وهم يتلفتون حولهم بهذه الكبرياء الحمقاء التي تولدها الفضة في النفوس الجائعة الخانعة .

وفي مؤخر الغرفة (لان المجمع كان في ذلك العهد غرفة طويلة مبيضة من الداخل ، أكبر قليلاً من مدرسة الاولاد في القرى

الصغيرة ، أو من مطبخ) يقرفص الفقراء قرب الباب كالكلاب التي تنتظر أن تطرد خارجاً — فقراء البلدة وأفقرهم الذين يتعيشون من الاشغال الصغيرة ، ومن الصدقة التي ترمى اليهم أو — وآسفاً من السرقات الصغيرة ، والبائسون ، واللابسون الجلابيب الرثة الوسخة يُزدَرون ويُطرَدون ، والايتام الذين لم يتعلموا بعد كيف يحصلون قوتهم . والارامل العجائز اللواتي تركهن أولادهن والشيوخ المحدودبو الظهور الذين يجهلهم الناس . والمرضى والضعفاء والمُقعَدون والمخبولون والسقماء والمهجورون والجياع الذين يأكلون اليوم ويصومون غداً وهم لا يشبعون أبداً والذين يتلقطون الفتات والفضلات ورؤوس السمكات وقشور الأثمار والذين ينامون هنا وهناك يتألمون من برد الشتاء ويتشوقون الصيف : فردوس الفقراء لان الأثمار تتدلّى على جوانب الطريق . هم أيضاً هؤلاء الفقراء المتسولون ، والقرعان يذهبون الى المجمع يوم السبت ليسمعوا قراءة التوراة ولا يستطيع احدٌ ان يطردهم خارجاً فان لهم حقّ الاخرين فهم ابناء الآب الواحد ويخدمون الرب الواحد .

في ذلك اليوم يشعرون ببعض التعزية لان الكلمات ذاتها التي يسمعها الاغنياء والاصحاء تدخل اذانهم ويتناولون هنا الطعام الذي يتناوله غيرهم . فما هم الآن على أبواب المنازل عندما يأكل السيد فاخر الطعام فيكتفون بالفضلات . الطعام هو واحد هنا لمن له كل

شيء ولمن ليس له شيء . كلمات موسى هي واحدة ، ابدا ، لصاحب القطيع الكبير السمين ولمن ليس له بضعة من حمل لعيد الفصح . لكن كلام الانبياء خير للصغار واقسى على الكبار ان فقراء الشعب كانوا ينتظرون . كل سبت ، من يقرأ عليهم فصلا من أشعيا أو عاموص ، لان الانبياء ينتصرون للعراة وينذرون بالعقاب ويبشرون بالعالم الجديد .

واذا في هذ السبت قد جاء رجل خصيصاً لاجلهم ، وكان يتكلم لاجلهم ، وقد هجر البرية لكي يعلن البشائر المفرحة للفقراء والمرضى . ولم يتكلم أحد قط من قبله عن الفقراء كما تكلم هو . ولم ينظروا قلباً خافقاً بمحبتهم مثل قلبه ، فقد كان يحبهم كالانبياء القدماء ويحتقر الاغنياء وثروتهم مجدداً الآمال في قلوبهم ومالئاً نفوسهم تعزية .

و بعد ان فرغ يسوع من عظته في يوم السبت لاحظوا ان الشيوخ ، والكتبة ، والاسياد ، والمتنفذين ، والفريسيين ، وغيرهم من الذين يقرأون ويكتبون ويحشدون الاموال في خزائنهم — نهضوا يتغامزون وكل واحد منهم يهز رأسه مشمئزاً وينهض عن مقعده مغضباً يحرّك رأسه وهو يتميز غيظاً ثم يخرج ناقماً ساخطاً والغضب يحرّك شعر لحيته الطويلة السوداء كقلبه لكن لم يضحك منهم واحد .

اما التجار فكانوا يلحقون بالذوات والاعيان وهم يفكرون

باشغال اليوم المقبل ، ولم يبق وراءهم الا العمال ، والفقراء ، والرعاة ، والفلاحون والبستانيون ، والحدادون ، والصيادون ، وسائر طبقات المتسولين والايتام الذين لا ارث لهم ، والشيوخ المرضى ، والمطرودون الذين لا مأوى لهم ، والتاعسون الذين لا صديق لهم يعزيهم في تعسهم ، والمفلسون ، والمضنيون ، والمقعدون والمخلّعون . فانهم لم يستطيعوا ان يحولوا عيونهم عن وجه يسوع . ولقد ودوا لو ان يسوع كلمهم بعد فيعلن لهم عن الزمان الذي تجيء فيه ساعتهم في حلول الملكوت الجديد حيث سيكافأون عما يلاقونه في هذا العالم من الشقاء ، وينظرون بعيونهم يوم القسط والحساب . وكانت كلمات يسوع بلسماً شافياً لجراحات قلوبهم الدامية فتحركت بحرارة جديدة ومحبة فائقة وطارت نفوسهم فرحاً عندما سمعوا من فم يسوع عن المجد المعدّ لهم في الملكوت المقبل ، وعما ينتظرهم من النجاح والافراح والولائم والغنائم والطمأنينة والاثراء الخالد . ولذلك كانوا يشككون في فهمهم لما عناه المعلم بهذه الكلمات ، اما كانت تلك المملكة التي يحلمون بها تشبه ولو بعض الشبه بلاد قوقانيا (١) التي يتوهمها الفلسطيني .

لكن لم يحبه أحد في العالم ولن يحبه أحد كما أحبه فقراء الجليل الجياع الى الخبز والحق اما الفقراء الاقل عوزاً ، الذين كانوا يشتغلون

---

(١) بلاد قوقانيا هي بلاد وهمية يجد فيها الناس من غير عناء كل ما تشتاقه النفوس من الملذائذ والراحة والهناء .

فتقل حاجتهم الى الخبز فقد أحبوه أيضاً حباً باولئك الفقراء .

وعندما خرج يسوع من المجمع كان الجموع مصطفين من على جانبي الطريق لكي ينظروا إلى وجهه الجميل مرة ثانية ، وما عبر بهم حتى لحقوا به متهيبين كأنما هم في حلم جميل . واذا دخل بيت أحد الاصحاب ليأكل انتظروه امام البـاب ليطلع عليهم ثانية واذ ذاك يزدادون جرأة فيدنون منه وكلهم يسيرون معاً إلى شاطىء البحيرة وانضم اليه غيرهم و بعضهم — وهم أشجع قلباً تحت فضاء السماء — تجرأوا وسألوا يسوع . فيقف يسوع ويجيب هـذه الجموع العميـاء الجاهلة بكلمات لن تنسى أبداً .

الاربعة المدعوون أولا

بين صيادي كفرناحوم وجد يسوع تلاميذه الاولين . وقد كان يذهب إلى شاطىء البحيرة في كل يوم تقريباً . وكانت السفن تدخل وتخرج من الميناء على التناوب ، وقلوعها منتفخة من الهواء الداخل اليها ، والصيادون ينزلون من السفينة حفاة ويغطسون أرجلهم في الماء إلى ركبهم وهم يحملون شباكهم الراشحة ماءً وسلالهم المملوءة أسماكاً قد اختلط فيها الجيّد والرديء تتلألأ كالفضة المرطبة بالماء .

وكان أولئك الصيادون يخرجون إلى الصيد في الليالي المقمرة

عند طلوع البدر ولا يرجعون حتى الصباح قبل شروق الشمس . وكثيراً ما كان يسوع ينتظرهم على الساحل ويحييهم التحية الاولى عند بزوغ أنوار الفجر غير ان الصيد لم يكن موفقاً معهم في كل مرة فاذا رجعوا من صيدهم فارغي الايدي متعبين قانطين استقبلهم يسوع بكلمات عذبة فينعش أفئدتهم ، وكانوا يصغون إلى أقواله بكل لذة وحبور على رغم اتعابهم واسهارهم وخيبتهم .

وحدث في أحد الايام باكراً جداً ان سفينتين جاءتا الى كفر ناحوم وكان يسوع هنالك واقفاً على الشاطىء يعلم الجموع المزدحمة حواليه . فانحدر الصيادون من السفينة يصلحون شباكهم . حينئذ ركب يسوع احدى السفينتين وسأل ربانها ان يتباعد بالسفينة قليلاً عن البر حتى لا يزحمه الشعب ثم وقف على دفة السفينة وطفق يعلم الجموع الذين كانوا على الارض . وعندما فرغ من الكلام قال لسمعان « تقدم إلى العمق والقوا شباككم للصيد »

فاجابه سمعان بن يونا صاحب السفينة قائلاً : « يا معلم ، انا قد تعبنا الليل كله ولم نصب شيئاً . ولكن بكلمتك التي الشبكة »

وما ابعدوا عن الشاطىء قليلاً حتى هب سمعان وأخوه اندراوس والقيا شبكة كبيرة في الماء . وعندما سحباها من الماء وجداها ممتلئة من السمك حتى ان شباكهم كادت تتمزق . فاشار الاخوان إلى شركائهما الذين في السفينة الاخرى ان يأتوا ويعاونوهما

ثم رميا الشبكة أيضاً وسحباها ممتلئة من السمك ثانية . وحينئذ صاح سمعان واندراوس وشركاؤهما باعلى أصواتهم قائلين : « هذه بالحقيقة عجيبة نادرة ! » اما سمعان الشديد التأثر بطبيعته فانه خرّ عند ركبتي يسوع صارخاً : « اخرج عني يارب فانني رجل خاطئ ولا أستحق ان يكون معي في سفينتي قدوس » ولكن يسوع ابتسم وقال له « هلمّ ورائي وآمن بكلامي وأنا أجعلك صياداً للناس »

وعندما رجعوا إلى الشاطئ سحبوا السفينة إلى البر وترك الاخوان شباكهما وتبعا يسوع . وبعد هذا ببضعة أيام رأى يسوع أخوين آخرين : يعقوب ويوحنا ابني زبدي اللذين كانا شريكين لسمعان ودعاهما عندما كانا يصلحان شباكهما ، وهما أيضا ودّعا أباهما والرفاق وتركا شباكهما وتبعاه .

لم يبق يسوع وحيداً ، فان أربعة رجال وهما زوجا أشقاء — وقد صاروا اخوةً في الايمان — كانوا مستعدين ليتبعوه إلى حيث يشاء ويشاطروه الخبز ويعيدوا كلامه ويطيعوه كأبٍ أو أفضل من أبٍ .

أربعة صيادين فقراء ، أربعة رجال بسطاء من أبناء البحيرة لم يكونوا يعرفون القراءة بل يكادون لا يتكلمون ، أربعة رجال وضعاء ما كان أحد يميزهم عن سواهم قد دعاهم يسوع ليؤسسوا معه مملكة ينبغي أن تحتل الارض كلها دعاهم يسوع اليه وقد ترك أولئك الصيادون سفنهم التي رافقوها فيما مضى من حياتهم وكانت الرفيق

الامين لهم ، وطالما ربطوها وأطلقوها في سكينة الليالي ، وتركوا أيضاً شباكهم التي طالما أمسكوا بها الوف الالوف من السمك الذي كان المورد الوحيد لرزقهم ، وتركوا أهلهم ، وبيوتهم ، وعيالهم وكل ما كان لهم لكي يتبعوا هذا الرجل الذي لم يعدهم بمال أو عقار ولم يتكلم قط الا عن المحبة والفقر والكمال .

حتى ولو ان روحهم التي ظلت دائماً جافية غليظة أدنى كثيراً من روح المعلم ، حتى ولو انهم يشكون أحياناً ولم يفهموا أمثاله ، حتى ولو بعد ان تركوه وهربوا فان كل ذلك مغتفر لهم لاقبالهم بسلامة السريرة وصدق العزيمة واتباعهم يسوع لاول دعوة سمعوها .

ولكن ترى من منا اليوم نحن الاحياء يستطيع أن يقتدي بفقراء كفر ناحوم الاربعة ؟ فلو جاء نبي وقال للتاجر : «اترك مصرفك وحساباتك » وقال للاستاذ «انزل عن كرسيك واحرق سائر كتبك» وقال للوزير « اترك محافظك ومضابطك وكذباتك » وللرجل العامل « هيء معداتك فانني سأعطيك عملاً آخر » وللفلاح « قف في نصف ثلمك وارم بمحراثك بين التلاع لانني أعدك بحصاد أوفر » ولصاحب المعمل اغلق أبواب مصنعك واتبعني لان الروح أثمن من المعادن الميتة» وللغني «وزّع أموالك فاملكك كنوزاً لا تحصى» — لو جاء نبي وخاطبنا هكذا نحن العائشين في هذا اليوم فكم رجل منا يتبعه بتلك الطهارة والسرعة اللتين تبعه بهما صيادو طبرية ؟ ولكن

يسوع لم يقل كلمة قط للتجار الذين كانوا يحشدون الاموال في الاسواق والحوانيت ، ولا للمتعبدين الذين كانوا يحفظون الشريعة غيباً ويتلون على الناس كثيراً من فصولها وآياتها من غير أن ينظروا إلى الكتاب. ولم يخاطب الفلاحين الذين التصقت أرواحهم بارضهم وبهائمهم : كلا، ولا الاغنياء ولا الشبعانين الذين لا يهتمون بملكوت آخر وقد انتهى اليهم ملكوتهم منذ زمان بعيد .

على ان يسوع لم يختر تلاميذه الاولين من الصيادين صدفة من غير قصد ، لان الصياد الذي يقضي اكثر أيامه في سكينة المياه لهو الرجل الذي يعرف كيف يترقب الامور ويتخذ لها أهبتها . هو الرجل الصبور الذي لا يتسرع في أعماله بل يهيىء شبكته بهدوء ويلقي بها في المياه تاركاً التوفيق على الله فللمياه هواها وللبحيرة يومها، ولذلك فهو لا يعرف متى يعود بشباكه ممتلئة من السمك أو متى يعود فارغ اليدين وليس له ما يعدّه لعشائه وعشاء عائلته . ولذلك فهو يسلّم أمره ليد الله الذي يعطي أو يمنع ويعزي نفسه في الايام السوداء بما مرّ عليه من الايام البيضاء وبما يتوقع أن يراه في المستقبل من التوفيق . هو الرجل الذي لا ينتظر الاثراء العاجل بل يقنع إذا تمكن من صيد مقدار حقير من السمك يبادله بقليل من الخبز والخمر لقوام حياته وحياة عائلته . أجل ، هو النقي بروحه وبجسده . فانه يغسل جسده بالمياه وروحه بالوحدة والسكينة .

من مثل هؤلاء الصيادين الحقيرين الذين لو لم يدعهم يسوع اليه لكانوا قضوا في فقرهم من غير أن يعرف بهم أحد في العالم سوى جيرانهم وشركائهم ، من أولئك الصيادين الحقيرين قد أقام يسوع قديسين لا يزال العالم يذكرهم ويستغيث بهم إلى اليوم . فان الرجل العظيم يصنع في معمل عظمته الروحية رجالاً عظاماً مثله،فقد أوجد من الكسالى المثقلين بالنوم أنبياء ، ومن الضعفاء جنوداً أشداء أقوياء ، ومن الشعب الغبي الجاهل معلمين ومرشدين لان النار تشتعل دائماً مهما تتقلب أحوال الجو إذا اشعلتها يد . فعندما قام داود وجد في الحال حاجة لنفسه ، وعندما قام اغاممنون(١) وجدفرسانه وشارلمان(٢)

---

(١) في الخرافات اليونانية انه ابن اطريوس: ملك ميسينيا وارغوس وشقيق مانيلاوس، ورئيس جند الاغريق في حصار طروادة. وهو ايضا ابو اوريستيس وافيفينيا والاقطرا .

(٢) هو شارلمان العظيم : ملك الفرنجة وامبراطور الغرب ، ولد سنة ٧٤٢ في اكس لاشابل وهو ابن بابين القيصر وملك الفرنجة ، وهذا ابن شارل مارتل . وقد تتوج ملكا على الفرنجة سنة ٧٦٨ عند وفاة ابيه وكان يشاركه اخوه في الملك حتىسنة ٧٧١ اذ مات اخوه وتفرد بالملك وحده . واول حروبه كانت ضد السكسون الذين كانوا يقطنون بين الواسار والالب ، ولم يتم انتصاره التام عليهم وادخالهم في المسيحية حتى سنة ٨٠٣ وفيما كان يحارب السكسون استنصره البابا ادريان ضد ديسيداريوس ملك اللومبارديين فسار شارلمان للحال بجيشه الى ايطاليا فخلع ديسيداريوس وتوج ملكا على لومبارديا عوضا عنه . وكان السعد حليفه في حروبه . وفكرة استرجاع الامبراطورية الغربية تتردد في

أنصاره وأعوانه ، ونابوليون قواده وجنوده . واما يسوع فما دخل العالم حتى وجد بين رجال الجليل رسله .

لم يكن يسوع في حاجة إلى حرب فلم يطلب ان يكون تلاميذه رجال حرب أشداء يبطشون باعدائهم ويحتلون الممالك . غير انه كان على التلاميذ الذين اختارهم ان يجاهدوا ولكن جهاد الكمال ضد الفجور ، والقداسة ضد الخطيئة ، والصحة ضد المرض ، والروح ضد المادة ، والمستقبل السعيد ضد الماضي العقيم ويعاونوه في حمل رسالته

فكره حتى جاء رومية سنة ٨٠٠ لمساعدة البابا لاون الثالث في عيد الميلاد فتوجه البابا في قداس الميلاد واعلنه قيصرا واوغسطسا . وكان له ثلاثة ابناء شرعيين مات احدهم بابين ، الذي عينه ملكا على ايطاليا ، سنة ٨١٠ ومات بعده أخوه شارل الابن الاكبر لشارلمان ، ولم يبق له الا الابن الثالث لويس فعينه معاونا له في الملك . وفي ٢٨ كانون الثاني سنة ٨١٤ مات شارلمان بعد ان حكم سبعة واربعين عاما وقبر في اكس لاشابل المدينة التي كان يحبها ويتخذها مركزا الحكمه. وكان شارلمان صديقاً للعلوم والمعارف وهو يدعى بحق معلم شعبه الحكيم . وقد دعا اليه اكبر علماء زمانه وجعل قصره الخاص جامعة لعلماء أوربا وكان يباحثهم ويجالسهم كأنهم اخوته واصدقاؤه . وقد أنشأ المدارس العديدة في مدن المملكة. وادخل العلوم الى الاديرة . وكان يحب تعلم اللغات ويحسن غير واحدة منها . بنى منارة في بولونيه ، وبنى موانىء عديدة : وعزز الزراعة ودون شرائع مختلفة. وكانت مملكته تشمل فرنسا . وأكثر كاتالونيا ، ونافار واراغون ، وبلجيكا ، والمانيا حتى الالب ، وايطاليا العليا والوسطى وايستريا وقسما من سكلافونيا . وكان والداً صالحا وزوجا عطوفا وصديقا ودودا في حياته الخصوصية . وكان مقتصدا يميل الى البساطة في لباسه وعاداته .

المفرحة للحزانى ، ويطوفوا المواضع التي ما استطاع هو نفسه ، ان يزورها وينشروا كلمته وباسمه يواصلوا عمله بعد موته .

الجبل

ان العظة على الجبل هي أقوى الادلة على حق الناس في الحياة، على وجود المرء في العالم اللامتناهي . وهي تبريرنا الكافي . وهي الشهادة لنا بان لنا نفوساً . وهي العربون لنا باننا نستطيع ان نرتفع ونكون أرفع من البشر . وهي الوعد بهذه الامكانية العليا وبهذا الرجاء وبهذا الارتفاع .

أجل لو ان ملاكاً هبط علينا من الملأ الاعلى وسألنا ما هو أثمن وأفضل ما نملك وما البرهان على حقيقة وجودنا وما هي الثمرة الفضلى التي أنتجتها الروح — في أوج نبوغها ، فاننا لا نريه المصانع الميكانيكية ، ولا الآلات البخارية والزيتية الهائلة التي نفاخر بها عن جهل وحماقة —وقد جعلت حياتنا أشد استعباداً واكثر نصباً وتعباً— لانها مادة في خدمة المادة — بل انما نقدم له العظة على الجبل ، وبعد ذلك ، وبعد ذلك فقط ، نريه بضع مئات من صفحات مقتطفة من شعراء جميع الشعوب . ولكن العظة على الجبل هي أبداً الماسة

الفريدة المتألقة سناء ساطعاً والمشرقة نوراً صافياً ما بين خبث الزمرد والياقوت المتلوّن .

ولو دعي الناس إلى محكمة عليا غير بشرية وطلب منهم ان يؤدوا حساباً للقضاء عن كل ما ارتكبوه من الذنوب والنقائص التي تتكرر في كل يوم على ممرّ العصور ، والمذابح التي استمرت الوف السنين ، وكل ما سفكه أبناء العالم من الدماء وهم اخوة بعضهم لبعض ، وجميع ما اجرى أبناء الانسان من الدموع المنسكبة بالحزن ، وعن قساوة قلوبنا المتحجرة وعن غدرنا الذي لا مثيل له ، فاننا لا نقدم لهذه المحكمة حجج الفلاسفة وبراهينهم مهما سمت حكمتها وتناهت بلاغتها ودقتها ، ولا نريهم علومنا وفنوننا وهي نظم وعلاجات موقتة باطلة ، ولا شرائعنا القاصرة التي انما وجدت للتحكيم بين الهمجية والخوف بل كل ما نبسطه امام تلك المحكمة العليا للتعويض عما اقترفناه من الجرائم والشرور ، والتفكير عن تصلبنا في القعود عن وفاء ما علينا من الديون ، والدفاع عن تاريخنا الهائل في ستين جيلاً لقد غمست فيها حياتنا بالدماء ، كل ما تقدمه غفارة لنا عن جميع هذه الجرائم والمخالفات انما هو العظة على الجبل .

من مِنَ الناس قرأ هذه العظة ولو مرة واحدة ولم يشعر — على الاقل في تلك الساعة التي قرأها فيها — بقوة علوية تحرك قلبه للخير والمحبة ؟ أو من يقرأها ولا يشعر بآلام في حلقه وخفقان في قلبه

تجعله يختلج بعاطفة المحبة والتوبة والشوق إلى العمل الصالح — حتى ان هذه الكلمات التي قرأها لا تظل حبراً على ورق بل تصير حقيقة عاملة في حياته وعوضاً عن ان تكون هذه العظة عبارات وأصوات متقطعة تصبح آمالاً وحياة حالَّة في قلوب جميع الناس الاحياء ، وحقيقة خالدة مدى الدهور ؟ من قرأها مرة واحدة ولم يشعر بكل هذا فانما هو أحوج من كل أحد إلى محبتنا ، لان محبة جميع أبناء العالم لو تجمعت معاً لا تستطيع ان تعوض عليه ما خسره .

واما الجبل الذي قعد عليه يسوع عندما تلفظ بعظته الخالدة فلم يكن بعلوّ الجبل الذي أراه الشيطان من قنته ممالك الارض ولم يكن للناظر من قنته ان يرى سوى السهول المطمئنة تحت أشعة الشمس الشفيقة ، والبحيرة المستديرة الساكنة من الجانب الواحد ، وقنة الكرمل المتعالية من الجانب الثاني حيث ذبّح ايليا كهان البعل . ولكن من تلك التلة الحقيرة التي دعتها مبالغة المؤرخين بالجبل ، من تلك التلة الصخرية الصغيرة التي تكاد لا ترتفع عن سطح الارض الا قليلاً — أرى يسوع الملكوت الذى لا نهاية له ولا حدود . وكتب على لحم القلوب ، وليس على الحجر كما فعل يهوه — انشودة الرجل الجديد ، ترنيمة الظفر بالانتقال إلى ما وراء العالم البشري : « ما أجمل على الجبال اقدام المبشر بالفرح ، المبشر بالسلام : » فان اشعيا لم يكن قط نبياً كما كان لما انبثقت هذه الكلمات من نفسه .

طوبى للمساكين

جلس يسوع على تلّة صغيرة في وسط التلاميذ الاولين تحيط به مئات من العيون المراقبة عينيه بلهفة ومحبة ، فسأله بعض منهم قائلين ، « من هم الذين أعطي لهم ان يرثوا الملكوت السماوي الذي طالما حدثتنا عنه ؟ » فاجابهم يسوع بالتطويبات التسع الخالدة :

وكثيراً ما كان الناس ، الذين فقدوا رشدهم ، يرفضون التطويبات . بل ان أبناء اليوم قلّما يفهمونها ، فيبترون معانيها ، ويقللون من قيمتها ، ويحرّفونها بجهلهم وضلالهم . ومع ذلك فاننا نري فيها خلاصة تعاليم يسوع في أول يوم من حياته التبشيرية على الارض وما أعظم ذلك اليوم !

« طوبى للمساكين بالروح : فان لهم ملكوت السماوات » وقد أورد لوقا الانجيلي هذه الآية بدون كلمة « بالروح » ، فقاد ذلك الكثيرين من الناقدين ، وفي مقدمتهم بعض المحدثين الخبثاء ، إلى الزعم ان يسوع انما عنى بالمساكين — البلداء والخاملي الاذهان . لانهم لم يفهموا من هذه الكلمات الا أحدأمرين : الفقر أو البلاهة .

ولكن يسوع عندما تلفظ بهذه الكلمات لم يفكر قط لا في الفقر ولا في البلاهة انه لم يكن قط يحب الاغنياء ، وكان يكره من كل نفسه الجشع الى المال الذي انما هو أول عقبة تحول دون غنى

النفس ، وكان يحب الفقراء ويعزيهم ويتقرب منهم لانهم كانوا احوج من غيرهم الى التدفئة وكان يكلمهم لان فيهم أيضاً جوعاً الى كلام الحب الصادر من فيه ، لكنه لم يكن من الحق بحيث يحسب انه يكفي المرء ان يكون فقيراً فقرا ماديا ، عاليا ، اجتماعيا ، ليكون له حق في سعادة ملكوت الله .

ان يسوع لم يعجب قط في حياته بالعقل الذي انما هو فهم النظريات وترديد كلام . فاولئك علماء ما فوق الطبيعة وواضعو المذاهب ، والسفسطائيون والمتعمقون في درس الوجود والمنقبون في الكتب ما كانوا لينالوا حظوة في عينيه . بيدانه كان يحترم الذكاء والعقل الذي يدرك علائم المستقبل ومغازي الامثال والرسوم — الذكاء النبوي المستنير والقوة النابغة التوّاقة الى الحق وكان يعتقد بأن ذلك عطية صالحة من الله وكثيراً ما حزنت روحه لان تلاميذه والذين كانوا يصغون الى تعاليمه لم يكن لهم كثير من هذه العطية . وكان يعتقد بان العقل كل العقل انما هو في الاعتقاد بان العقل وحده غير كاف وأن تجديد النفس كلها ضروري للوصول الى السعادة — فان السعادة هي دائما قريبة المنال — غير أن العقل هو احدى الوسائل الى هذا التغيير الكلي ولذلك لم يكن له أن يدعو الى كمال ملكوت الله الاغبياء والخاملين وانما عنى « بالمساكين بالروح » أولئك الذين يدركون فقرهم الروحي تمام الادراك متمرمرين متألمين ، ويتحققون

اعوجاج مسالك نفوسهم ، وتتأكد لهم حقارة ما فينا جميعا من الخير والصلاح ، وينظرون بعيون اتضاعهم الى فاقتنا الادبية وفقرنا لكل ادب وكمال . فان الفقراء الذين يعرفون حق المعرفة انهم فقراء هم الفقراء الذين يتألمون لفقرهم ، ويبذلون جهودهم لكي يتخلصوا منه . وما ابعدهم في الحقيقة عن الاغنياء المدعين ، العميان ، المتعجرفين ، المكتفين بما يتوهمون انهم يعرفونه ، الذين يعتقدون بانهم قد تملأوا من الروحيات و بلغوا حد الكمال ، ويخالون انهم يرضون الله والناس بسيرتهم وتصرفهم ، الذين لا يشعرون بشوق يدفع بهم للصعود الى الكمال الاعلى لانهم يغرون ذواتهم بذواتهم واهمين انهم قد بلغوا ذروة الكمال فهؤلاء لن يصيروا أبداً اغنياء لانهم جهلوا فقرهم العميق أما الذين يقرّون انهم فقراء ويتألمون للحصول على الثروة الحقيقية التي هي الكمال وبالضد أولئك الذين يتظاهرون بانهم راضون بحالهم ولا يشتمّون ابداً رائحة الكراهة التي تخبئها جلابيب كبريائهم واباطيلهم — أولئك لن يطأوا عتبة الملكوت .

طوبى للودعاء

فانهم يرثون الارض

ان الارض الموعود بها في هذه الاية ليست بالتراب والتلاع التي تراها أمام عيوننا، ولا الممالك المؤلفة من المدن والمزارع والحقول، بل انما عنى مسيا بالاية، « يرثون الارض » انهم سيشتركون في الملكوت الجديد . لان الجندي الذي يحارب في سبيل الارض المادية يجب ان يكون قاسيا ، ولكن الذي يقيم في أعماقه حرباً في سبيل احتلال الارض الجديدة والسماء الجديدة يجب أن لا يسلم نفسه للغضب الذي هو مستشار الخطيئة ووكيلها ، ولا يستسلم للقساوة وهي نفي المحبة . واما الودعاء، فهم أولئك الذين يعاشرون الاشرار والادنياء ولكنهم يصبرون على شرهم ودناءتهم بدعة وسكون ويعاشرون ذواتهم الشريرة — وهي كثيراً ما تكون أشرّ من الاشرار أنفسهم — ولا يثور ثائر غضبهم وهيجانهم عندما يقلب لهم الدهر ظهر المجنّ ، بل يتسلطون على عواطفهم ، ويخضعون أعدائهم القاطنين في أعماقهم بالمواظبة على السكينة ، التي تظهر قوة النفس اكثر مما تظهرها ثائرة الغضب العقيم والجنون الخالي من الثمرة . وهم أبداً كالماء الناعم تحت اللمس يخلي مكانه لغيره من الاجسام الصلبة ولكنه يتعالى ببطء على الحجارة الصلبة فيطاردها بهدوء ويفتتها بسكون على ممرّ العصور.

طوبى للحزانى

طوبى للحزانى فانهم يعزّون . الحزانى هم الذين فيهم نفور من ذواتهم واشفاق على الناس — الذين يعيشون في غباوة الحياة وحماقتها، الذين يبكون على تعاستهم وتعاسة اخوانهم . الذين يرثون سقوطهم ويندبون حمولهم ويتمرمرون على الظلام الذى يحول دون بزوغ النور — لان النور لا يبزغ من السماء على البشر ما لم تعكسه بصائرهم — الحزانى الذين يبكون على هذا الخير الذي طالما حلموا به وأباؤهم من قبلهم ، ووعدوا به الوف السنين ولكنه لا يزال بعيداً عنهم بسبب شرورهم وسقطات كل واحد منهم ، الذين يبكون على ما أصابهم من الاهانات عوضاً من ان يزيدوا حزنهم بحب الانتقام ، الذين يبكون على سقطاتهم وينوحون على الخير الذي كان يجب ان يفعلوه ولم يفعلوه ، الذين قلما يهتمون لخسارة كنز أرضيّ منظور ، ولكنهم يبحثون باهتمام عن الكنز غير المنظور ، الذين يبكون فيقربون يوم التوبة بدموعهم ، ولذلك يحق لهم بعدل ان يتعزوا يوماً ما .

طوبى للجياع والعطاش

الى البر فانهم يشبعون

ان البرّ الذي يشير اليه يسوع في هذه التطويبة ليس برّ العالم والخضوع للشرائع البشرية ، والطاعة للانظمة الموضوعة ، والاحترام للتقاليد والاوضاع المعروفة المقررة . بل ان الرجل البارّ في لغة صاحب المزامير ولغة الانبياء والقديسين ، انما هو ذلك العائش على وفق مشيئة الله لان الله هو مثال البرّ الاعلى . وليس البار بالرجل العائش على وفق تعاليم الشريعة التي وضعها الكتبة في التوراة ، وحرّفها مفسّرو التلمود ، وحلّوا رموزها ، وشوشها الفريسيون بريائهم وخداعهم ، بل هو العائش على مقتضى الشريعة البسيطة الواحدة التي أوجزها يسوع بهذه الوصية « أحبب جميع الناس البعيدين عنك والقريبين ، والغرباء والمواطنين ، الاحبّاء والاعداء » ان الذين يجوعون ويعطشون إلى هذا البرّ السماوي سيشبعون في ملكوت الله . حتى انهم إذا لم ينجحوا في البلوغ إلى الكمال كله يغفر لهم كثيراً لأجل آلامهم .

طوبى للرحماء

فانهم يرحمون

ان الذي يحب الناس يحبه الناس ، والذي يساعد غيره يساعده غيره ، وان الشريعة القاضية بمقابلة الشيء بمثله قد نقضها يسوع فيما خص الشرّ والانتقام . ولكنه اثبتها كما كانت فيما خصّ الخير والفضيلة . فاننا أبدا نرتكب الخطايا والشرور ضد الروح ولكن هذه الخطايا والشرور ستغفر لنا ان غفرنا نحن أيضاً للناس ، خطاياهم وشرورهم . فان يسوع قريب من جميع الناس ، وكل ما نفعله بالناس يفعلونه هم أيضا بنا . « كما فعلتموه باحد اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه » لاننا اذا رحمنا الناس انما نرحم انفسنا ، لان الله لا يغفر لنا السيئات التي نفعلها ضد انفسنا ما لم نغفر نحن أيضاً للناس سيئاتهم .

طوبى لانقياء القلوب

فانهم يعاينون الله

ان انقياء القلوب هم أولئك الذين لا رغبة لهم في شيء سوى الكمال ، ولا سعادة بغير الانتصار على الشرّير الذي يترصدنا في كل لحظة لايقاعنا في فخاخه الأثيمة . لان الرجل الذى ملأت قلبه الرغائب

الشريرة ، والمطامح الارضية وامجاد الجسد وكل الشهوات التي يتمرغ فيها أوباش البشر لن يرى الله وجباً لوجه ولن يتذوق حلاوة التمتع بغنى امجاده أبداً .

طوبى لفاعلي السلامة

فانهم أبناء الله يدعون

ان فاعلي السلامة ليسوا هم «الودعاء» في التطويبة الثانية الذين يمتنعون عن مقابلة الشرّ بالشر ، ولكن فاعلي السلامة يفعلون اكثر من ذلك ، فانهم يقابلون الشرّ بالخير ، ويوجدون السلام حيثما تضطرم نيران الحرب ، وعندما قال يسوع أنا ما جئت لكي القي سلاماً على الارض بل حرباً ، فهو انما عنى الحرب ضد الشر والشيطان والعالم الذي هو معركة دائمة ، وبكلمة وجيزة الحرب ضد الحرب وليس ضد السلام . اما فاعلو السلامة فانهم ابطال هذه الحرب ضد الحرب ، هم أولئك الذين يطيبون النفوس المضطربة ، ويسالمون القلوب المتنافرة . فان محبة الذات أصل جميع الحروب ، لانها تبدأ بالذات ثم تنتقل إلى الثروة والغنى ، فالى الكبرياء والعجرفة ، فالى حسد من كان اكثر منها ثروة . واخيراً تؤدي إلى البغض الرائع لكل من كان له رغائب كرغائبها ومنازع كمنازعها ، ولكن

الشريعة الجديدة انما جاءت لكي تعلم الانسان ان يبغض بنفسه ، ويحتقر العالم المنظور ، ويحب جميع المخلوقات الذين يحبونه والذين لا يحبونه على السواء . وأن فاعلي السلامة الذين يعلمون ويعملون بهذه المحبة يضعون الفأس على أصل شجرة الحروب فيستأصلونها فمتى احبّ كل انسان اخوانه البشر أكثر مما يحب ذاته فان الحروب تبطل ، الحقيرة منها والكبيرة ، الاهلية وغير الاهلية ، سواء كانت بالاقوال أو بالمدافع ، بين انسان وانسان أو بين قبيلة وقبيلة ، أو بين شعب وشعب فيكون صانعو السلامة قد بسطوا السلامة على الارض ، ويُدعون بحق بني الله العلي ، ويكونون في مقدمة لداخلين الى ملكوته السماوي .

طوبى للمضطهدين

من أجل البر فان لهم ملكوت السماوات

انني ارسلكم ياتلاميذي لكي تؤسسوا هذا الملكوت، ملكوت السماوات ملكوت ذلك البرّ السماوي الذي هو المحبة ، ملكوت ذلك الصلاح الابوي الذي هو الله ، انني ارسلكم لكي تحاربوا انصار الظلم وخدام المادة المنخرطين في خدمة المجرّب الرجيم . وأنهم سيدافعون عن أنفسهم عندما تحاربونهم ، ولذلك سيضطهدونكم

في سبيل المحافظة على شرورهم . وسيعذبون اجسادكم . ويصلبون نفوسكم ، ويسلبونكم حريتكم وحياتكم ، غير انكم اذا قبلتم هذه الاضطهادات بفرح لتحملوا ، الى الغير ، البرّ والعدل فان هذه الاضطهدات تكون لكم حجة لا تقبل النقض للدخول الى غبطة الملكوت الذي أنشأتموه بكل ما بلغت اليه قوتكم .

طوباكم اذا عيروكم

واضطهدوكم وقالوا عليكم كل كلمة سوء كاذبين من اجلي

افرحوا وابتهجوا فان اجركم عظيم في السماوات :

لانهم هكذوا طردوا الانبياء من قبلكم

الاضطهاد أمر ماديّ ، جسدياً يكون وشرعياً وسياسياً ، فان المضطهدين يستطيعون ان يحبسوا عنكم الخبز ونور الشمس ، والحرية الالهية ويستطيعوا ان يسحقوا عظامكم ، لكن الاضطهاد لم يتمّ بعد فاستعدوا للثلب والاهانة والتعيير فالناس المتمرغون في حمأة الحيوانية والمصممون على ان لا يخرجوا منها لا يكتفون بالحكم عليكم لانكم تريدون ان تجعلوا منهم قديسين : لا يكتفون بتمزيق أجسامكم . بل انهم يهاجمون نفوسكم : يتهمونكم بكل عيب ونقيصة ،

ويرجمونكم بالنميمة والاغتياب ، فيراكم الخنازير انكم قذرون ، والحمير انكم جاهلون ، والغربان تتهمكم بانكم تنهشون الجيف المنتنة والتيوس ستطردكم من مجالسها بحجة أن رائحتكم كريهة ، وأبناء الفجور والدعارة . واللصوص سيتهمونكم بالسرقة والتعدي ، ولكن يجب أن تفرحوا دائما عالمين أن الاهانة التي تأتيكم من الاشرار والناقصين انما هي الشهادة بصلاحكم وكمالكم ، والاقذار التي يلقيها عليكم القذرون والمتنجسون لهي البرهان القاطع على طهارتكم ونقاوتكم هذا هو « الفرح الكامل » كما سماه القديس فرنسيس [١] «وبين جميع النعم التي منحها يسوع اصدقاء قد أعطاهم نعمة التسلط على الذات ؛ واحتمال الاضرار والعار والآلام والاحزان بصبر وفرح ، فان جميع المواهب الالهية الاخرى ليس لنا أن نفاخر بها ، لانها لم تصدر

(١) هو مؤسس رهبنة الفرنسيسكان ولد في بلدة اسيزي في اومبريا سنة ١١٨٢ ومات فيها سنة ١٢٢٦ ولم يكن في حداثة سنه متقشفا ، ولكنه بعد داء عضال الم به هجر العالم وملذاته وترك بيت أبيه وامه : وفي سنة ١٢٠٨ نذر على نفسه العفة والفقر الاختياري الكامل . ولم تمر عليه مدة طويلة حتى كثر اتباعه فوضع لهم نظاما للحياة النسكية صدق عليه البابا انوسانت سنة ١٢١٠ وفي سنه ١٢١٢ قدم له البناديكتيون كنيسة قرب بلدته اسيزي فاتخذها مركزا لرهبنته . وحصل بعد ذلك على منشور رسولي من البابا اونوريوس الثالث يثبت الرهبنة الفرنسيسكانية كرهبنة نظامية في الكنيسة الرومانية . وقد قضى حياته عاملا في سبيل الخير الانساني . وبعد موته بعامين قرر البابا غريغوريوس التاسع وبمجمعه المقدس تقديسه . ورتبت الكنيسة عيده في الرابع من شهر تشرين الاول.

من قلوبنا بل انما صدرت من الله ، ولكننا نستطيع ان نفاخر باحزاننا وبضيقاتنا لانها لنا » . ان جميع الانبياء من قبل قد عيّرهم الناس واضطهدوهم ، وسيعيّرون كل نبي يأتي فيما بعدالى العالم ويضطهدونه . واننا لنستطيع ان نعرف النبي من هذا : فمتى مرّ رماه الناس بالاوحال واتبعوه بالشتم والتعيير لكن وجهه يشرق غبطة وحبوراً ويخاطب الناس بمثل ما في قلبه . ان الوحل لن يسدّ شفاه الذين عليهم ان يتكلموا . حتى ان الناس لن يسكتوا هذا الرجل المزعج العزوم — ولو قتلوه — فان صوته يتضاعف باصداء الموت ويرنّ بكل اللغات وفي كل الازمان .

ان رجال الملكوت قد عبّئوا وأعلنوا للجميع . وفي وسع كل انسان ان يعرفهم فالمتمردون الخارجون قد انذروا والجبناء شجعوا اما الاغبياء ، والمتكبرون ، والمكتفون بانفسهم والظالمون ، والقساة ، والذين يحبون الحرب والقتل والشرّ ، والمعيّرون ، والذين لايجوعون ويعطشون إلى الكمال ، والمضطهدون ، والذين ينتهكون المحرّمات فانهم لن يدخلوا ملكوت السماوات ما لم يستعبدوا شهواتهم وعواطفهم ، ويغيّروا طبائع نفوسهم ، ويصيروا عكس ما هم عليه : واما الذين يعيشون على وفق ماتطلبه سعادة هذا العالم الذي يحسدهم ويتبعهم ويعجب بهم فانما هم أبعد عن السعادة الحق من الذين يحتقرهم العالم ويبغضهم . بمثل الكلمات الاولى المفرحة قد قلب

يسوع أنظمة العالم وتقاليده ظهراً لبطن كما انه سيضرب فيما بعد بجواهر الحياة البشرية عرض الحائط ، ولن ترى البشرية وحياً تملأه الالغاز والرموز الالهية كوحيه الى الابد .

الاحجية الالهية

المتصوفون العراة العوراة ، والخصيان والمتطفلون المخرّبون اتباع ساتورن ، والمراد بهم رجال متفخمون يقبلون على شيء بعد اتمامه ، لا ليعيدوا صنعه بل ليتحدثوا فيه من جديد ويفسدوه ، قد نظروا دائماً بعين العداء والتجهم الى ما يسمونه « بدعة » (١) ولكي يتحرزوا من عناء التمييز بين « البدع المقدسة » و بين النكت الحمقاء التي تقذف بها العقول المشوشة يتخلصون الى القول : ان كل « بدعة » انما هي هدم لحقيقة قديمة معروفة . إذن هي كذب — ولكي يقطعوا أجنحة التصلف يقولون : انها كذب سهل : لان الصعب عليهم ، على ما يظهر ، هو أن يسيروا على السبُل الممهّدة ويجتثوا سطراً سطراً ما كتبه ، قبل ولادتهم ، رجال ما تخلقوا قط باخلاقهم وطبائعهم المسترخية .

(١) ترجمة كلمة PARADOXE الفرنجية ومعناها الرأي أو القول البديع المغاير للرأي الشائع اليوم .

لو شاق هؤلاء الشيوخ المؤيدين « ما قيل » ، النافعين بكونهم مستودعي التقليد ، والضارين بكونهم حوائل دون الجديد — لو شاقهم ان يستخرجوا من أعماق ذاكرتهم المتبلبلة ، تلك الآراء والافكار النادرة التي بها تحيا ، أو بالاحرى — تحتضر « الفكرة الحديثة » (لانه إذا كانت الحالات القصصية ، على زعم غوزي ، ستٌ وثلاثون فان الحالات الفلسفية لا تتجاوز الاربع والعشرين) لادركوا — يا للعار ! — انها كلها — أو تقريباً كلها ، هدمٌ و بِدعٌ .

ان روسو حين يقول : ان الناس يولدون أخياراً لكن المجتمع البشري يجعلهم أشراراً ، فهو انما ينقض قضية الخطيئة الاصلية المقبولة ومتخيل « الارتقاء » حين يؤكد ان الافضل يتولد من الاردأ ، والدروني (١) ان المركب من البسيط ، والموحد «يونيست» ان كل الانواع والمتنوعات انما هي مظاهر عن «الفرد» والمركسي (٢)

---

(١) الداروني : واحد القائلين بمذهب شارل داروين (١٨٠٩ — ١٨٨٢) الطبيعي الانكليزي الذي علم بنشوء الاحياء التدريجي من اصول واحدة بسيطة ويعرف مذهبه بمذهب النشوء والارتقاء .

(٢) المركسي : وأحد القائلين بمذهب كارل ماركس الاشتراكي الالماني المشهور ولد في سنة ١٨١٨ ودرس الشريعة والفلسفة في برلين . وقد اشتغل في الصحافة حتى عام ١٨٤٤ عندما اقفلت الحكومة جريدته فسافر الى باريس حيث عاون بعض معارفه من الصحفيين الالمان في جرائدهم . بيد انه اضطر

ان العلم الاقتصادي يولد الرقي الروحي ، والعلماء المحدثون حين يؤيدون ويثبتون ان الانسان ليس « قطب العالم » كما ساد الاعتقاد دائماً من قبل – بل هو جنس حيواني صغير على احدى الكرات غير المحصورة المتبعثرة في اللانهاية والبروتستانت حين يصيحون : « التوراة لا البابا . » والثوار الفرنسويون : « ان عامة الشعب ليست شيئاً ويجب ان تكون كل شيء » ترى ماذا فعلوا جميعهم الاّ انهم نقضوا الآراء القديمة المعروفة ؟

لكن يسوع هو أعظم من نقض ودمّر من بين جميع هؤلاء بل هو « المبدع » الاعلى وفي هذا عظمته ! وجدته الخالدة وشبابه ، والسر الوحيد الذي كان ولا يزال يجذب كل ذي قلب كبير عاجلاً أو آجلاً الى انجيله .

فقد تجسد لكي ينشل الناس من الشر والضلال ، ورأى الشرّ والضلال فكيف لا يهدم مبادىء العالم ؟

اقرأ العظة على الجبل تر في كل سطر من سطورها ان يسوع

التطرفه أن يهرب من باريس الى بروسل في سنة ١٨٤٨ وهنالك انتخب رئيسا للجنة المركزية للحزب الاشتراكي. وفي السنة نفسها سعى ان يعيد جريدته الاولى « رينش زيتونغ » في كولونيه ثم يفلح فانتقل الى لندن في سنة ١٨٤٩ وفي سنة ١٨٦٤ انشأ (الاينترناسيونال) ولكنه اضطر ان يسافر الى نيويورك في سنة ١٨٧٢ عندما قاد الحزب المتطرف . وفي سنة ١٨٨٣ توفي بعد ان ترك للاشتراكيين كتابه الكبير ، الذي يحسبونه كتابهم المقدس « رأس المال »

يريد أن يصير الوضيع رفيعاً ، والاخير أولاً ، والحقير موضوع اكرامنا واحترامنا . والحقيقة القديمة انما هي ضلال والحياة العامة فساد وموت .

وقد أجاب عن رغائب الماضي الغارق في آلام نزعه الاخير ، والطبيعة البشرية الأمّارة بالسوء ، وما أسهل الانقياد اليها ، والعقائد العالمية العامة الشاملة ، بذلك السلب الراسخ في تاريخ الانسانية قائلاً — كلا ! كلا !

فقد برهن بذلك على اخلاصه لابناء جنسه الذي لم يعدم في أحرج ساعات سقوطه من قوة تحيي آماله الميتة . ذلك الجنس الذي — بالرغم من انه كان مكبّلاً بقيود العبودية — فقد كان يحلم بالتسلط على بقية الامم والشعوب بمساعدة ابن داود . ذلك الشعب المحتقر الذليل الذي كان يشعر بان المجد قد أعدّ له بناء على الوعود القديمة ، ذلك الشعب الذي طالما أدّبه الرب وحكم عليه بالقصاص ، ولكنه كان يعتقد بانه أحبّ الشعوب على قلبه ، ذلك الشعب الذي بالرغم من انه كان يتمرّغ في حمأة الشر والرذيلة فقد كان يعتقد بان الخلاص قد أعدّ له دون سائر الامم والشعوب. ان هذه الروح الرجعية السخيفة التي كانت تتحرك في أعماق ضمائر العبرانيين قد تحولت في يسوع الى قوة نقّادة لكل ذي قيمة ، ولما كان بلاهوته فائقاً للطبيعة لذلك

كوّنت في ذهنه مثالاً الهياً جديداً لسائر النُظم والشرائع التي سار عليها البشر واحترموها منذ ذلك الحين .

ان اكتشاف يسوع الاول والصامت انما هو بذاته اكتشاف بوذا (١) : الناس كلهم تاعسون — مهما تكن الظواهر . وقد اشار الحكيم سيدهارتا بالانتحار رجاء التخلص من آلام الحياة وتعسها

(١) بوذا : هو احكم حكماء الشرق الاقصى ، غوتاما بوذا « الحكيم » او (المستنير) مؤسس الديانة البوذية . وقد ولد في الهند في القرن الخامس قبل الميلاد . أما اسمه الشخصي فكان سيدهارتا واسم عائلته كان غوتاما . وكثيرا ما يدعوه المؤرخون ساكيا موني (« ساكيا » اسم قبيلة ، و « موني » كلمة سنكريتية معناها الحكيم ») كان ابوه ملكا على قيلفاستو ، وهي تبعد مسير بضعة أيام عن باناريس . اما سيدهارتا فكان الحب المجرد للانسانية يملأ قلبه ، ولذلك ترك قصر ابيه وعاش في وحدة البرية حتى بلغ بتأملاته العميقة الى أعمق اسرار الحياة وصار بوذا حقيقياً . (وكلمة بوذا تعني الحكيم او المستنير) فشرع اذ ذاك ينشر تعاليمه المعارضة لتعاليم البرهمية التي كانت منتشرة في باناريس . وفي مقدمة اتباعه والمصدقين لدعوته كان ملكا مغادها وكوسلا ، وبعد قضى حياته في مملكتيهما محترما مكرماً أمينا على حياته وتعليمه . وخلاصة تعاليمه ان نيرفانا ، او الراحة المطلقة من الوجود ، هي منتهى الصلاح . وان الالم لا يفارق الوجود ، ولا خلاص منه الا عن طريق نيرفانا ، ولكي نبلغ النيرفانا يجب ان نكبح جماح اهوائنا ونتسلط على رغباتنا ونتنكر ذواتنا الى اخر ما تصل اليه قوتنا ، وننسى كل واحد شخصيته كأنه غير موجود وموجود في وقت واحد . وقد قضت الديانة البوذية على الفروقات الجنسية . ولكن الطهارة التي وافقتها في نشأتها فارقتها فيما بعد اذ خلط اتباعها المبادىء الصالحة التي علم بها بوذا بشخصيته ، فانزلوه منزلة تعاليمه واقاموا لهم أصناما تمثله ليعبدوها .

واما يسوع فقد كان له رجاء آخر ولعظم سموّه بانَ بمظهر المستحيل. فقد علّم بان الناس تعساء لانهم لم يهتدوا الى الحياة الحقيقية . فليصيروا عكس ما هم الآن وليعملوا عكس ما عملوا ويبدأ لهم على هذه الارض عيد الفرح والسعادة .

كان الناس حتى زمن يسوع يسترشدون الطبيعة ويستسلمون لغرائزهم واتخذوا لانفسهم شرائع سطحية موقتة وناقصة ، وعبدوا آلهة كاذبة ، وزعموا انهم وجدوا السعادة في الخمر واللحم ، والذهب ، والسلطة ، والقسوة ، والحكمة ، والفنون ، ولكنهم انما اججوا الشر فيهم . وما ذلك الا لانهم ضلوا سواء السبيل فيجب عليهم ان يعودوا ادراجهم نابذين ما يبدو لهم جميلاً وصالحاً ، ومتمسكين بما رفضوه ونبذوه ، أجل ، بل يجب ان يعبدوا ما حرقوا وان يحرقوا ما عبدوا ، ويتسلطوا على غرائزهم الحيوانية عوضاً من ان يستسلموا لرغباتها ، ويحاربوا طبيعتهم عوضاً من ان يشبعوا ملذاتها . ويتخذوا لانفسهم شريعة جديدة يعيشون على وفق نصوصها فان ما كنا نطلبه قد فر منا حتى الآن إذن لم يبق لنا الاّ أن نقلب الحياة الحاضرة أعني أن نغيّر أنفسنا .

فان شقاءه الدائم برهان على ان تجارب العالم القديم واختباراته في سبيل الوصول إلى السعادة قد فشلت ولم تأت بثمرة ، وان الطبيعة من ألد أعدائنا ، وان الماضي ممتلىء من الاغلاط والضلال ، وان

حياتنا كحيوانات تقودنا غرائزنا الحيوانية إلى حيث ندري ولا ندري وليس لنا من الانسان سوى الوجه واللسان ، ليست سوى مأساة نهايتها الشقاء والقنوط .

واما الذين كانوا يضحكون من تعس الانسان غير المتناهي ، أو يبكون عليها و ينوحون فانما هم من ذوي العقول النيرة والبصائر الثاقبه ، بل ان المتشائمين محقون فيما يدعون . لانه كيف يمكننا إذ ذاك ان ندحض بالدليل والبرهـان ، حجة أولئك الذين يتهمون افتخارنا ، والذين يسخرون من ضعفنا والذين يحتقرون خزينا وعارنا ؟

فان الذي لم يولد لـكي يتلوّى على كومة من الدود ، مزدرداً ما يصيبه من الارض ، وهو يعلم ان له نفساً وقلباً كما ان له معدة ويدين ، ذلك الرجل الذي تسامت نفسه وعلت عواطفها بالحزن والشقاء يشعر مضطراً في أعماق قلبه بهول الشر على ان هذا الهول يتحول في ذوي الطبائع الغليظة القـاسيه إلى كره ونفور ، ولـكنه ينقلب في النفوس الشريفة الـكريمة إلى رحمة ومحبة .

بعد ما أضاع ليوباردي (١) و ربما كان ذلك بسبب المسيحيين

---

(١) ليوباردي : شاعر وعالم ايطالي مشهور، ولد سنة ١٧٩٨ وقد درس العلم على نفسه ، وفي اواخر عمره كتب تاريخ علم الفلك،وعرب حياة بلوتينوس لبروفيري ، واضاف اليها حواشي حكيمة دلت على واسع علمه ووافر اطلاعه . وعرب الى الشعر الايطالي « حرب الضفادع والجرذان » وبعض منظومات الاوديسية . وشرح باترارخ . وكتب مقالا مسهبا شرح فيه اغلاط القدماء،وطبعه

غير الكاملين الذين أحاطوا به — حبّ المسيح وذابت نفسه يأساً تفلسف واستنتج قائلاً : سأمٌ كلها الحياة ومرٌّ ، من يتجرأ ويقول له : « صه يا مسكين ! الا تشعر ان المرارة ناتجة من الافسنت الذي ما يزال عالقاً بشفتيك وانك أنت الملوم على يأسك إذ أحرقت ، على حجر منطقك الجهنمي ، تلك العواطف التي قد كانت تسعد حياتك ، أو على الاقل ، تجعلها محمولة مقبولة »

كلا لم يكن ليوباردي مخطئا ، لانك عندما ترى الناس على ما هم عليه من الضلال ، ولا أمل لك في خلاصهم أو تغييرهم ، وترى انك لا تستطيع ان تعيش مثلهم لانك تختلف عنهم كثيراً ، وليس في وسعك ان تحبهم لانك تعتقد بانه قد قضي عليهم أن يظلوا أشراراً تعساء سرمداً ، وعندما تشعر بان البهائم ستكون دائماً بهائم ، والجبناء دائماً جبناء ، والادنياء أدنياء ، والاشرار أشراراً أبداً يتمرغون في حمأة قذاراتهم وشرورهم ، فاي شيء تستطيع أن تعمل سوى أن تشير على قلبك بالسكوت وانتظار الموت ؟ على ان امامنا سؤالا واحدا : هل الناس بطبيعتهم غير قابلين للتغيير ولا للتجدّد ، وهل نحن قادرون أن

سنة ١٨١٥ وقد رفعته منظوماته التي نشرها بين عامي ١٨١٨ و ١٨٢٠ الى مصف اكابر شعراء ايطاليا وقد قضى حياته مريضا يتنقل من رومية الى ميلان الى بولونيا الى فلورانسا ، وفي سنة ١٨٣٣ انتقل الى نابولي حيث انتقل الى رحمة ربه في الرابع عشر من شهر حزيران سنة ١٨٣٧ .

بجعلهم أفضل مما هم ؟ أو من الوجهة الثـانية : هل يقدر البشر أن يسموا البشرية ويصيروا قديسين وآلهة ؟ اجل ، ان الجواب عن هذين السوءالين لفي غاية الاهمية ، ان أعاظم الرجال قلما استوعبوا القضية ذات الحدين . فقد اعتقد الكثيرون وما زالوا يعتقدون ان شكل الحياة الظاهر وحده يمكن ان يتغير وان كل شيء مستطاع له الا تبديل طبيعة روحه .

وان الانسان يستطيع أن يوسع سيادته على العالم ويزيد ثروته وعلمه ولكنه لا يستطيع أن يغير كيانه الادبي . فتظل عواطفه وغرائزه الفطرية أبداً كما كانت في سكان الكهوف المتوحشين ، وفي أبناء الاجيال الخالية الذين اقاموا المدن على شواطىء البحيرات ، وفي البرابرة الاولين وفي الممالك القديمة .

وغيرهم ينظرون الى الانسان منذ نشأته الى الان نظرة لا تقل هولا عن نظرة هؤلاء ، ولكنهم قبل أن يتطوحوا في اليأس والقنوط ، ويتمرغوا في حمأة الكفر والالحاد ، ينظرون إلى الانسان كما يمكن أن يكون . فانهم يؤمنون ايمانا راسخاً بتحسن النفوس وتكملها لتهيئة السعادة لاخوانهم الناس .

وأما الرجل كل الرجل فليس امامه الا أحد امرين : الـكآبة السوداء أو الايمان الثابت الصريح ، الموت أو الخلاص . لان الماضي

هائل مخيف ، والحاضر كريه ، فلنبذل حياتنا كلها وتقدم كل ما في قلوبنا من قوة ومحبة وفهم لكي نجعل الغد أفضل من اليوم ، ونهيىء الطريق لجعل مستقبلنا سعيداً . واذا كنا حتى الان قد خُدعنا – وشقاؤنا الدليل – فلنعمل لخلق رجل جديد وحياة جديدة . وهنا هنا النور !

فان امامنا أمرين لا ثالث لهما وفي استطاعتنا الحصول على أيهما شئنا . فالاول انّ تمسّكنا بحياتنا يحرمنا نيل السعادة الابدية . والثاني اننا لا نستطيع أن نحصل على السعادة الخالدة ما لم ندفع ثمنها – كما علّم يسوع بملء الصراحة – بتغيير منهاج حياتنا ، وتجديد طبائع نفوسنا ، والخروج عن القديم البالي الى الجديد المتجدد للمعرفة والحق ، وبان نجيب دائماً « بلا » المقدسة عن (نعم) العالم الشريرة . اما اذا كان المسيح قد غلط في تعاليمه فلا يبقى لنا الاّ الجحود للمنطق الشامل والالحاد ، والايمان بلا شيء . فاما الكفر الكامل والجحود الشديد وليس التشاؤم عن رياء وتدجيل كما يفعل أبناء اليوم الجبناء – واما الايمان الحيّ الفعّال بالمسيح الذي يخلّص ويبعث بالحب .

قد قيل

التاريخ البشري تاريخ تعليم : تاريخ حرب بين العدد القليل ، القويّ بالروح ، وبين العدد الكثير القويّ بالرجال . هو تاريخ تهذيب يتجدّد دائماً ، تاريخ تربية ، صعبة قاسية ينفر منها القلب ويتقزز ، تعاد عليه ويتناساها أبداً .

ان الانبياء الاولين ، والمشترعين المتقدمين ، وزعماء الامم الفتية ، والملوك ، مخططي المدن والبلدان ، ومؤيدي العدالة والقانون والاسياد الحكماء والقديسين الاتقياء قد بدأوا منذ أمد بعيد بترويض الحيوان . فقد استطاعوا بالاقوال والكتابات أن يلطفوا طبائع البشر — الذئاب ، ويكبحوا جماح البرابرة ، ويهذبوا الاطفال الملتحين ، ويخففوا قسوة المتوحشين ، ويكسروا حدة الشرسين والسفاحين . فكانوا يقلّمون الاظافر السامه تارة بحلاوة الكلام ، وطوراً بشدة القصاص والعقاب ، تارة بالمواعيد وطوراً بالتهديد والوعيد ، مرة باسم الهة السماوات العليا ، واخرى باسم أبالسة الجحيم السفلى وكانوا يضعون اللجم في الافواه ذات الانياب الحادة ، ويحامون عن الضعفاء والغرباء ، والضحايا من الرجال والنساء الذين ليس لهم من يدافع عنهم .

الشريعة القديمة التي نراها على قليل من الاختلاف في منافذ

دهار ماساسترا وفي أسفار موسى الخمسة وهي — تاهرون افستا — وفي تقاليد صولون (١) ونوما (٢) وفي اوليات ايسيود (٣) —

---

(١) صولون هو احد حكماء اليونان السبعة ، ومشترع اثينا العظيم ، ولد نحو سنة ٦٤٠ قبل المسيح . وكان واسع الاطلاع كثير الاسفار ولذلك جمع معارف العالم القديم في رأسه واستطاع ان يقدم لاثينا احكم الشرائع المعروفة في ذلك العهد . وأفضل شرائعه قضاؤه على العادة التي كان يحق بموجبها للدائن أن يستعبد مديونه مقابل الدين الذي يعجز عن دفعه له . وبعد ان فرغ من وضع شرائعه جمع الاثينيين فاقسموا له ان لا يغيروا الشرائع مدة عشر سنوات . اما هو فسافر في الحال الى مصر وقبرص وبلدان اخرى لكي يتجنب البحث في تغيير تلك الشرائع في المدة المضروبة . وعند عودته بعد عشر سنوات رأى البلاد منقسمة والشريعة مدوسة تحت اقدام الاحزاب المتضاربة المتخاصمة ، ولكن الجميع قبلوا ان يكون صولون حكما بينهم . ولكن صولون لم يقبل التحكيم لانه عرف ان البلاد ستؤول الى قبضة فيستراتوس الطاغية فترك اثينا — ويقال انه مات في الثمانين من عمره .

(٢) نوما بومبيليوس : هو الملك الثاني لرومية . ويقال انه ملك من سنة ٧١٤ الى ٦٧٢ قبل المسيح وقد امتاز بمحبته للفلسفة والشريعة ، بيد ان حياته ووجوده اقرب الى الخرافة منها الى الحقيقة . وكان الرومان ينظرون اليه كمؤسس لاسمى نظمهم وشرائعهم الدينية ، وقد ترك كتابات عديدة توضح نظام الحكم في ايام ملكه ولكن مجلس الشيوخ الروماني امر بحرقها فحرقت حالما وجدت سنة ٢٧٢ قبل الميلاد .

(٣) ايسيود : من مشاهير شعراء اليونان في القرن الثامن قبل الميلاد . ولا نعرف الا القليل من حياته . وقد ضاعت اكثر كتاباته ولم يبق منها سوى الكتاب المدعو « ثيوغونيا » وهو مجموعة قصص خرافية من اعمال الآلهة

والحكماء السبعة كانت مع ما فيها من النقص والقسوة والقصور أول خطوة لينتشلوا من الحيوانية الساقطة ، ظلا أو مبدأ أو صورة ضئيلة للبشرية .

وقد انحصرت هذه الشريعة ببعض تحريمات أوليّه تلخّص فيما يأتي : لا تسرق ، لا تقتل ، لا تحلف باطلاً ، لا تزن ، لا تستبد بالضعيف ، لا تعامل الغرباء والعبيد بالقسوة والعنف ، تلك قواعد ونواهٍ ضرورية جداً لقيام حياة الجماعة وصلاحها . وقد اكتفى المشترع بتقليل عدد الجرائم والمخالفات المألوفة كثيراً وارتضى بالقليل القليل من النواهي وقلما نراه يتخطى بفكره الى العدد المتناسب .

لكن الشريعة تفرض وجود سلطان الشر وسيادة الغريزة الكائنة قبل الشريعة و العاملة في كل حين فالوصية تتضمن المخالفة والقاعدة تحتوي على الشذوذ . ولذلك فالشريعة القديمة الشريعة الاولى ما هي الا سد ناقص ليحول دون « الحيواني » الدائم الظافر فهي مجموعة من اراء المحكمين ووسائل ناقصة بين العادة والعدالة ، بين الطبيعة والعقل ، بين الحيوان الجامح والمثال الالهي .

على أن أبناء الاجيال الغابرة الجسدانيين ، الطبيعيين ، الضلعين

وانسابها ، و « حربة هرقل » وهو قسم من كتاب كبير ، ومنظومة شعرية وكتاب « الاعمال والايام » وهو كتاب يبحث في الزراعة وفي الايام المشومة والايام الصالحة ، وفيه حقائق مختلفة في التهذيب والاقتصاد وغير ذلك .

الشهوانيين ، الاشداء ، السفاحين ، الاجلاف ، الاقوياء ، المشعرين ، الحمر الوجوه ، اكلة اللحم البشري ، مفترعي العذارى ، لصوص المواشي ، المشنّعين باعدائهم الذين يستحقوا أن يلقبوا « بقاتلي البشر » كما لقب هكطور (١) الطروادي المحاربين ، الشرهين ، الفرسان البسل الذين كانوا يدوسون اعداءهم ومقاوميهم بسنابك خيولهم ثم يتنعمون بشوا كل البقر والغنم ويشربون الخمور بالطاسات الوسيعة ، ان اولئك البرابرة الذين قلما كانت توثر الشريعة في نفوسهم كما نراهم في الماهـا بهـارتا (٢) وفي

(١) هكطور : هو ابن الملك فريام ، وأفرس فرسان الطرواديين الذين حاربوا الاغريق . تزوج اندروماخ وولد له منها صبي دعي اسمه استيانا كس وقد اقيم هكطور رئيساً لقوات الطرواد عندما كانت طروادة يحاصرها الاغريق ، ويقال انه قتل فوق الثلاثين من اشد ابطال الاغريق ، ولكنه هرب للحال اذ رأى البطل اخيل اتياً لمبارزته ، بيد ان اخيل استهده واضطره الى الرجوع لمبارزته وقتله ، وعلق جثته بدواليب عربته وجره في موكب النصر .

(٢) الماها بهارتا : معنى الكلمة الحرفي « التاريخ العظيم لنسل باهارتا ، وهي منظومة حماسية هندية تقع في نحو مائتين وعشرين الف بيت من الشعر ، وتقسم الى ثمانية كتب كبيرة ، وهي تسرد وقائع الحروب الكبرى التي قامت بين ابناء ديتاراشترا المئة وانسبائهم الابناء الخمسة لباندو في سبيل الاستيلاء على مملكة باهاراتا التي كانت تتألف من اكثر بلاد الهند الحالية . وهذه المنظومة الطويلة ينظر اليها الهنود كدائرة معارف لخرافاتهم وتاريخهم وفلسفتهم . ويقال ان ناظمها هو الشاعر الهندي فياسا ، ولكن الرأى الغالب انها لم تنظم في وقت واحد بل نظمت في عصور مختلفة وربما يكون فياسا جامعها ومرتبها .

الالياذة[١] وفي أشعار ايزدوبار[٢] وفي كتاب حروب يهوه ، أن امثال اولئك الناس لولا رهبة القصاص وسخط الالهة لظلوا إلى اليوم أقسى بربرية وتوحشا . وفي الازمنة التي كانت فيها الشريعة تقضي بقطع الرأس على من يقلع العين ، واستئصال الذراع على من يقطع اصبع اليد ، وقتل مئة رجل من قبيلة من يقتل رجلا واحدا — في تلك الازمنة كانت الشريعة ، التي نقضها يسوع ، القائلة عين بعين وسن بسن — انتصارا عظيما للاريحية ومكارم الاخلاق والعدل وان كانت تبدو لنا ، بعد يسوع ، ظالمة رهيبة .

غير أن الشريعة كانت تداس في اكثر الاحيان وقلما حافظ عليها انسان فالاقوياء كانوا يحتملونها مُرغَمين ، وذوو السلطان المكلفون بالمحافظة عليها كانوا يتملصون منها والاشرار كانوا يخرقون حرمة نصوصها عـلانية والضعفاء يمتهنونها في سرهم . وفوق ذلك

(١) الالياذة منظومة شعرية ينسبها اكثر المؤرخين الى الشـاعر اليوناني هوميروس وهي تتألف من اربعةوعشرين كتابا او نشيدا تدور كلها على وصف حصار طرواده من حرب الخيل واغا ممنون الى مقتل هكطور ودفنه — ويتخلل ذلك حوادث هامة كثيرة عن العالم القديم . وقد نقلها الى الشعر العربي المرحوم سليمان البستاني في مجلد ضخم وهي تباع في مكتبة الخالدات .

(٢) ايزدوبار : احد أبطال بابل القديمة . ولعله شخص حقيقي . ولكن المعروف انه ادخل فيما بعد في مصف الالهة وصار يعبده البابليون . ونسب اليه اعمال عظيمة وحوادث خارقة وأشعار كثيرة ، والله اعلم بحقيقة كل ذلك .

فانها ولو حافظ عليها جميع الناس لم تكن كافية لاستئصال جراثيم الشر الذي كان ينتشر في القلوب ، بل كانت تسكته ساعة فلا يلبث أن يظهر اردأ مما كان فيسري من انسان الى انسان . فقد كانت تسكن الهمجية الغريزية تسكينا موقتا ولكنها لم تستأصلها من جذورها . لان الناس يرغبون في الشيء اذا حجب عنهم ، ولذلك تعلموا أن يتظاهروا بالخضوع ويصنعوا القليل من الخير كلما سنحت لهم الفرصة أمام الناس لكي يتم لهم عمل الشر بملء الحرية في سرهم ، ويبالغوا بوجوب المحافظة على الشرائع الخارجية لكي يتسنى لهم الغدر بروح الشريعة وتقويض دعائمها .

في مثل هذه الحالة من الرياء والتدجيل كان الناس عندما ألقى يسوع عظته على الجبل . وقد أدرك يسوع أن الشريعة القديمة التي لا قوة لها ولا عضد — كانت تغوص في مياه الرياء الراكدة ولذلك عرف أن العمل المتقادم الاجيال القاضي بتهذيب الجنس البشري يجب أن يبدأ من أصله وينبغي ازالة الرماد وكنسه لتجديد اشعال نار النخوة الاولى الاصلية ، وارجاع الانسان الى غايته الاولى : التي إنما هي تبديل الروح . اذن لابد من تتميم الشريعة القديمة ، الشريعة الجافّة الميتة . لكن أفضل تكميل لها هو أن يسير بها الى الغاية الى « البدعة » الى سن شريعة جديدة تقوم مقام القديمة وتضع في الطبيعة البشرية تغييرا جديدا حقا .

غير أن في الانجيل فقرة يستدل منها على أن قصد المسيح الاعلى لم يكن هكذا إذ قال: « لا تظن اني جئت لاجل الناموس والانبياء. ما جئت لاحلّ بل لاكمّل » . لكن هذا التأكيد الصريح قد جاء مرادفا في انجيل متى ذاته بفكرة تحدده و على وجه ما ، تناقضه . وهذه الفكرة يستبعد علينا فهمها احيانا لاننا مسوقون بهذا الاعتقاد: أن شريعة يسوع انما هي تكميل لشريعة موسى : قد قال : « السماء والارض تزولان وحرف واحد من الناموس لا يزول حتى يتم كله » ومعناه : كما ان السماء والارض لا تزولان أبداً كذا لا يزول حرف من الناموس حتى يتم كل شيء » وهذه الكلمات الاخيرة نترجمها على حرفيتها لانها مفتاح السر .

يريد يسوع أن يقول هذا : طالما كل شيء — كل في الشريعة القديمة من عدل وحق — لم يتمّ ولم يصر قاعدة للحياة ثابتةدائمة ، وعادة مرعية شاملة فالشرائع القديمة باقية للعمل بها . هي موجز مختصر ! اذن هي درجة أولى لازمة للصعود الى الشريعة الجديدة . لكن متى تم « كلّ » شيء ومتى أصبحت الشريعة دما من دمكم ومتى اذيعت الشريعة الجديدة اذ ذاك لا تحتاجون الى شرائع عتيقة ناقصة مختلة فالشريعة التي عرفتموها حتى ذلك اليوم لا يبقى لها نفع وشريعة اسمى وأعظم تحلّ محلها إذ تتركها وراءها وتنقض جزءا منها .

وفي احتدام الجدال قال يسوع للفريسيين بكلام أوضح : « قد كانت الشريعة والانبياء حتى يوحنا . ولما اعلنت بشاره ملكوت الله والناس يدخلونه بقوة لا يدخلونه اغتصابا بل بالقوة الباطنة المصطادة من كماله الاسمى المتعالي .

وقد جاء يسوع الى العالم لكي يكون بداءة للشريعة الجديدة ولكي ينسخ الشريعة القديمة ويعلن بطلانها للناس ونقصانها . ولذا فاننا نرى يسوع يبدأ كل آية من آياته الجديدة بقوله ، « قد سمعتم انه قيل للقدماء » وفي الحال يضع مكان الوصية القديمة وصية جديدة فاما ينقح الشريعة القديمة أو يناقضها قائلا « أما أنا فاقول لكم ...»

أجل ، ان « أمّا » هذه قد كانت فاتحة عهد جديد في تاريخ التهذيب الانساني . ولكننا اذا كنا لا نزال حتى اليوم نتلمّس طريقنا الى السعادة على شنف الصباح فانما الذنب ذنبنا وليس يسوع بالملوم .

اما أنا فاقول

« قد سمعتم أنه قيل للاولين من القدماء لا تقتل . . . . أما أنا فاقول لكم ، ان كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة ، ومن قال لأخيه رقا يستوجب حكم المحفل ، ومن قال يا أحمق يستوجب

نار جهنم »

ان يسوع لم يكتف بان يحظر على الانسان أن يضرب أخاه الانسان ، أو أن يقتله ، بل انه تجاوز ذلك في شدة شريعته الجديدة فلم يأذن قط بالقصد أو بالرغبة في القتل ، فان لحظة واحدة من الغضب أو كلمة صغيرة من كلمات المذمة ، أو عبارة واحدة من عبارات الاحتقار والاهانة تساوي في عينيه جريمة القتل . ان ذوي النفوس الرخوة ، الخاملة ، يصيحون قائلين ، « ان هذا غلوٌ ! » ولكن كل عظمة تستلزم هوى وغلواً وليسوع منطقة وهو لا يخطىء . فان القتل انما هو منتهى حدٍ يقف عنده الهوى . فمن الغضب الى الكلام القبيح ، ومن الكلام القبيح إلى الضرب ، إلى القتل . فلا يكفي إذن أن يمنع الفعل الأخير ، الفعل الماديّ الخارجي الذي انما هو نتيجة فعل داخلي أفضى الى الضرورة اللازمة . فيجب إذن أن نستأصل جذور الشر ونحرق شجرة الغضب من أرض الحياة التي تحمل الاثمار السامة من اصولها .

أجل ان اخيل (١) بن فيلا ـ عندما ثار ثائر غيظه على الذين

---

(١) اخيل : او اكيلا : هو ابن فيلاوس ، وقد كان افرس ابطال الاغريق في حصار طرواده . ولكي تمنعه أمه عن الذهاب الى حرب طرواده ، ارسلته سرا الى بلاط ليقوميذية حيث اختبأ بثياب امرأة . ولما عجز عن فتح طرواده بدون معاونته ، ذهب اوليسيس (ملك ايثاكا) بزي تاجر الى بلاد ليقوميذية وعرض عليهم جواهر واسلحة للبيع . فاختار اخيل الاسلحة ، وبذلك عرفه

خطفوا سريته وسأل الالهة أن تحوله الى وحش ضار أكّال للحوم البشر لكي يغرز انيابه في جثث اعدائه ، أخيل ابن المرأة المفضضة القدمين ، قال : لعنة الالهة والبشر على الخصام والغضب اللذين يسخطان المرء ولو حكيما . وهذا السخط الذي هو أحلى من العسل يتعاظم في قلوب البشر وينتشر سراعا كالدخان . اخيل هذا بعينه بعد أن ذبح رفقاءه ، وبعد أن مات أعز اصدقائه ، عرف ماهو الغيظ الذي يلهب الصدور بمحبة الانتقام فيتعالى سعيرها حتى أن نهرا من الدم لا يطفئها . قد عرف ذلك البطل الحقود شر الغيظ بيد انه لم يهتد الى التخلص منه ، وقد تنازل عن غيظه على ملك العالم لكي يصب جام حنقه بالانتقام من جثة هكتور الصريع ·

الغضب كالنار تستطيع أن تطفئها عند الشرارة الاولى وان تأخرت عن اطفائها عند أول اشتعالها تفوتك فرصة التخلص منها . وقد نطق يسوع بالحق كله والصواب عندما حدد قصاصا واحدا لاول بادرة الاهانة وللقتل . لانه متى حنق كل واحد منا الحقد وابتلع

اوليسيس واخذه الى الحرب . وللحال قدم له فولكان اله الحرب درعا منيعة لا تؤثر فيها اسلحة الناس البتة . فسلب منه اغا ممنون صديقته بريسيس (او لابريسيا) ولاجل ذلك ابى ان يظهر في ساحة الحرب حتى اضطره موت فطرقل صديقه الى الانتقام . فذبح هكطور الذى قتل فطرقل ، ويقال انه قتل بسبب جرح صغير في رجله جرحه به فاريس ابن فريام الملك . وان اخيل بالحقيقة اعظم ابطال الياذة هوميروس .

اللعنة فلا خوف إذ ذاك من خصام اللسان أو البنان . فيمَّحي القتل فلا يبقى الا ذكرا اسود للحيوانية القديمة الضارية .

* * *

« قد سمعتم انه قيل للاولين من القدماء ،لا تزن، أما أنا فاقول لكم ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه » وهنا أيضاً نرى يسوع لم يقف عند حد الفعل المادي الذي وحده يقيم له الناس الاجلاف وزنا ، فانه يرتفع أبدا من الجسد الى النفس، ومن اللحم الى الارادة ، ومن المنظور الى غير المنظور . لأنه كما أن الشجرة تعرف من ثمارها كذلك البزرة تعرف من الشجرة ، والشر الذي يراه جميع الناس انما يرونه بعد أوانه لأنه متى نما وتأصل صعب استئصاله : لأن الخطيئة كالبثرة التي تظهر فجأة في جسم الانسان ، ولكنها لم تكن لتظهر لو عُنِيَ الانسان قبلا بتنقية دمه من الاخلاط السامة .

وعندما يطغي رجل امرأة غيره وتشاطره المرأة شهوته ، فقد تمت الخيانة ووقع الزنى سواء ذهبا الى السرير معا أم لم يذهبا فان الرجل لا يتزوج جسد المرأة فقط بل نفسها أيضا . فاذا اضاع هذه النفس فقد ضاع الجوهر معها ، ولكن اذا ضاع جسدها ، وهو جزؤها الاحقر ، فان خسارته محتملة بالنسبة الى خسارة نفسها ، وأما

المرأة التي يغتصبها رجل لاتحبه بالرغم من ارادتها فليست زانية البتة ، لأن الأمور بمقاصدها ، ولذلك وجب على كل من يود أن يحفظ نفسه نقية في العالم أن يمتنع حتى عن الشهوة العارضة ، الصامتة لأن النظرة إذا لم يوضع لها حد تكررت ، فمن النظرة إلى الكلام فالى القبلة . والحب لا يغتفر لمحبوب !

التفكير في الخيانة ، أو تصورها ، أو الرغبة فيها انما هو الخيانة بعينها والذي يقطع الخيط الأول ينقذ نفسه من أحابيل الضلال الذي تولد من نظرة تنمو حتى ان الموت ذاته بعد نموها لا يستطيع أن يقطعها . ولذلك أشار يسوع بقلع العين وطرحها جانباً إذا كانت مجبلة للعثرات والشكوك ، وقطع اليد وطرحها إذا كانت مصيدة للشر والفساد ، — وانها لمشورة ترتعش لها فرائص الجبناء حتى الاشداء أيضاً ، ولكن أشد الناس جبناً إذا أصابه السرطان في عينه أو في يده وتهدد حياته لا يتأخر لحظة عن أن يوافق على قلع عينه أو قطع يده واذا برز خرّاج في أمعاء أي كان من الناس فانه يبادر في الحال الى الجرّاح لكي يشق بطنه ويقطع الخرّاج من امعائه لانقاذ حياته من الموت . لأن الناس انما يهتمون بتخليص أجسادهم ولكنهم يضنون باقل تضحية في سبيل سلامة نفوسهم وخلاصها ، وهي لو فسدت لأمسى الجسد آلة صماء .

* * *

« قد سمعتم أنه قيل للقدماء ، لا تحنث بل اوف للرب »
« باقسامك : وأما أنا فأقول لكم ، لا تحلفوا البتة ، لا بالسماء ، »
« فانها عرش الله ، ولا بالارض ، فانها موطىء قدميه ، ولا »
« باورشليم ، فانها مدينة الملك العظيم ، ولا برأسك تحلف ، فانك »
« لا تقدر أن تجعل شعرة منه بيضاء أو سوداء . ولكن ليكن »
« كلامكم ، نعم ، نعم ، ولا ، لا ، وما زاد على ذلك فهو من »
« الشرير »

ان الذي يحلف لكي يثبت صدقه انما يظهر خوفه وضعفه ، والذي يحلف لكي يموه كذبه ويلبسه ثوب الصدق فهو خؤون غدار . فالأول يعتقد بان الاله الذي حلف باسمه يعاقبه إن لم يكن قد تكلم بالصدق ، والثاني دجال محتال يغتنم الفرصة لينتفع من تصديق غيره إياه من ذوي الضمائر السليمة الذي سهل عليه أن يخدعهم . والحلف في كلا الحالتين شرّ لاننا ونحن بشر ضعفاء عندما نستدعي قوة من قوات السماء لكي تكون شاهداً أو قاضياً في متناقشاتنا الدنيئة التي تقودنا اليها رغائبنا المتضاربة ، ونحلف برؤوسنا أو رؤوس أولادنا ونحن أحقر من أن نغيّر مظهر أحقر جزء في أجسامنا انما هو تعجيز محال وتجديف . لان الرجل الذي ينطق بالصدق لا عن خوف من العقاب بل عن رغبة طبيعية في نفسه لا يحتاج إلى اللياذ بالحلف . فضلا عن أن الحلف لا يرسّخ عقيدة

حتى الذين يظهرون أنهم قد اقتنعوا به . والتاريخ يدلنا على أن الاقسام كثيراً ما نقضت ونكثت . وذلك الذي يغمس يمينه بالايمان المغلظة انما هو الذي يفكر في نقضها

* * *

« قد سمعتم انه قيل ، اكرم اباك وامك ، اما أنا فاقول لكم ، من أحب اباه وامه أكثر مني فلا يستحقني ، » وأيضاً « ان كان أحد يأتي الي ولا يبغض أباه ، وامه ، وامرأته ، وبنيه ، واخوته ، وأخواته بل نفسه أيضاً فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً » وفي هذه الآية ايضاً نرى ان الوصية القديمة التي تربط العالم الجديد بالعالم القديم برباط الاحترام قد نقضت كل النقض .

ان يسوع لا يرذل المحبة البنوية بل انما يضعها في مقامها الذي ليس هو المقام الاول كما كان الاولون يظنون . ان أعظم وأطهر واتقى محبة على وجه الارض انما هي المحبة الوالدية لان الاب يحب في ابنه المستقبل والشباب ، والابن يحب في أبيه الماضي والشيخوخة ، ولكن يسوع انما جاء لكي يغيّر الماضي ، لان احترام الوالدين وكل ما يحصرنا في التقليد والعائلة يحول دون تجديد العالم . وان المحبة لجميع الناس لافضل من محبة من اعطونا الحياة . وخلاص جميع الناس لافضل بما لا يقاس من خدمة الاسرة الضيقة المعدودة . والانسان لا

يستطيع أن ينال الافضل ما لم يضحّ بالادنى . انه يسهل علينا الاّ نحب الا ذوينا فنتخذ من محبتهم — وكثيراً ما تكون اضطرارية أو مصطنعة — عذراً على عدم صداقتنا لسائر الناس . ولكن الرجل الذي يقف حياته لعمل يسموه فان هذا العمل العظيم يتطلب كل قواه ويستغرق ساعات عمره حتى النسمة الاخيرة . لان من يرغب في أن يتجرد للخدمة العامة بروح متضعة تحب الجميع على السواء فانما عليه أن يجرد نفسه من كل محبة أو عاطفة اخرى تجريداً كاملاً ، فان من يودّ أن يكون اباً بالمعنى السماوي السامي — وان لم تكن له الابوة الجسدية — لا يستطيع أن يكون الاّ ابنا

« دع الاموات يدفنون موتاهم ! »

كان في الشريعة القديمة وخصوصاً في تقاليدها الفضلى ، مئات من الأوامر والوصايا لتطهير الجسد ، وصايا دقيقة ، مملة ، معقدة لا أساس لها لا في السماء ولا في الارض وقد جعل الفريسيون المحافظة على هذه التقاليد أفضل فضيلة في الدين . لانه أسهل على الانسان أن يغسل كأساً من الزجاج من أن يغسل نفسه . فان المادة الميتة كالكأس لا تحتاج في غسلها الى أكثر من خرقة وماء ، ولكن تنقية النفس تقتضي دموع المحبة ونيران الارادة

« ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان بل ما يخرج من الفم هو

الذي ينجس الانسان . اما تفهمون ان كل ما يدخل الفم ، يدخل الجوف ويخرج الى المرحاض ؟ واما الذي يخرج من الفم فمن القلب يصدر ، وهو الذي ينجس الانسان . لانها من القلب تخرج الافكار الرديئة ، القتل ، والزنى ، والفجور ، والسرقة ، وشهادة الزور ، والتجديف . »

ان الاستحمام بماء البئر أو بماء النبع العذب ، سواء كان استحماماً جسدانياً بسيطاً أو طقسياً رمزياً وفقاً لعادة أو تقليد ، لا يمكنه أن يغني الانسان عن التطهير الداخلي الروحاني ، وانه لافضل أن تأكل بايد متوسخة بعرق العمل والنشاط من أن تطرد اخاك بيدين مغسولتين ثلاثاً بالماء .

أقذار الجسم تصير سماد الحدائق والبساتين . ولكن هنالك كثيرين من الناس المتأنقين بملابسهم وظواهرهم قد امتلئوا الى حلوقهم من نوع اخر من الاقذار التي تنتشر رائحتها الكريهة بكل كلمة تخرج من أفواههم القذرة التي باطلا يغسلونها أو ينظفونها . وهذه الاقذار لا تجري في القناة بل انها توبىء الهواء ، وتفسد حتى الابرار . من امثال هؤلاء الناس الوسخين المنجسين يجب أن نبتعد ، ولو انهم استحموا أثنتي عشرة مرة في اليوم ، لان غسل الجسد بالماء والصابون لا ينقي الانسان اذا كانت الافكار التي تخرج من قلبه فاسدة بل ان الرجل الذي يكنس المدينة ، اذا لم يفكر في الشر ، لهو ألف

مرة ، أطهر من الرجل الغني الذي — اذ يستحم في جرن حمامه الرخامي بالمياه المعطرة — يفكر في خيانة جديدة وفجور جديد .

لا تقاوموا الشرير

لكن يسوع لم يبلغ حتى الان الى اغرب « بدعة » « سمعتم انه قيل للقدماء ، عين بعين ، وسن بسن ، أما أنا فاقول لكم. لا تقاوموا الشرير ، . بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الايسر ، ومن اراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الردا أيضاً ، ومن سخرك ميلا واحدا فامش معه ميلين »

ان شريعة الانتقام القديمة لا يمكن أن تنقض باشد وامضى من هذا الكلام . فان معظم الناس الذين يسمون أنفسهم مسيحيين لم يحفظوا هذه الوصية الجديدة فقط بل انهم ما احبوا أن يتظاهروا بقبولها وأعرضوا عنها كأنها لم تكن . هذا المبدأ القاضي بالاعراض عن مقاومة الشر قد كان للعديدين من المؤمنين عثرة لا تطاق وشكا لا يحتمل في المسيحية .

الطرائق ثلاث لمقاومة الشر : الانتقام ، أو الهرب ، أو تحويل الخد الآخر ، أما الاولى فهي شريعة الثأر البربرية : التي شرّفت وموّهت في القوانين وما زالت معمولا بها بين الامم : فهم يقابلون

الشر بالشر اما بان يرد المعتدى عليه الاساءة الموجهة ضده بمثلها بيده أو بواسطة أولئك الوسطاء العميان ، الذين يمثلون نقائص المدنية العشائرية الحاضرة ، والذين نلقبهم بالقضاة والمنفذين . لان مأموري العدالة يضيفون الى الشر الذي يفعله الانسان شرا اخر باحكامهم البعيدة عن العدالة وكثيرا ما يعود شر العقاب على الثائر المنتقم فيؤدي الانتقام الى سلسلة من الشرور تمتد حلقاتها امتداداً لا نهاية له . لان الاضرار بالغير سيف ذو حدين يؤذي الضارب والمضروب ولو كان يقصد من انتضائه الخير سواء كان ذلك في الامم ، ام في العائلات أم في الافراد لان الجريمة الاولى تجر ورائها طوائف من التأديبات والكفارات التي ينال وبالها المجرمين ومن أجرموا اليهم على السواء . على أن الشريعة القاضية بالانتقام ربما خففت بعض التخفيف الحيواني عمّن وقع عليه الاعتداء أولا ، ولكنها بدلاً من أن تنقص الشر تزيده .

أما الهرب فما هو بالطريقة المثلى . ان العدوّ يضاعف همته إذا توارى عنه عدوه . واحيانا قد يقيّد الخوف من الثأر ، يد المعتدي لكن من يفرّ يدعو عدوه الى مطاردته ومن يتماوت يهيب بعدوه الى الاجهاز عليه . ان الجبانة قد تكون مؤتمرة مع شر المجرم . وهنا أيضاً نرى الشر يلد الشرّ .

وأما تحويل الخد الآخر ، وهو المبدأ الذي علّم به يسوع ، فمع

أنه يبدو مستحيلاً لاول وهلة ، فانما هو الوسيلة الوحيدة لمقاومة نيران الشر واخمادها . لانه إذا لطمك رجل بكفه ، فقابلته انت بلطمتين فلا يلبث أن تتماسكا وتتلا كما ثم تستلان السيوف ، وربما فقد أحدكما حياته لاتفه الاسباب واذا هربت طاردك خصمك فاذا لحقك جراه الاختبار ورفسك برجليه رفساً .

أما تحويل الخد الثاني فانما هو الحؤول دون الضربة الثانية ، بل هو قطع الحلقة الاولى من سلسلة الشرور التي لا مناص منها فان خصمك الذي كان متوقعا منك مقاومة أو فراراً يتصاغر في عينيك وفي عيني نفسه لانه كان منتظرا كل شيء ما عدا هذا ! وإذا خجله أصبح عارا في عينيه ! هدؤك يبرد حدة غضبه ويفسح له مجال التفكير ولا يستطيع أن يشكو من اثارتك سخطه وانت لم تقاومه . ولا يستطيع أن ينسب اليك الجبانة لانك مستعد للضربة الثانية وأريته بنفسك الموضع لكي يصفع عليه . كل انسان يحترم الجرأة في غيره ، ولا سيما الجرأة الادبية وهي اندر ضروب الشجاعة واصعبها فالرجل المهان الذي لا يغضب ولا يهرب ، يظهر شجاعة نفس وقوة على ضبط أميال نفسه ، وصدق شجاعة ، ومضاء عزيمة اكثر من الرجل الذي يعميه غضبه فيهجم على المعتدي ليرد له الشرّ شرّين وان الهدؤ إذا لم يكن بلادة ، والدعة اذا لم تكن جبنا فضيلتان عجيبتان تدهشان النفوس الاعتيادية كما تدهشها سائر الغرائب . وتشعران

« البهيمة » ان هذا الرجل هو أكثر من رجل و « البهيمة » التي لا تستثيره المقاومة والفرار ، يظل راكدا ، باردا ، هائبا ، خائفاً ، امام هذه القوة الجديدة التي كان يجهلها والتي تفتّ في روحه .

فضلاعن أن الذي يضرب قد سبق وفكّر في غضب من اعتدى عليه وفي مقاومته ، وله في لذة هذا القتال الذي يولّده الخصام منشّط عظيم . فان الانسان حيوان محب للحروب والقتال ولكن لذته هنا قد زالت واضمحلت شهوته لم يبق امامه خصيم بل رجل أعلى يقول بسكينة نفس « اما اكتفيت ؟ » هوذا خدي الآخر ، فاضرب ما شئت ! لانه احب الي أن يتألم وجهي ولا تتألم نفسي . انك قادر أن تعذبني لكن لا أن ترغمني على أن أصير جافيا غليظا غضوباً مثلك . لا تستطيع أن تضطرني البتة أن اصنع الشر معتذرا بهذا العذر : وهو أني انال الشر .

الا أن العمل بحرفية وصية يسوع هذه انما يتطلب قوة تتسلط على الاعصاب والغرائز في النفس الساقطة . اجل انه لواجب ثقيل اليم . ولكن متي قال لنا يسوع انه سهل فهو لم يقل قط ان في وسع بشر ان يتبع خطواته من غير أن يفكر في ذاته ويعلن في أعماقه حرباً سجالا ضروسا ويخلع ادم العتيق ويولد بشراً جديداً . لكن ثمار عدم مقاومة الشر حتى ولو لم تنعقد دائماً ، حتى ولو انتثرت بهبوب أول ريح — ، لأفضل كثيراً بما لا يقاس ، من ثمار المقاومة

والهرب . ان مثال هذه القوة الروحية النادرة ، التي تقصر عقول عامة الناس عن ادراك كنهها وعن تصويرها ممكنة التحقيق ، وهذا الدافع فوق الطبيعي الذي يحرّك الى أعمال تغالب اميالنا واهواءنا وتناقض عاداتنا ، هذا المثال ، هذا مظهر القوة ، هذه الاعجوبة المستحيلة ، غير المنتظرة ككل اعجوبة ، الصعبة الفهم ككل معجزة هو مثال رجل قديس نشيط مظهره مظهر انسان ، لكن مخبره يشبه مخبر اله ، أو مخبر امرىء متباين متسام على سائر الخلائق ، متعالٍ عن القوى التي تحرك أمثاله وتسيّرهم ، — هذا المثال اذا تكرر مرة بعد مرّة ، ولم تلصق به البلادة ، وصحبته مظاهر الجرأة الطبيعية — متى كانت هذه الجرأة ضرورية للنفع لا للضرر . هذا المثال له نفوذ فعّال عظيم نستطيع تصوره ، على الرغم مما نحن فيه من الرغبة في الانتقام .

اجل اننا نتصوره بعد بذل الجهد ، غير أننا لا نقدر أن نبرهن عليه بالاختبار لانه ليس لنا شواهد كثيرة لنتمكن من ذكر اختبار ، ولو بسيطاً ، لتأييد هذا التصوّر .

على أن عدم طاعة وصية يسوع هذه أو ندورة العاملين بها لا يدلان على أن القيام بها يستحيل تحقيقه ، أو أنه يجب عدم التقيد بها لشدة صعوبتها فهي مضادة الطبيعة البشرية على خط مستقيم ، ولكن جميع انتصاراتنا الادبية الحقة يجب أن تضاد طبيعتنا . لان

هذه الوصية هي المبضع الخلاصي لدمل كاد يودي بجزء من نفوسنا —وربما كان هذا الجزء أشرف أجزاء النفس في الكثيرين منا — ولذلك فلا غرو أن ترتعش قلوبنا عند رؤية مبضع الجراح .

ان وصية يسوع هي وحدها التي تحل مشكلة الشر والاذى : هي المبدأ الوحيد الذي لا يضيف شراً الى شر ولا يضاعف الظلم الى مائة ضعف ـ المبدأ الذي يكسب على الجرح بلسم الشفاء قبل أن يتأصل فيه الداء ، ويستأصل البثرة قبل ان تمو .

ان مبادلة لطمة بلطمة ، واذى باذى هو قبول ورضى بمبدأ الرجل الشرير واعتراف منك بانك مثيله . واما الفرار فهو تحقير نفسك امامه وتحريضه على مهاجمتك ، واما أن تجيبه بكلمات التعقل على غضبه الثائر فهو نفخ في رماد . ولكن ان تجيبه باشارة قبول وتقدم صدرك لمن رام ان يضربك على ظهرك وتعطي الفا الى من يسرق منك مئة وتصبر ثلاثة أيام على من يريد أن يضايقك ساعة . هذا هو عمل الشجاعة الباهر وان كان يظهر بمظهر الجبانة وهو العجيب في انتصاره على وحشية المهاجم بعظمة الالهي التي لا تقاوم .

من قهر ذاته يستطيع أن يقهر عدوه . وانما القديسون وحدهم يحوّلون شراسة الذئاب . والذي جدد نفسه انما هو وحده يستطيع أن يجدد نفس اخوانه ويعمل على ان تصير الحياة على الجميع اقل شقاء وعناء .

ضد الطبيعة

ان عدم مقاومة الشر بالشرّ مخالف لطبيعتنا كل المخالفة ، لكن يسوع هو في العالم حتى تتوصل طبيعتنا الى مقت ما يشوقها اليوم والى محبة ما كان بالامس يرعبها . كل كلمة نطق بها ، تفرض هذا التجديد في النفس البشرية فهو يناقض ، بغير خوف ، أعمق غرائزنا وأعم اميالنا و يمتدح مما نتجنبه ويرذل ما يبحث عنه الجميع . انه ما يكتفي أن يكذّب ما يعلّمه الناس — وهم غالباً يخالفون ما يعتقدون ويعلّمون — بل هو يناقض أفكارهم وأعمالهم اليومية .

ان يسوع لا يقول بكمال النفس الطبيعية ، النفس الاولى بل انما يعتقد بكمالها المزمع المقبل الذي لا تبلغه الاّ بقلب الحالة الحاضرة رأساً على عقب ، وقد انحصرت رسالته باصلاح الانسان بل با كثر من الاصلاح : وهو صنعه من جديد . به قد بدأ النسل الجديد ، الذي هو نموذجه و كماله ومثاله الاعلى : آدم الانسانية المتجدد على صورة جديدة .

شاء سقراط أن يصلح العقل ، وموسى اصلاح الشريعة ، وا كتفى غيرهما باصلاح طقس أو قانون أو نظام أو علم ولكن يسوع لا يريد أن يغيّر جزءاً من الانسان بل الانسان كله جميعاً : الانسان الداخلي المحرّك ، أصل كل كلمة و كل عمل . اذن لا شيء خارج عن

حد صلاحيته . فما له أن يتسامح بشيء ، ولو طفيفاً ، للشرّ ، ولا مجال للتوفيق بينه وبين الطبيعة الناقصة . فهو لا يتوسع في تبريرها ، كما هو شأن الفلاسفة ان الانسان لا يستطيع أن يخدمها ويخدم يسوع معاً . من كان مع يسوع فهو على الطبيعة الحيوانية العتيقة ويسعى لانتصار الطبيعة الملائكية وما بقي فهو لغوٌ هراء .

لا شيء اشيع عند النـاس كمحبة الغنى . وحشد المال ، بكل الوسائل ، حتى بافضحها واقبحها ، قد كان احب الاعمال واعذبها . لـكن من أحبّ أن يتبع يسوع يجب أن يترك كل شيء له ويرضى ان يقايض الخيرات الحاضرة المنظورة بالخيرات المقبلة غير المنظورة . اذن لا بد من الفقر ليـكون المرء من أبناء الملكوت .

كل امرىء يفكّر في الغد مغتمـا . وهو ابداً خائفٌ : أن تهبط الارض تحت قدميه ، وان لا يـكون له من الخبز ما يـكفيه الى حلول الحصاد المقبل ، وان يضيق القماش عن ستره وستر اولاده لكن يسوع قد قال : « لا تهتموا بالغد . يكفي كل يوم شره . »

كل انسان يود ان يـكون أول حتى بين قرنائه ، وان يتزعم بنوع من الانواع على من يحيطون به . وأن يتحكم ويتسلط ، وان يظهر أعظم منهم وأغنى ، وأجمل ، وأحكم . ان تاريخ الانسـان انما هو تنازع رائع على من يـكون اول ومن يكون ثانياً ، لكن يسوع قد علـم « من اراد ان يكون فيكم اول فليكن آخر الجميع وخادما

والاكبر هو الاصغر . والاقوى فليخدم الاضعف وان من اتضع ارتفع ومن ارتفع اتضع . »

والعُجب ، هو برص آخر للناس يُسم حتى الخير لان هذا اليسير من الخير الذي يعملونه انما يعملونه ليراهم النـاس . يصنعون الشر سراً والخير في الاسواق جهراً . ويسوع يأمر بالعكس :

لا تدر شمـالك ما صنعت يمينك ومتى صليت فادخل مخدعك ولا تقرع صدرك على زوايا الشوارع بين النـاس . واذا صمت فلا تعبس وجهك ليروك تائباً . فادهن رأسك وابتسم بوجهك كسـائر الايام ، لا تصنع الشر أبداً لا سراً ولا جهراً واختبىء لئلا يظن الناس انك تصنعه لطلب المدحة .

ان غريزة حب البقاء هي اقوى غرائز المتسلطين علينا فاننا لا نحجم عن الفحش والقهر والجبانة متى كان في سـبيل حفظ — هذا اليسير — من التراب الحيّ . لـكن يسوع يعلم : من أراد أن يحفظ حياته يخسرها ومن يخسرها يحفظها . لان ما يسميه العدد الاكبر حياة ليس هو حياة حقيقية . ومن يخسر النفس يخسر الجسد أيضاً .

كل انسان منا يريد أن يدين اخوانه ومتى جلس على كرسي القضاء خيل الينا انه أعلى منهم وأفضل وأعدل لـكن من شكا نفسه فقد تنقى وتبرر . وفي الواقع ان الاحدب انما يفضحه ظهره المحدوب. لـكن يسوع يقول : « لا تدينوا فلا تدانوا ، لانكم بالدينونة التي

بها تدينون تدانون . . . اغفروا فيغفر لكم . . . »

كل رجل يفاخر انه هو الرجل الرجل : مترصّن ، ناضج متفقه، معتدل محترم . يعرف كل شيء، ويبرهن على كل شيء، ويقضي في كل شيء ، اذا سمع خطابا يفيض اخلاصا قال انه صبياني واذا رأى رجلا ساذجا قال مستهزئا انه صبيّ . ولكن عندما سأل التلاميذ يسوع : من هو الاعظم في ملكوت السماوات اجابهم يسوع : اذا لم «تتغيروا» وتصيروا مثل هؤلاء الاطفال فلا تدخلون ملكوت السماوات .

ان الرجل المترصن ، التقي ، النقي ، الفريسي ، يبتعد جهده عن معاشرة الخطأة ، ولا يقبل على مائدته الا الصديقين ، أو على الاقل الذين يظنهم كذلك . لكن يسوع يصرّح ، ولا يملّ ، انه انما جاء ليدعوا الخطأة لا الصديقين ، والاشرار لا الابرار ، ولا يستحي أن يؤاكل العشارين ويدع الزواني التائبات يغسلن قدميه بالناردين . من كان حقاً طاهراً نظيفا ، فلا يدنّسه اختلاطه بأي من كان ولا ينبغي له أن يدع اخوانه يموتون في الفساد — خوفا على نفسه من أن تتوسخ .

بخل الناس عظيم ، وكل واحد يتحذّق ليأخذ كثيراً ويردّ قليلا . الجميع يسعون ليأخذوا : ان المديح على الجود انما هو قناع لطيف يغطي التكفف . لكن يسوع يؤكد انه خير للرجل أن يعطي من أن يأخذ .

نحن نبغض أكثر الناس الذين نعيش معهم لاجل ما عندهم ، ولاجل انهم لا يعطوننا ، واليسير من العناء الذي يأخذونه منا لانهم مختلفون عنا — لانهم يحيون . ولقد نتوصل الى بغض اصدقائنا حتى الذين أحسنوا الينا ويسوع يأمر بمحبة الناس وان نحبهم جميعهم حتى الذين يبغضوننا .

من لا يعمل بهذه الوصية لا يمكنه أن يقول انه مسيحي . حتى ولو دنا من الموت ولم يحب قاتله فلا يستطيع أن يقول انه مسيحي . لان حب ذواتنا الذي هو المبدأ الاول والاخير لبغضنا غيرنا ، هو موجز أميالنا أو أهوائنا فمن انتصر على حب ذاته وبغض غيره فقد تحول ، والباقي انما هو نتيجة وتحول طبيعي . فان بغض الذات وحب الاعداء هما مبدأ المسيحية وغايتها وأعظم انتصار على الانسان القديم الاعمى الضاري . فالناس لا يسعهم أن يولدوا ثانية في غبطة السلام طالما لا يحبون الذين يسيئون اليهم . أن حب الاعداء هو الوسيلة الوحيدة حتى لا يبقى على الارض عدو .

قبل المحبة

ان ناكري يسوع ـ ولديهم الف سبب ، لان الاعتقاد بالمسيح إنما هو نكران لذواتهم ، وهم لا يرون ما يربحون من هذا البدل ،

ثم هم شديدو الخوف من الخسران ، لانهم متشبثون ايما تشبث بهذه الكناسات التي هي لهم غنىً وفخار — ان ناكري المسيح قد مضوا يبحثون ، منذ بعيد ، لكي يحسنوا تبرير نفوسهم عن عدم اتباعه ، عن سبب آخر ، عن سبب « علمي » يظهرون به أنه لم يقل شيئاً جديداً . أن تعاليمه ، قد علّمها الشرق والغرب منذ قرون . فما هي من العظمة حيث ظنوا وما علينا الا أن نسمعها . فللجهال أن يعجبوا به والسذّج أن يطيعوه .

هؤلاء الحكمَ المتبجّحون بعلم الانساب الوهميّة لا يقولون ماهي قيمة تعاليم يسوع ، عتيقة كانت أو غير عتيقة . وانهم لا يجرؤون يؤيدوا : ان تجديد حقيقة عظيمة متروكة منسيّة ! واثباتها بالموت ، هو شيء كلا شيء .

وهم لا ينظرون : هل بين تعليم يسوع والتعاليم السابقة جوهر الروح والمعنى حقيقة ، أو أن هناك ، بالاحرى ، جناسا وشبها لفظيا بعيدا ، لكنهم — وهم في هذا الشك متربصون — يرفضون شريعة يسوع — أو شريعة معلّميه الموهومين — ويظلون يعيشون مرتاحين ، عيشتهم : عيشة الخنازير كأن الانجيل لم يبعث اليهم هم أيضاً .

كان زمان ، بعد اذاعة الشريعة ، فيه كان ذوو الرحم لحمًا يتحابون ، وفيه سكان المدينة الواحدة يتساهلون فيما بينهم ويتراعون ، والغريب — ان لم يكن ضيفا — ما كان ليتوقع الا بغضا واستئصالا .

في العائلة يسيرٌ من الحبّ ، وفي المدينة : عدل تقريبيٌ اما خارج الاسوار والتخوم فبغض لا ينطفي .

إذ ذاك علت بعض أصوات ، في حقبات القرون من متقطعة ، لتطلب شيئاً من الحب خارج العائلة ، بين رجال الامة الواحدة ، وشيئا من العدل حتى للغريب ، وحتى ، للعدو ، وقد كان ذا تقدماً باهراً ، لكنّ هذه الاصوات الضعيفة ، المتباعدة ، ما سمعت الا ندورا وما اطيعت قط .

قبل المسيح باربعة قرون قام حكيم في الصين اسمه ماتي وكتب كتاباً كاملاً : « كيا ـ سيان ـ غي » ليقول أن الناس ينبغي أن يتحابوا . قال « ان الحكم الذي يود تحسين العالم لا يستطيعه الا اذا علم حق العلم ، أصل الاضطراب . . . » لماذا تنشأ الاضطرابات ؟ لاننا نحن لا نحب بعضنا بعضاً . فان العباد والاولاد قل احترامهم الحكام والآباء . . . والاخوة الصغار يتحابون ولا يحبون اخوانهم الكبار . . . والاب لا يرفق بابنائه والشقيق الكبير بالشقيق الصغير ، والامير بعباده . الاب يحبّ ذاته ولا يحبّ ابنه وهو يضرّ ابنه ان كان في الضرر نفع . . . وهكذا قطاع الطرق ، تحت عين السماء ، يحبون بيوتهم ويخربون بيوت غيرهم ليملأوا بيوتهم . واللصوص يحبون اجسادهم ولا يحبون الناس ولذلك يسرقون اموال سواهم لخير أجسادهم . فلو كانوا يراعون اجساد غيرهم كما يراعون اجسادهم فمن

كان يسرق ؟ . . . فلو انتهى الناس الى الحب الشامل المتبادل لما اقتتلت الممالك ولا اضطربت العائلات ولتوارى اللصوص واحترم الامراء والعباد ، والآباء الابناء وتساهلوا ولاصطلح العالم باسره »

ان الحب ، بزعم ماتي — وبالاحرى هذا الشعور الممزوج بالاحترام والتساهل هو الكلس الذي ينبغي ان يدعم الشعب والحكومة ويربطها معاً : هو الدواء لكل شرور الحياة ، اجمالاً ، هو « الترياق » الاجتماعي الشافي .

ولقَّن « لاوتسي » الغامض باستحياء ، ان : « قابل الاساءة باللطافة » . لكن اللطافة عذوبة وفطانة لا محبة .

وفي ذلك العهد ذاته كان كنفوشيوس (١) ينشر تعليماً يوجب

(١) كنفوشيوس أو كنغ ـ فو ـ تسا المعلم كنغ ، هو احكم حكماء الصين ولد نحو سنة ٥٥٠ قبل المسيح ، في ولاية شانتونغ التابعة اذ ذاك لمملكة لو . وقد مات ابوه بعد ولادته بثلاث سنوات فربته امه في حالة فقيرة جداً . ولكنه لم يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى انتظم في سلك الخدمة السياسية ولما بلغ الرابعة والعشرين استعفى من هذه الخدمة ليقوم بواجبات الحداد على امه المتوفاة مدة ثلاث سنوات . وفي تلك المدة انصب كل الانصباب على درس التاليف القديمة لحركه ما رآه من الاداب الى محاولة ترجيع العادات القديمة وتعاليم الحكماء والقدماء فشرع بالاستعداد للقيام بحق ذلك . ولما بلغ سن الثلاثين انخرط في سلك المعلمين ، فذاع صيته وكثر عدد تلاميذه ومحبيه . ولكي يوسع دائرة انتشار تعاليمه كان يذهب من مدينة الى مدينة واعظا ومعلما للاهلين . وفي سنة ٥٠٦ قبل المسيح رجع الى بلاده وتسلم وظيفة سياسية وتبوأ مسند الصدارة العالي ،

— على زعم تلميذه تسنغ ـ تسي (١) استقامة القلب ومحبة القريب

ولكنه اضطر ان يتركه بسبب حبل احد امراء البلاط عليه . ومن تلك الساعة هجر الخدمة العمومية وذهب مع بعض من تلاميذه الى البلاد الاميروي وقضى بقية حياته في نشر تعاليمه ومات سنة ٤٧٩ قبل المسيح وكان له من العمر ٧٢ سنة وذلك قبل ولادة الفيلسوف اليوناني سقراط باحدى عشرة سنة ولكنه نال حظا اوفر من حظ سقراط اذ انه اشتهر جدا في مدة حياته وقدمت له الامة اعتبارا يكاد يكون كاعتبار الالهة . ولا يزال نسله حتى اليوم محفوظا في رتبة مفرزة عن باقي الاهلين . وان عبادة هذا الفيلسوف هي الان الديانة الغالبة في الصين ، ففي البلاد ما ينيف على الفي هيكل على اسمه ، وجميع المعلمين والعلماء يحترمون اسمه . ويجب على كل ولد ان يركع امام صورته المعلقة في جميع المدارس. اما تعاليم هذا المعلم فمحصورة في كتبه الخمسة ، ففي الكتاب الاول اوضح علاقة الملك بالرعية وفي الثاني علاقة الوالدين بالاولاد ، وفي الثالث علاقة الرجل بالمرأة، وفي الرابع علاقة الاخوة بعضهم مع بعض وفي الخامس علاقة الاصدقاء بيد أن هذا الفيلسوف العظيم لم يذكر بين العلاقات المهمة ، العلاقة أو النسبة الاولى التي هي بين الانسان وخالقه . اما الفضائل التي كتب عنها فحصرها في خمسة انواع ، المحبة ، والبر . والاحتشام . والمعرفة . والايمان . وقيل هي السخاء . والعدل والمطف ، والحكمة والبساطة ـ ولم يقدم فيها رأيا او امرا بخصوص واجبات الانسان نحو الله . بل قال في مقدمة وصاياه « احترم جميع الالهة ولكن ابعدهم عنك » وقال ايضا « ملعون هو أول من صنع صنما » وعندما أشرف على الموت ، زاره صديق له اسمه « صي لو » وطلب منه ان يصلي . فاجابه الحكيم. « وهل يليق بي ان اصلي ؟ قال. نعم ، فقد قيل صلوا للالهة السماوية والارضية « فقال كنفوشيوس « انني قد صليت منذ زمان طويل » .

(١) تسنغ تسي : فيلسوف صيني مشهور . ولد في سنة ٤٠٠ ق . م . وتوفي نحو سنة ٣١٤ ق . م . وهو تلميذ كنفوشيوس وعلى مذهبه . وقد

كمحبة النفس : انظروا : محبة « القريب » لا « البعيد » ، الغريب ، العدو . و « كمحبة نفسه » لا « اكثر من نفسه » قال كنفوشيوس بالمحبة البنوية والرفق الضروري لازدهار الممالك ولكنه لم يحلم قط بالقضاء على البغض وفي « لوُن ـ يو » حيث نقرأ أمثال تسنغ ـ تسي، نجد هذه الكلمات منقولة عن أقدم نسخة كنفوشيوسية : « الرجل البارّ ، الانساني ، هو وحده ، قادرٌ ان يحبّ الناس و يبغضهم ، كما يليق »

ومعاصره غوتاما (١) اوجب محبة جميع الناس ، حتى ابأس البائسين ، واحقر المحتقرين لكنه أيضاً اوجب هذه المحبة ذاتها لاصغر الحيوانات ولجميع الكائنات الحية .

في « البوذية » ليست محبة الناس الا تمريناً نافعاً بقصد استئصال محبة الذات التي هي دعامة الحياة المادية ، يريد بوذا ازالة الالم ولازالة الالم لا يرى من وسيلة الا ان يغرق النفس العمومية في « نرفانا » (٢) : في العدم . فالبوذي لا يحب اخاه حباً باخيه بل حباً بنفسه :

انزل منزلة استاذه من الاكرام . قال بعض المؤلفين ان لهذا الرجل واستاذه تصانيف كثيرة في الفلسفة العقلية وهي غاية في الاعتبار عند اهل الصين الى يومنا هذا .

(١) غوتاما : هو غوتاما بوذا مؤسس الديانة البوذية

(٢) كلمة صينية معناها الراحة المطلقة من الوجود ، وهي في الديانة البوذية منتهى الصلاح .

ليتجنب الالم، ويتسلط على الانانية، ويخطو خطوة نحو « الفناء ». وحبه العمومي، بارد، نفعيّ، انانيّ هو ضرب من « اللافريقيّة » الرواقيّة، سواء عنده الالم والفرح.

في مصر كان الجثمان يحمل معه الى القبر نسخة من « كتاب الاموات » درأة للنفس امام محكمة اوزيريس [1] فكان الميت يتباهى قائلاً: لم اجوّع احداً! ولم ابك احداً! ولم اقتل! ولم آمر بقتل احد ظلماً! ولم اسلب شيئاً من احد! اعطيت الجوعان خبزاً والعطشان ماء والعريان كساء، والمسافر الموقوف مركباً، وقربت للالهة ذبائح، واقمت للاموات ولائم » نجد هنا البر وأعمال الرحمة. — ولكن هل اتمّوها حقاً؟ — لكننا لا نجد ابداً الحب، واقل من ذلك ايضاً، حبّ الاعداء القدماء، وهذه هي اعمال الرحمة في شريعتهم.

ولكي نعرف كيف كان المصريون يعاملون اعداءهم فلنقرأ هذه

---

(١) اوزيريس: أحد الهة المصريين القدماء. ويزعمون انه ابن جوبيتر وينوبا. تزوج بامرأة تسمى ايوجين فهاجرت به الى مصر خوفا من يونون امرأة جوبيتر. واسمه هذا كلمة عبرانية معناها روح الدنيا او مدير جميع الكائنات والظاهر انهم كانوا يعنون به الشمس. وفي الخرافات ان تيفون اله الشر انتصر على اوزيريس اله الخير وقتله. ولكن اوزيريس عاش ثانية وتغلب على تيفون اله الشر. وقد تزوج اوزيريس امرأة اخرى اسمها ايزيس ولا تزال تماثيله وتماثيلها حتى اليوم

الكتابة من الملك العظيم فيو بس ميريري الاول : ذهب هذا الجيش بسلام ، فدخل بلاد « هيروشايتو » كما شاء ذهب هذا الجيش بسلام : فاضرم النار في كل منازلهم . ذهب هذا الجيش بسلام : فذبح جنودهم ربوات وربوات ، ذهب هذا الجيش بسلام : فساق عدداً عديداً من الرجال والنساء والاولاد . وبهذا اكثر مما بغيره تُسر قداسته وتفرح »

وترك ايضاً زاراسوسترا (١) للايرانيين شريعة . تأمر هذه الشريعة عباد « اهورامازدا » ان يرفقوا باخوانهم في الايمان فيكسوا العراة ويطعموا الجياع من العمال فهي ابدا مقصورة على المحبة المادية لمن يلوذون بنا ويخدموننا ، وينتسبون الينا — اما الحبّ فلا —

قالوا ان يسوع لم يكن لديه ما يزيده على الشريعة الموسوية ولم يعمل الا ان ردد الوصايا القديمة متفخما فيها . قال موسى في سفر الخروج « لا تشفق عينك ، نفس بنفس ، عين بعين ، سن بسن ، يد بيد ، رجل برجل ، حرق بحرق ، جرح بجرح قض بقض » واما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيباً فلا تستبق منهـا نسمة ما ، بل تحرمها تحريمـاً ، ولا تشفق عينك » . خطوة واحدة وتنتهي الى الحب : « لا تضطهد الغريب ولا تضايقه ، فقد كنتم أنتم أيضـاً غرباء في أرض مصر ، » هذا بداءة . لـكن

(١) زار سوسترا : هو المشترع والنبي الفارسي القديم وقد ورد ذكره

الغريب الذي يعيش بيننا ليس هو « العدو » و « لا تسيء اليه » لا يعني : اصنع له الخير . يأمر سفر الخروج : أن لا تضايقه . لكن سفر التثنية اكرم يداً فهو يقول : « واذا نزل غريب في أرضكم فلا تظلموه . كالوطني منكم يقول لكم الغريب النازل عندكم ، وتحبونه كذواتكم لانكم كنتم غرباء في ارض مصر » إذن هو الغريب النازل بينكم ، الغريب الذي صار وطنيا لكم ، فاصبح كاحدكم صديقاً لكم .

في هذا السفر ذاته نقرأ : « لا تنتقم من أبناء شعبك ولا يحمل قلبك حقدا عليهم » . خطوة ثانية الى الامام : لا تقابل من يسيء اليك بالاساءة بشرط أن يكون من شعبك فنحن اذن الان ليس امام « الغفران » بل امام « نسيان » كريم مقصور ابدا على ذوينا الادنين وحدهم .

« احبب قريبك كنفسك . وقريبك هو وطنيك وأخوك جنسا ، الذي قد يكون لك نافعا اما العدوّ ؟ فهذه كلمة في العدوّ ! : « اذا صادفت ثور عدوك او حماره شارداً فاردده اليه . واذا رأيت حمار مبغضك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حله فلا بد أن تحل معه» اعظم بمكارم اخلاق اليهود الاقدمين ! انه لجميل طرد الحمار بعيدا فيتكلف صاحبه العذاب شديداً ليجده !! ومتى سقط الحمار من ثقل الحمل على الارض فجميلٌ بالذي يراه أن يضحك منه ويجتازه ولا ينهضه ! ولكن قلب اليهودي القديم لم يكن متحجرا الى هذه الدرجة.

فان الحمار كان ثمينا جدا في ذلك الزمان وذلك المكان . ولم يكن احد يقدر أن يعيش بدون أتان ، على الاقل ، في مراحه . فلكل انسان اتانه ، الصديق والعدوّ فان شرد حمارك اليوم فقد يشرد حماري غدا . فلا نتنقم من الحيوانات ولو كان صاحبها حيوانا . لانني ان كنت عدوّه فهو عدوّي فلنعطه مثالا ــ مثالا نافعا ــ على ما نرجو نردّ اليه حماره ونمدّ اليه يدا ليعدّل الجلال والقتب على ظهر الحمار . فيجب والحالة هذه أن أنهض حماره الواقع تحت حمله واساعده على ارجاع الحمل على ظهره ، لنفعل بالناس ما نود أن يفعله الناس بنا .

وفي هذه اللحظة ، فلنلق على أذني الاتان وكفله ، ونحن رحماء ــ كل فكر سيء ، ــ هذا قليل ! واليهودي القديم قد أخذ على عاتقه العناية بحمار عدوّه أما المزامير ففي كل شعر منها رنّة تضج باللعنات على الاعداء، وتهزّ عرش الرب تستنزل السخط ليضطهدهم ويستأصل من الارض ذكرهم . . . « ليسقط عليهم جمر ، ليسقطوا في النار وفي غمرات فلا يقوموا . رجل ذو لسانين لا يثبت على الارض . رجل الظلم يصيده الشرّ الى هلاكه ، والى الهلاك مصيره ، اما نفسي فتبتهج بالرب . »

ولذلك فاننا لا نعجب اذا رأينا شاول مندهلا في ذلك العهد لان عدوّه داود لم يقتله ، وأيوب يفاخر لانه لم يشمت بعار عدوه

وشقائه . الا اننا نجد في سفر الامثال فقط بعض مواعيد لكلام المسيح اذ يقول : «لا تقل سأجازي شرا بشر ! ، بل ثق بالرب وهو يخلصك» فان العدو يجب ان يعاقب ولكن يعاقبه من هو أشد منك قوة ومع ذلك فان معلم الاداب المتستر الاسم قد ارتفع حتى الى الرحمة قائلا : «اذا جاع عدوك فاعطه خبزا ليأكل ، واذا عطش فاعطه ماء ليشرب» انه لتقدم ! فالرحمة تتبسّط من الحمار الى صاحبه ولكن أعاجيب المحبة المتفجرة من عظة الجبل لا يمكن بتة أن تكون قد صدرت من هذه الحكم والامثال الضئيلة ، المتغلغلة في زوايا التوراة .

لكنهم يشيرون الى هلال (١) هلال الكبير ، الربّاني ، معلم غملائيل ، هلال البابلي ، هذا الفريسي المشهور عاش قبل المسيح بزمن قليل وعلّم ، كما يدّعون، ما علّمه يسوع فيما بعد . قد كان يهوديا اباحيا وفريسيا متعقلا ، وربانيا ذكيا ، لكنه كان مسيحيا ! ولماذا ؟ صحيح انه قال هذه الكلمات : « لا تفعلوا بالناس ما لا تريدون أن يفعله الناس بكم » هذه هي الشريعة كلها وما زاد فهو فضول » جميلة هذه الكلمات من أحد معلمي الشريعة القديمة لكن ما أبعدها عن

(١) هلال : معلم اسرائيلي، ولد في بابل نحو سنة ١١٢ قبل الميلاد . ويقال انه جاء الى اورشليم وهو ابن اربعين سنة ، وانه صار رئيساً للسنهدريم « المجلس الاعلى لليهود » واسس مدرسة هلال . فقام ضده معلم اسرائيلي اخر اسمه شماهي ، وأسس مدرسة غير مدرسته . ولكن حزب هلال كان اقرب الى الحرية وكانت له السيادة .

كلام ناقض الشريعة القديمة ! هذه الوصية سلبية « لا تفعلوا » ولم يقل « احسنوا الى الذين يسيئون اليكم » بل قال « لا تفعلوا بالناس (وهؤلاء الناس هم ولا شك اصدقاء ووطنيون وأقرباء) « ما تحسبونه شراً » فهو نهيٌ عن الشر لا امرٌ جازم بالحب . وخلفاء هلال كانوا تباع التلمود الذين أوحلوا الشريعة في مستنقع التفاسير المبهمة العقيمة ، واما خلفاء يسوع فصاروا الشهداء الذين باركوا جلاديهم .

فليون[1] يهودي من الاسكندرية ، من اتباع فلسفة افلاطون ، وهو يكبر يسوع نحواً من عشرين سنة قد ترك أيضاً بحثاً عن « محبة الناس » لكن فيلون ، بكل توقد قريحته وبكل نظرياته التصوفية والموسوية هو مثل هلال ، رجل نظريات ، رجل قلم ودواة ، رجل درس في الكتب ، والمكاتب والمذاهب والنظريات والتصورات والمجردات والتقسيمات . ان مناهجه المنطقي يجيش الوفا

---

(١) فليون الاسكندري من مشاهير علماء اليهود في الاسكندرية . عاش في القرن الاول المسيحي . وكل ما نعرفه عنه انه كان من عائلة غنية ، وانه حصل على جميع معارف زمانه . وفي سنة ٤٠ بعد المسيح زار رومية كرئيس للوفد الذي سافر ليسأل الامبراطور كاليغولا ان يعدل الامر القاضي على اليهود ان يعبدوا تمثاله . وله مؤلفات عديدة باللغة اليونانية اهمها « خلاصة حوادث الخليقة كما وردت في اسفار موسى » « ودروس في كتاب التكوين » و « تاريخ حياة ابرهيم » « ويوسف » و « موسى » ومقالات مختلفة في « الختان » و « الملكية » و « والذبائح » وغيرها .

من الالفاظ المصفغة لكنه لا يجد الكلمة التي تحرق الماضي بلحظة ، وتجمع القلوب . انه تكلم عن الحب اكثر من يسوع لكنه لم يعرف ان يقول وما كان ليتفهم ما كان المسيح يقوله لاصدقائه الجهلة على الجبل .

اخيل وفريام [1]

ولكن في اليونان الا نرى الحب للاعداء ؟ في اليونان كل شيء ! اليونان ، هذه الصين الغربية ، امّ كل اختراع في عالم الاشياء التي توحيها الفِكَر . هكذا يقول دعاة الوثنية أعداء «خرافات فلسطين »

(١) فريام : هو اخر ملوك طرواده ، وكان ابن لاوميذون من ستريمو مرأنه . ويدعوها بعض الكتاب بلاسيا • تزوج اريسبا • ثم طلقها ليتزوج ها كوبا ، التي ولد له منها اولادعديدون ، اهمهم هكطور ، وفاريس ، وذافوبوس وهلانوس ، ولاديقي وكاسندرا ، وبعد ان حكم فريام مدة فى طروادة خطر له ان يستعيد أخته ايسيوني ، التى حملها هرقل الى اليونان ، ولاجل البلوغ الى هذه الامنية بنى اسطولا بحرياً واقام على قيادته ابنه فاريس • ولكن فاريس عوضا عن أن يطيع اوامر ابيه ذهب فسبى هيلانة امرأة منيلاوس ملك سبارطة وكانت هذه الحادثة سببا للحرب الطروادية التي دامت عشر سنوات • وفي نهاية الحرب قتل فريام بيد نيوبتولماوس ابن اخيل •

في كتاب صوفقل (١) عن «اياس» (٢) ان عوليس اهتز اشفاقاً على العدو الذي أصبح في حالة من الذل ذليلة . وعبثاً حاولت اثينا (٣)

(١) صوفقل : هو الثاني بين الشعراء الروائيين الذين انبغتهم اثينا . ولد سنة ٤٩٥ قبل الميلاد ، ولا نعرف شيئاً عن عائلته ، ولكنه نال افضل ما يمكن من التهذيب في ذلك العصر . وقد خرجت شهرته للمرة الاولى في الشعر الروائي في سنة ٤٦٨ ق. م. عندما نال الجائزة الاولى في سباقه مع اسخولوس وقد سافر اسخولوس اذ ذاك الى صقلية ولم يرجع الى أن جاء دور المزاحمة الشعرية للمرة الثانية ففاز عليه صوفقل هذه المرة ايضا وظل الفائز عليه حتى عام ٤٤١ ق. م. عندما سبقه يوريبذيس ولكن صوفقل سبق مزاحميه في نيل الجوائز الشعرية ، فقد نال الجائزة الاولى نيفا واربع عشر مرة ، والثانية اكثر من ذلك كثيرا ، اما الثالثة فلم ينلها قط . وفي سنة ٤٤٠ انتخب ليكون واحدا من القواد في الحرب ضد الحزب الاريستوقراطي في ساموس . وقد مات ابن تسعين سنة بعدان ترك مؤلفات عديدة بقي منها حتى اليوم مايةوثلاثون رواية من نوع الدراما وربما كان في نسبتها اليه كلها بعض المبالغة . واهمها «انتيغوني» و «ايلاكطرا» و «طراخينيا» « واذيبوس تيرانوس » و « اياس » التي يشير اليها المؤلف هنا وغيرها كثير .

(٢) اياس هو ابن تالامون وباريبيا . أو اريبيا . من افرس ابطال الاغريق في حرب طرواده . وبعد موت اخيل تخاصم اياس واوليسيس على سلاح الميت الجبار ، ولكن اوليسيس فاز بها . ومن المؤرخين من يقول انه قتل بطعنة من فاريس ابن فريام واخرين يقولون ان اوليسيس هو الذي قتله . والكلمة هنا يقصد بها المؤلف رواية من تأليف صوفقل وهي من اشهر رواياته

(٣) اثينا ويسميها الرومان مينارفا ، من اعظم الهة اليونان . وقد خرجت الى الحياة كاملة التكوين من رأس جوبيتر . وهي الاهة الحكمة والقوة ، وحامية الزراعة والحصاد .

نفسها ، البومة المقدّسة ، ممثلة الحكمة الاغريقية ، أن تذّكره : ان ارق الضحك واحلاه أن يضحك المرء من خصمه » لكنّ عوليس لم يقتنع بل قال : « انني اشفق عليه ولو انه عدوّي . لاني اراه شقي الحظ ، سيء الطالع واذ انظر اليه افكّر في نفسي . . . لاني ارى انما نحن اشباح ذاهبة وخيالات زائلة ، نحن كلنا الذين نحيا . . فليس من العدل ان تسيء الى رجل يموت ولو كنت تبغضه . »

نحن من الغاية بمكان قصي ! . . . فان عوليس النِكِر ما كان ليخفي علينا دواعي اشفاقه اليسير الطبيعي . هو يرثي لعدوه لأنه يفكّر في ذاته ويصفح عنه لانه يراه مبكما محتضرا .

على أن هنالك رجلا احكم من عوليس (١) وهو ابن صوفر نيسكوس النحات فقد سأل هذا الرجل نفسه في جملة اسئلة كثيرة ، كيف يجب أن يعامل الرجل البار اعداءه . ولكننا لدى مطالعتنا للمتن الاصلي نرى امامنا سقراطين لكل منهما رأيه الخاص الذي

---

(١) عوليس او اوذيسيوس او اوذيس . هو ملك جزر ايثاكة وداهية الاغريق وهو ابن انتيكلية ولا ترس تزوج بانالوبة ابنة ايقاريوس ، فتخلى له ابوها عن ملك جزر ايثاكة . وقد اشترك في حرب طرواده وذاعت شهرته بما اظهره من الدهاء والمكر وعند رجوعه من الحرب عرج على بلاد اليونان فصادف في سفرته من الاهوال والاخطار العديدة ما يضيق بنا المقام عن سرده الان ، ويكفي أن نقول ان سفرته استغرقت عشرين سنة . والمغامرات التي قام بها في رجوعه من حرب طرواده تؤلف كل الموضوع الذي بنى عليه هوميروس اوذيسته .

يختلف عن الآخر . فالأول وهو سقراط (١) كزينوفون يوافق على

(١) سقراط : هو اشهر فلاسفة القدماء . ولد قرب اثينا سنة ٤٦٩ قبل المسيح وقد اشتغل في حرفة ابيه مدة ثم تركها . وخدم كجندي عادي في حملة بوتيذية (٤٣٢ ـ ٤٢٩ قبل المسيح) وحارب في معركة دبليون (٤٢٤) وفي سنة ٤٢٢ هجم مع كليون على امفيبوليس . وقد ظهرت شجاعته وحكمته في هذه الحروب ، وقد كان الواسطة لخلاص حياة الكيبياذيس وكسينوفون . وقد وعى في رأسه جميع معارف العالم القديم وكان جريئا في القول متعشقا للحقيقة لا يهاب في سبيل التصريح بها لومة لائم . ولكن هذه الروح اكثرت اعداءه فاتهموه بالكفر والمروق من الدين،وهي وسيلة لايزال الناس يلجأون اليها كما ارادوا التنقص من كرامة ذوي الكرامة . وقد حوكم وقضي عليه بالموت من اجل بدعه في الديانة اليونانية . فشرب السم ومات ابن سبعين سنة وذلك سنة ٤٠٠ قبل المسيح . ودفاعه امام قضاته من اشهر الخطب القديمة ، وهو مترجم الى جميع اللغات الحية . وكل ما يعرفه التاريخ عن امرأته كسا نثيبه انها ولدت له ثلاثة بنين وانها كانت ضربة ثقيلة على حياته احتملها كافة العمر بكامل الصبر . لم يكتب سقراط شيئا . ولم يشأ ان يوجد لنفسه مدرسة او طريقة خاصة به . وكانت له عادة ان يخالط الناس في جميع ادوار حياتهم ومصالحهم ويجادلهم ويباحثهم في سبيل الحصول على المعرفة الحقيقية.وكان يحسبه اخصامه وفي مقدمتهم اريسطوفانيس سفسطائيا يتاجر بالكلام ، وعدوا لدودا للدين ، وفاسقا يفسد اداب الاحداث . ولعل المؤلف بايبني من رأى اريسطوفانيس من هذا القبيل . ولكن هذا لم يؤثر في ان يكون له أصدقاء عديدون واشهرهم افلاطون وكسانوفون واوقيليديس وغيرهم من مشاهير حكماء اليونان.وقد اتفق افلاطون وكسانوفون ، وهما خير من يعتمد عليه في معرفة سقراط وحياته ، غير أن غايته الوحيدة من الحياة كانت تنحصر في ان يقنع الناس بجهالتهم لاجل خيرهم ، وان حياته كانت بركة للاثينيين ، وانه لم يعبأ بالموت قط.

الرأي الغالب بأن الاصدقاء يجب أن يعاملوا بالحسنى والاعداء يجب ان يعاملوا بالرديء ، وانه لا فضل للانسان ان يسبق اعداءه الى الشر قبل ان يبادئوه هم بشرهم . ومما قاله لخاروكراتوس مايأتي : « ان اجدر الناس بالثناء ذلك الذي يسبق اعداءه الى الاساءة واصدقاءه الى المساعدة » ولكن سقراط افلاطون لم يوافق على هذا الرأي الملتوي . فقد قال لكريتوس « لا تقابل ظلما بظلم ولا شرا بشر مهما أصابك من الاذية » وقد أيد هذا المبدأ في كتابه «الجمهورية» واثبت ان الشرير لا يصيّره الانتقام افضل مما هو لكن القائم في رأس سقراط انما كان عاطفة العدالة لا عاطفة المحبة . وفي كل حال لا ينبغي للبارّ ان يعمل الشرّ وذلك صونا لكرامته هو ـ تنبهوا ! ـ لا رأفة بعدوه . والشرير يجب ان يقتصّ من نفسه او ان يناله بعد موته عقاب قضاة الجحيم . ولكن تلميذ اريسطو (١) يريد مرتاحا الى

(١) اريسطو هو الفيلسوف والطبيعي اليوناني الشهير . ومؤسس المدرسة الفلسفية الذائعة الشهرة ولد سنة ٣٨٤ قبل المسيح في ستاغيرا بمكدونية ومات في خالسيس سنة ٣٢٢ قبل المسيح وكان والده نيكوماخوس طبيبا رسميا للملك المكدوني اميئتاس الثاني . ولكن اريسطو خسر والديه وهو لم يبلغ السابعة عشرة بعد ، فجاء اثينا ليدرس في مدرسة افلاطون ،وقد عاش مع هذ الفيلسوف مدة عشرين سنة كان في اثنائها متفردا بحدة الذهن وثاقب الرأي وعندما مات افلاطون ، في سنة ٣٤٨ قبل المسيح جاء اريسطو وسكن في مدينة اتارنيوس في ميسيا وذلك بدعوة من تلميذه القديم هرمياس حاكم تلك المدينة ، ولكنه لم يلبث ان هرب مع امرأته فيثيا ، ابنة اخت هرمياس عندما قتل الفرس حاكم

الرأى القديم اذ قال في كتابه « الفلسفة الادبية » لنيكوماخوس «أن

المدينة ، فجاء وسكن في ميتيليني . وفي اثناء اقامته هناك اقتبل دعوة من فيليب ملك مكدونيا لكي يذهب الى بلاطه ويتولى تهذيب ابنه الاسكندر الذى كان اذ ذاك في الرابعة عشرة من العمر . فاقام اريسطو في بلاط فيليب يعلم الاسكندر مدة خمس سنوات درس الامير الفتى في اثنائها الصرف والنحو والخطابة والشعر والمنطق ، والفلسفة الادبية ، والسياسة ، وما كان معروفا في ذلك العهد من التاريخ والطبيعيات . وعندما ارتقى الاسكندر عرش ابيه اتخذ اريسطو مستشارا وصديقا له الى ان عزم على القيام بحملته الاسيوية سنة ٣٣٤ قبل المسيح فرجع الفيلسوف الى اثينا واعاد تأسيس مدرسته . وكان يلقي خطبه في دار هيكل افولون « ابولو » وهو يسير مع تلاميذه ذهابا وايابا . ومن هذه الحركة ، أو من اسم المماشي في الدار « بارياتي » دعيت مدرسته مدرسة المشاة . وقد خرجت شهرة مدرسته فتقاطر اليها الطلبة من جميع انحاء اليونان وصارت اشهر مدارس اثينا . وفي اثناء اقامته في اثينا كتب كتبه العظيمة وبعد موت الاسكندر ثار الاثينويون على المكدونيين واصدقائهم فاضطر اريسطو ان يهرب الى خالسيس ولم يقم هنالك طويلا حتى عاجلته المنية . ومن رأى سترابون ان اريسطو ترك مؤلفاته كلها لتلميذه ثيوفراستوس الذي نظمها واكملها بمساعدة غيره من التلاميذ وقد ظلت كتبه تنتقل من يد الى يد الى سنة ٥٠ قبل المسيح حينما نظمها اندرونيكوس ورتبها على ما هي اليوم . واكثر الكتب التي ينسبونها اليه مزورة ويرى جمهور المؤرخين ان كتبه الاصلية تنقسم الى منطقية ونظرية وعملية . فالمنطقية تدخل كلها تحت عنوان « اورغانون » او القياس . والنظرية تنقسم ، الى الطبيعيات ، والرياضيات وعلوم ما وراء الطبيعة . فالمؤلفات الطبيعية تبحث (١) مبادىء عامة في العلم الطبيعي (٢) السماوات (٣) الولادة والموت (٤) علم حوادث الجو وعلاماته (ماتاورولوجي) (٥) تاريخ الحيوانات الطبيعي (٦) انواع الحيوانات (٧) ولادة الحيوانات (٨) حركة الحيوانات (٩) النفس والذاكرة والنوم

القعود عن مقاومة التعدي انما هو برهان العبودية والخمول »

إذن فالمنقّبون عن سلف الناصري في اليونان قد باؤا بالخيبة والخذلان .

غير أن أعداء يسوع لكي يجعلونا نعتقد بان المسيحية وجدت قبل يسوع قد اخترعوا ندّا ليسوع في رومية ذاتها ، في قصر القياصرة الرومانيين أنفسهم فادعوا بان سنكا (١) مهذب ضمائر الاحداث ،

واليقظة والاحلام والوحي اما كتبه الرياضية فتنقسم الى بحثين اولا في الخطوط المنقسمة ، والثاني في المسائل الميكانيكية . وفي ما وراء الطبيعة كتب اربعة عشر كتابا . اما مؤلفاته العملية فتشمل . الفلسفة الادبية ، وعلم السياسة ، والاقتصاد والفنون ، (وتدعى النيكوماخيات لانه اهداها الى ابنه نيكوماخوس) والشعر والخطابة . وقد طبعت مؤلفاته بمجموعة كاملة باللغة اللاتينية مع مقدمة بليغة بقلم الفيلسوف الاندلسي العربي ابن رشد في مدينة فنيس سنة ١٤٨٩ وذلك للمرة الاولى اما النسخة اليونانية الاولى فلم تطبع حتى سنة ١٤٩٥ — ٩٨ ومن احب الاطلاع على فلسفته فعليه بالموسوعات الكبيرة والكتب الخاصة بذلك .

(١) هو لوسيوس انيوس سنكا ، المسمى بالفيلسوف سنكا . ولد في كوردوبا من اعمال اسبانيا سنة ٣ بعد المسيح وقد جاء الى رومية مع والده الخطيب المشهور ودرس عليه العلم واظهر تقدما سريعا في تفهم اسراره . ولم تمض عليه مدة طويلة حتى اعتنق المذهب الرواقي وافضل ما كتبه رسالة تعزية وجهها الى امه ورسالة اخرى عزى بها يوليبيوس على فقد اخيه . وقد كتب هاتين الرسالتين من منفاه في كورسكا لان الامبراطور كلوديوس نفاه بسبب تهمة وجهها اليه اعداؤه حسدا منه سنة ٤١ بعد المسيح ولكنه دعي سنة ٤٩ فرجع الى رومية وعين وصيا على الفتى الذي صار فيما بعد امبراطورا باسم نيرون . وقد كانت ايام حكومة نيرون العادلة الاولى مدينة لحكمة سنكا .

زعيم مذهب الرواقيين الطقسي الظاهري ، سنكا الاريستوقراطي عدو العواطف الذي لم يتحرك قلبه قط بالشفقة على الفقراء ، صاحب الاملاك الواسعة الذي كان يتظاهر بانه يحتقر الغنى ولكنه كان ينظر الى أمواله بعين جشعة ويحرص عليها ، سنكا الذي كان يعلّم بتحرير العبيد وبالمساواة بين العبد والحرّ وفي الوقت ذاته كان يشتري العبيد ويبيعهم ، ذلك المشرّح اللوذعي للوسواس والشرور والرذائل العاملة والفضائل الفريسية الظاهرة ، الذي مسخ عقيدة كريسيبوس (١) السائرة بجلاء الى حيث الكرامة والكمال ، — قام اولئك الاعداء يدعون أن سنكا هذا كان مسيحيا من غير أن يعرف شيئاً عن المسيحية في زمن يسوع نفسه . فتراهم يشيرون الى

ولكنه ما لبث ان خسر نفوذه لدى نيرون، وعندما اتهم بالاشتراك بمؤامرة بيزو اضطر ان ينتحر سنة ٦٦ بعد المسيح اما مؤلفاته فهي عبارة عن مقالات مختلفة في «الغضب.والبصيرة.وسلامة الفكر • وثبات الرجل الحكيم• وخطاب في الرأفة وجهه الى نيرون• وسبعة كتب في «المنافع » وسبعة اخرى في «درس الطبيعة » وعشرين رسالة في الاداب• اما الروايات المنسوبة الى سنكا فان لغتها تختلف كثيرا عن لغته ، ولذلك يرى المؤرخون انها منسوبة اليه زورا ولعلها من وضع ابيه واسمه أيضا سنكا •

(١) كريسيبوس : فيلسوف يوناني قديم من كيليكيا• عاش ما بين ٢٨٢ و ٣٠٩ قبل المسيح وقد كان من الد اعداء الايقوريين • ويقال انه كتب نحو ٧٠٠ كتاب اكثرها في الجدل والمنطق • ولكن لم يبق منها الى ايامنا الا قطع متفرقة •

كتبه باصابعهم مفاخرين بما جاء فيها (وكثير من كتبه انما كتب بعد موت المسيح ، لان سنكا لم ينتحر الا في السنة الخامسة والستين للمسيح ! وفي مقدمة ما جاء به من آياته ما يأتي : الرجل الحكيم لا يثأر لنفسه بل انما ينسى الاساءة الموجهة ضده » و « اننا لا نستطيع أن نقتفي اثار الالهة ما لم نحسن الى غير الشكورين ، لان الشمس تشرق على الاشرار كما تشرق على الاخيار والبحار تحمل مراكب الاسياد كما تحمل مراكب العبيد ، » واخيراً قوله : « يجب أن نعضد أعداءنا بيد صدوق » ولكن تناسي الفيلسوف ليس بالصفح الذي تحتاج اليه الانسانية ، ومعاضدته تستطيع أن تكون مظهراً من مظاهر الغيرة البشرية ولكنها ليست بالمحبة . فان الفريسي المرائي الخامل ، والفيلسوف المعجب بفلسفته ، والرجل البار المفاخر ببره ، انما يستطيعون أن يحتقروا اساءة الصغير الحقير وينسوا نخزات الاعداء الضعفاء ، بل يجوز أن تستفزهم النخوة ومحبة الشهرة الى أن يعطوا رغيفاً من الخبز إلى عدو جائع طمعاً في الحط من كبريائه وانزاله من قنة عنفوانه وكماله . ولكن ذلك الخبز قد خبز بخمير الزهو والغرور ، وتلك اليد المدعية الصداقة والاخلاص أعجز من أن تنشف دمعة من الدموع أو تضمد جرحاً من الجراح .

أجل ، ان العالم القديم لا يعرف المحبة . وانما يعرف الشهوة للمرأة والصداقة للصديق ، والعدالة للوطني الذي يلتمس عدلاً ،

أو الضيافة للغريب ولكن ابناءه لم يذوقوا طعم المحبة الكاملة . فقد كان الاله زفس حامياً للغرباء والحجاج وكل من طرق باباً من أبواب اليونانيين كان يعطى ما يشاء من مأكل أو مشرب أو منام ، وكانت الشريعة تقضي بمؤاواة الفقراء ، وكسوة العراة ، ومساعدة الضعفاء وتعزية الحزانى بالكلمات الطيبة ، ولكن أبناء الاجيال الخوالي لم يذوقوا طعم المحبة ، المحبة التي تتألم وتنسى ذاتها ، المحبة لجميع الحزانى والمنسيين . المحبة للفقراء والودعاء ، المحبة للمطرودين والمدوسين بالاقدام والمخذولين والمهملين ، المحبة للجميع ، المحبة التي لا تميز الوطني من الغريب ، والمجرم من الفيلسوف ، والاخ من العدو والقبيح من المليح

في النشيد الاخير من الالياذة شيخ طاعن في السن نراه حزينا جاثيا على ركبتي الد أعدائه الذي قتل ابناءه يقبل يده بعد أن قتل له اخر أبنائه وأعزهم على قلبه . نرى الملك فريام الشيخ ، رئيس الامراء والاغنياء في المدينة الخربة ، أبا الخمسين ابناً يركع على قدمي اخيل البطل المغوار ، أشد اليونانيين تعاسة وشقاء ، ابن الاهة البحر ، المنتقم لفطرقل وقاتل هكطور ، نرى رأس ذلك الملك الشيخ المجلل بالبياض منحنياً امام الشباب الزاهي الفخور بانتصاره ، حزيناً يبكي على قتل اخر أبنائه الخمسين وأجملهم وأشدهم باساً وأحبهم على روحه ، نرى ذلك الشيخ يبكي وهو يقبل يد قاتل ابنه ويقول له

« اذ كر يا صاح أن لك أبا شيخا ضعيفا بعيداً عنك ولا معين له . فاستحلفك بحب أبيك العزيز ، أن تردّ الي على الاقل ، جثة ابني الذي قتلته »

هنالك نرى اخيل الوحش الضاري والبربري الجزار يضع عريضة الملك فريام الى جانبه ويبكي بكاء مرا ، هنالك نرى الاثنين معا ، العدوين ، الغالب والمغلوب ، الاب الذي ثكل ابنه والابن الذي لن يرى وجه أبيه ، الشيخ الابيض الشعر والشاب الذهبي الشعر يبكيان معاً وقد ربط الحزن قلبيهما للمرة الاولى ، والناس يتفرسون فيهما بدهشة وسكون . ولا غرو ، فنحن انفسنا بعد مرور ثلاثين قرنا تتفطر أفئدتنا لحزنهما .

ولكن إذا أمعنا النظر في هذه الفاجعة نرى أن قبلة فريام لم يكن فيها شبه للصفح أو رسم للمحبة . فان هذا الملك انما اذل نفسه امام عدوه رجاء أن ينال منه معروفا صعبا لم يكن واثقا بنيله عن غير طريق تلك القبلة ،واخيل لم يبك على هكطور الميت ، كلا ، ولا على فريام المتباكي ، ولا على الرجل المتجبّر الذي جاء اليه صاغراً ، ولا على العدو الذي جاء ليقبل يد ذابح أولاده ، كلا ! كلا ! بل انما بكى على خسارة صديقه ، على فطرقل العزيز الذي كان يحبه أكثر من كل أبناء الارض ، بكى على فيلا المتروك في افينا ، بكى على أبيه الذي كان واثقا بانه لن يعانقه أبداً لانه عرف أن أيام شبابه

معدودة . وان كان اعطى الوالد الشيخ جثة ابنه الميت — الجثة التي جرّها على التراب أياما — فقد فعل ذلك اكراما لارادة زفس لا اظهاراً لصفحه عن عدوه . لقد بكى كل من الرجلين على نفسه ، اما قبلة فريام فكانت ابنة الضرورة القاهرة ، واما اجابة اخيل فلم تكن سوى طاعة عمياء للالهة الصماء ، ولذلك فاننا لا نرى من أثر للمحبة حتى في أشرف عهد من عهود البطولة القديمة ، لا نرى أثراً للمحبة التي تقضي على البغض قضاء مبرماً وتحل محله في القلوب ، لا نرى أبداً أثراً للمحبة التي هي أقوى من القوة والبغض وأشد منهما توقداً وضراماً واخلاصاً ، المحبة التي لا تأمر بنسيان الاساءة بل بمحبة الاساءة ، لان الاساءة انما هي تعس وشقاء لصاحبها الذي يرتكبها اكثر مما هو للذى يتألم منها .

أجل ، ان العالم القديم لم يحلم بمحبة الاعداء . فان يسوع هو أول من علّم بهذه المحبة في العالم بل هو أول من فكّر فيها في ذهنه . ولم يعرف العالم شيئاً عن هذه المحبة الى عهد العظة على الجبل . فهي أعظم وأصل المبادىء التى تركها يسوع لابناء الانسان . فقد كانت أعجب تعليم من تعاليمه ولا تزال الى اليوم أعجوبة اكتشافاته الجديدة والمجدّدة . بلى ، انها جديدة علينا الى هذه الساعة ، جديدة لاننا لا نفهمها ، ولا نطيعها ولا نعمل بها ، وستظل خالدة خلود الحق الى الابد .

أحبوا

« سمعتم انه قيل ، أحبب قريبك وابغض عدوك . أما أنا فأقول لكم ، أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم ويضطهدونكم ، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات : فانه يشرق شمسه على الاشرار والصالحين ، ويمطر على الابرار والظالمين ، فانكم ان أحببتم من يحبكم فأي أجر لكم ؟ أليس العشارون يفعلون ذلك ؟ وان سلمتم على اخوانكم فقط فأي فضل عملتم ؟ أليس الوثنيون يفعلون ذلك ؟ فكونوا اذن كاملين كما أن أباكم السماوي كامل هو ! »

كلمات قليلة ، عارية ، بسيطة ، لا تفلسف فيها : لكنها هي الدستور الاعظم للذرية الجديدة ، الذرية الثالثة ، الذرية التي لم تولد بعد . أما الذرية الاولى فكانت ذرية البهائم التي لا شرائع لها وكان اسمها « الحرب » والذرية الثانية ذرية البرابرة ، التي هذبتها الشريعة وكان اسمى أغراضها « العدل » وهذه هي الذرية الباقية الى الآن فان العدل لم يقهر الحرب والشريعة لم تحلّ محلّ « الحيوانية » بعد . أما الثالثة فينبغي أن تكون ذرية الرجال الحقيقيين ، لا الرجال الابرار فقط بل القديسين ، لا أشباه البهائم بل أشباه الله .

فكرة يسوع وحيدة واحدة : وهي أن يحوّل الناس من بهائم

الى قديسين بواسطة المحبة ، كانت الساحرة سيرسي (١) الزوجة الشيطانية في الميثولوجيات الجميلة تحوّل الابطال الى بهائم بواسطة الشهوات . أما يسوع عدوّ الشيطان وعدوّ سيرسي فيخلّص البهيمية بقوة أقوى من الشهوة .

وسعياً وراء هذا العمل الذي يبدو مستحيلاً لنا — نحن البشر الفطريين — ما لنا الا أن نهرع الى الاقتداء بالله . اذ لا بد لمن يقترب الى القداسة ، ان يضع نصب عينيه الالوهية . « كونوا قديسين لان الله قدوس . كونوا كاملين لان الله كامل . »

هذه الدعوة تثير صدى تذكارات في قلب الانسان . قد قال الشيطان : « وتكونان مثل الله » وقد قال يهوه لقضاته ، « كونوا آلهة ، كونوا ابراراً كما أن الله بارّ ، » اما الان فلا يكفينا أن نكون علماء مثل الله ، ولا أن نكون أبراراً على مثال الله ، فلم يبق الله علما وعدلا فقط بل قد صار الله ، يسوع أبانا ، قد صار محبة فان أرضه تعطي قتلة الناس خبزاً وأزهاراً ومن يجدّف عليه يرى ، حين

---

(١) سيرسي : هي ابنة سول (الشمس) وبارسيس هي مشهورة بالسحر واللعب على القيثارة السامة • وقد حملها ابوها الى جزيرة تدعى آيايا • وعندما رجع اوديسيوس « اوليسيس من حرب طرواده زار شواطيء هذه الجزيرة فحولت سيرسي رفقاؤه بطرائقها السحرية الى خنازير . ولما كان اوديسيوس عارفا باسرار السحر بقوة نالها من ماركورى رسول الالهة ، امرها ان ترجع رجاله كما كانوا فارجعتهم • ويقال انه تزوجها بعد ذلك وولدت له ابنين •

ستيقاظه ، تلك الشمس التي تدفىء الايدي المضمومة للصلاة ، ان الاب يحب ، حبا متساويا من يتركه ومن يطلبه ، ومن يطيعه ، في بيته ومن يتقيأه مع خمره . ان الاب قد يحزن ، وقد يبكي و يتألم — لكن ما من شرير يستطيع أن يصيره مثله شريراً فيغريه بالانتقام .

ونحن الذين أدنى كثيراً من الله ، نحن المخلوقات المحكوم عليها بالزوال الذين لا نكاد نتذكر أمس الدابر ونجهل الغد الآتي نحن المخلوقات الحقيرة ، الشقية ، أما يجمل بنا كثيراً أن نكون لاخواننا في الضراء مثلما الله لنا ؟

الله هو المحجة العليا لغرضنا الاسمى و رغبتنا في الخلود . فان تركناه وابتعدنا عنه ولم نكن ، كما نسأله في الصلاة ، أن يكون معنا افلا نكون نحن قد خرجنا عن محجتنا الوحيدة ، وقضينا قضاء مبرما على هذه السعادة التي خلقنا لاجلها ؟ ولاجلها نحيا والتي هي سعادتنا والتي قد حلمنا بها ، وأردناها ، التمسناها ، ودعوناها وسعينا نبحث عنها عبثاً بين كل السعادات الخادعة التي ليست من الله : قد قال بوسويه « لنكن آلهة ، فهو يسمح لنا بذلك : أن نقتني قداسته »

فمن منا يرفض أن يكون مثل الله ؟ ان الالوهية فينا ! البهيمية تضمها وهي قشرة قاسية تعوق نمونا . من يأبى أن يكون الها ؟ بربكم أيها الناس ، هل أنتم بالحقيقة راضون على أن تكونوا كما أنتم نصف

بشر — ونصف بهم — « قناطرة » (١) بلا بأس ، « وخياليين » بغير حلاوة ، وعفاريت لها قدما عنز ؟ هل أنت راض ببشريتك النَغلة ، وحيوانيتك المكبوحة نوعاً — وقداستك التي انما هي رغبةٌ ؟ والحياة البشرية ، كما كانت ، وكما لا تزال حتى اليوم، اتراها سعيدة بحيث لم يبق من حاجة للسعي الى قلبها وجعلها غير ما كانت وغير ما هي اليوم ، وعلى عكس ما تبدولنا ، مع بذل الجهود لان تكون على مثال تلك الحياة التي نتخيلها منذ قرون أن تكون في المستقبل وفي السماء ؟ أليس في الامكان أن تجعل حياة ثانية جديدة من حياتك هذه ، وأن تغير هذا العالم الى عالم أكثر الوهية وتهبط أخيراً الى الارض ، السماء وشريعة السماء ؟

هذه الحياة الجديدة ، هذا العالم الارضي بل السماوي هو

---

(١) قنطورس او قنطير ، جمعه قناطرة ، وهو مخلوق خرافي كان يأوي الى اكم تساليا واجها • زعموا انه له شطر انسان قائما على شطر حصان. والاصل في هذه الخرافة ان القوم كانوا فرسانا محنكين ، فما زال اصحابهم يبالغون في اطرائهم حتى الصقوا الفارس بالفرس وهم انما كانوا في بدء امرهم كبني عمران يقول المتنبي •

الثابتين فروسة كجلودها ... في ظهرها والطعن في لباتها
فكأنها نتجت قياما تحتهم ... وكأنهم ولدوا على صهواتها

والقنطورس ايضا احد الابراج الثمانية والاربعين التي رسمها بطليموس ونقلها عنه العرب فغيروا رسمه ومثلوه بهيئة دب يمتطي حصانا • ولا ريب ان لفظة القنطير عند العرب بمعنى الداهية مأخوذة من هذه المادة (البستاني في الالياذة)

ملكوت السماوات — ولكي يأتي هذا الملكوت يجب أن نسمو على هذا البشري ونعمل من أنفسنا آلهة ، ونصير أشباهاً لله ، ونقتدي بالله .

ان سرّ هذا الاقتداء هو الحب ، والطريق الامين الذي يؤدي الى ما فوق البشري هو الحب حب الانسان للانسان ، صديقاً أو عدواً ، واذا كان هـذا الحب مستحيلا فخلاصنا مستحيل ، وان نفرنا منه فلان الهناء ينفر منا ، وان كان باطلا فانما آمالنـا بالفداء بطلان . ان محبة الاعداء تبدو لرأي العامّة جهالة : أجل ان في الحماقة خلاصنا . ان حب الاعداء يماثل بغض الذات : ولأن بغض الذات انما هو الطريق الوحيد الى الغبطة .

لا يتسلطن علينا الخوف مما نحن فيه . فقد امتُحِنت الامور وتمت التجارب . ولا تقولنّ ان الزمان قد ضيّع علينا مساعينا . نحن في هذا العالم منذ الاف السنين ، نجمّع الاختبارات ونكدّسها . قد اختبرنا « الضراء » واذا الدم ينادي الدم ! وجربنا الدعارة . فاذا الدعارة أبقت لنا في أفواهنا مذاق العفن والنتانة وتحرقاً احرّ وامضّ . قسرنا اجسادنا الى آنق الملذات تنوّقا وأملحها والى أخسّ الخلاعة وأقبحها ، واستفقنا فاذا نحن على فراش من الزبل ، مثخنين جراحاً ، وجربنا الشريعة ، وهذه الشريعة قد تعديناها وعدّلناها ، ثم تعديناها و « العدل » لم يشبع قلوبنا . واختبرنا « العقل » : أحصينا

المخلوقات . وعدّدنا النجوم ، ووصفنا النباتات ، والاشياء الحية والميتة ، وربطناها معاً بخيوط مشدودة الى « التصوّرات » وغيّرنا مظاهرها في سحائب علوم وراء الطبيعة وظلت الاشياء في اخر الامر على حالها ثابتة فما هي الان لتكفينا وما نحن نستطيع أن نجدّدها .

فالاسماء والاعداد ما كانت لتسد جوعنا وانتهى الحكماء بان اقرّوا بالجهل متشائمين . وجرّبنا « الفن » وإذا عجزنا قد أيأس الاقوياء فينا . لان « المطلق » لا يتقيد بالاشكال و « المتنوّع » يفيض على « المتوحد » « والمادة المصنوعة » لا تصون الهيولي . وجربنا الغنى وإذا نحن أفقر مما كنا ، ولم تطمئن نفسنا في شيء . وجسمنا المحدود لم يذق راحة في ظل من الضلال محدود ، وإذا قلبنا الدائب سعيا قد أصبح أعجز وأتعب ، وأفرغ لانه لم يجد « راحته » في خير من الخيور ولم يجد « فرحه » في لذة من اللذات ، ولم يجد « سعادته »في فتحٍ من الفتوح .

الامتحان الاخير

يسوع يعرض علينا امتحانه الاخير ، امتحان الحب الذي لم يقدم عليه أحد قط ، وحاوله الاقلون في فترة من حياتهم نادرة ، هذا الامتحان الاشقّ طريقاً والاشدّ مقاومة لغريزتنا ، ولكنه

الوحيد الاوحد الذي يفي بما يعد .

فالانسان ، على ما يخرج من الطبيعة ، لا يفكّر الا في ذاته . ولا يحب الا نفسه ، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً بثمن جهود لا توصف الى حب امرأته وحب أولاده والصبر على شركائه في الصيد والقتل والحرب ، وقد يمكنه أن يحب صديقا له ، ندورا ، وعفوا يبغض الذين يحبونه ، ولا يريد أن يحب من يبغضه .

هذا هو الذي يأمر به يسوع : حبّ الاعداء ، ولكي يخلق الانسان الجديد يجب استئصال أمتن الاصول في الانسان العتيق . فأصل الشرور والمذابح والبلايا ، كلها جمعاء : هو حب الذات . ولقمع آدم القديم يجب نزع هذا الحب منه واستبداله بالحب المنافي كل المنافاة، لطبيعته الحالية ، أن تغيّر الانسان تغيراً كلياً لهو شذوذ سام لا ينتهي اليه الا في طريق شاذ ، هو مسعى خارق غير طبيعي ، أحمق ، لا يحقق الا بحمق ضد الطبيعة وضد النظام .

حتى الآن ، يحبّ المرء نفسه ويبغض من يبغضه . أما رجل الملكوت المقبل فيحب أن يبغض نفسه ويحبّ من يبغضه . اما أن يحبّ القريب كنفسه فهو صورة ناقصة واستسلام الى الانانية الشائعة لان من يحب نفسه لا يستطيع أن يحب غيره حباً كاملاً ، ويرى ذاته على اختلاف أراء مع غيره ، اضطرارا ، وبغض أنفسنا انما هو الدواء القاطع الناجع . انا نغالي في حب ذواتنا،وفي العجب بذواتنا ،

وفي تملّق ذواتنا . وانتصاراً على هذا الحب الاعمى يحمل بنا أن نرى صغارتنا وعدمنا . ان بغض الذات تواضعُ : اذن ، مبدأ التوبة والكمال . والمتواضعون وحدهم يذكرون طول الطريق الذي يبعدهم عنه نحن نتغيّظ على الغير لاننا نحكم انهم أساؤوا الى «انا» المحبوبة وانهم لم يخدموها . نقتل أخانا لانه يلوح لنا انه عقبة في سبيل خيرنا « نحن » ونسرق حباً بجسدنا « نحن » . وارضاء لجسدنا نحن فسّاق الحسد ، «أبو الفتن» هو الغمّ من أن أحدا غيرنا يملك أكثر منا . والكبرياء هي الافتخار بثقتنا اننا أكثر من الغير واننا نعلوهم بالمال والعلم ، فكل ما تسميه الاديان والاداب والشرائع : خطيئة ، أو رذيلة ، أو جريرة ، ينشأ من هذا الحب : حب أنفسنا و بغض الغير الذي يولده هذا الشعور المشوّش ، هذا الحب الاوحد المنزوي في الصدور .

أي حق لنا بان نبغض اعداءنا إذا كنا نحن قد سقطنا في هذا الخطأ : هذا البغض ، الذي يبدو لنا انه يبرّر بغضنا .

أي حق لنا أن نبغضهم ، حتى ولو انهم ارتكبوا بعض الشرّ ، حتى ولو حسبناهم اشراراً ، متى كنا نحن انفسنا نرتكب ، مثل شرهم في معظم الحين ونغمس في المساوىء عينها .

أي حق لنا أن نبغضهم إذ نحن كلنا تقريباً ، نحمل تبعة بغضهم واذ نحن نضطرهم ، باغلاطنا الكثيرة الصادرة من حب ذواتنا المسيخ ،

الى أن يبغضونا ؟

شقيٌ هو الذي يبغض ! فهو أول من يتألم ! فما ينبغي لنا — ولو استعاضة من هذا الالم ، الذي نكون نحن ، غالباً ، سبباً له ، قريباً أو بعيداً — ان نقابل بالحب هذا البغض ، وبالعذوبة هذه القساوة ؟

عدونا هو أيضا منقذنا . ويجب أن نشكره كل يوم فهو وحده يرى ويقول غير متملق ما فينا من شنيع وخسيس .

هو يستعيدنا الى طبيعتنا الحقة ، ويوقظ ضمير عوزنا الادبي ، الذي هو المبدأ الجوهري للحياة الجديدة . فنحن يجب له علينا الحب — ولو من قبيل عرفان الجميل .

أجل ان عدونا محتاجٌ الى حب ولا سيما الى حبنا . من يحبنا فقد استوفى ، في ذاته ، فرحه واجره ، فهو غير محتاج الى مبادلتنا ، لكن من يبغضنا فهو انما ينفث مرارة المه . هو يبغض لانه متألم ونحن ملومون ، بوجه ، على هذا الالم . حتى لو اننا نحسبنا براء — عن عجب في النفس — فواجبنا ان نُلطّف ، بالحب ، ألم عدونا ، ونخفف شره ، ونهدىء روعه ، ونصيّره فضلا ، ونرده أيضاً الى غبطة الحب . فمتى أحببناه عرفناه أحسن ، ومتى عرفناه أحسن أحببناه أكثر . اذا أحببناه تتراءي لنا نفسه أصفى وأشفّ ، وكلما اخترقناه ، اكتشفنا أن له حقا في اشفاقنا وحبنا . لان كل عدوّ أخٌ نكره .

نبغض عفواً أولئك الذين نشابههم . ورب شيء فينا — وقد نجهله فينا — هو في عدونا ، ويسبب ، أحيانا عداوتنا . فاذا أحببنا عدونا نقينا روحنا بالمعرفة ورفعنا في روحنا روحه . ورب بغض مفرق ، يخرج منه نور محرر . كما يستخرج من شر الشرور خير الخيور .

من هنا ، يأتي هذا الانقلاب الذي يأمر به يسوع ! حين يحب المرء غداً ما يبغض اليوم ، تصبح حياته نقيض هذه الحياة واذا كانت حياة اليوم حياة شرور وقنوط فلا تكون الحياة الجديدة الا حياة صلاح وعزاء . لاول مرة تصبح الغبطة حظا لنا ، وملكوت السماوات يبتدىء على الارض ، ونجد من جديد الفردوس مدى الابد . قد ضاع لان الرجلين الاولين أرادا معرفة الخير من الشر لكن ، بفضل الحب المطلق المساوي لحب الاب ، لم يبق خير وشر . فقد غلب الشر وقد استعلى عليه الخير . كان الفردوس « الحب » — الحب بين الله و « الرجل » بين الرجل والمرأة . وهو ذا حب كل رجل لكل الناس يصبح الفردوس الارضي الجديد ، الفردوس المستعاد . وبهذا المعنى فالمسيح هو الذي يقود آدم الى عتبة عدن ، ويعلمه كيف يستطيع أن يدخله ويعيش فيه الى الابد .

أبناء آدم لم يؤمنوا به قط . رددوا كلماته ولم يتبعوها . والناس بصمم قلوبهم ، ما يزالون يئنون في جحيم أرضي ينتقل من عصر الى عصر وهو يتزايد لهبا . الى اليوم الذي تشتد فيه الآلام في صدور

الهالكين حتى لا يطيقونه يتولد بغتة ، بغض البغض . الى اليوم الذي يتوصل فيه المحتضرون الثائرون ، في ثوران يأسهم ، أن يحبوا جلاديهم ، حينئذ ينبثق ، أخيراً ، من ظلمات الآلام الحالكة ، السناء النقيّ الوضّاء ، سناء ربيع عجيب .

أبانا

طلب التلاميذ من يسوع صلاة .

كان قد علّمهم أن يصلوا صلوات قصيرة ، سرية . لكنهم لم يرتاحوا قط الى الصلوات التي كان كهّان الهيكل الفاترون ، المتشبثون بالكتب ، يأمرونهم بها . قد أرادوا صلاة لهم وقد أصبحت ، كأنها رابطة ، لاولئك الذين تبعوا يسوع .

يسوع على الجبل ، علّم لاول مرّة « أبانا » وهي الصلاة الوحيدة التي أشار بها . وهي أبسط صلاة عرفت . صلاة لا فصاحة فيها ، ولا لاهوت ، ولا جسارة ، ولا خصاصة . أجمل جميع الصلوات.

لكن ان كانت « أبانا » ساذجة فالجميع لا يفهمونها . فان ترديدها على اللسان والشفتين ترديداً آلياً على ممر الاجيال ، ترديدا صورياً طقسياً ، على غفول وذهول قد جعل منها سَرْد مقاطع ضاع فيها المعنى الاصلي المألوف فلو أعيدت تلاوتها ، كلمة ، كلمة كأنها نص

جديد وقع أمام عيوننا أول مرة ، اليوم ، اذن لا ضاعت صفة الابتذال المطروق واستعادت في معناها الاول ، جدّتها النقيّة .

« أبانا » اذن نحن منك قد صدرنا وأنت تحبنا كأبناء ومنك لن ننال شراً .

« الذي في السماوات » — في ذلك الموضع المناقض للارض ، وفي الدائرة المضادة للمادة — في الروح ، الجزء الصغير — ولكنه السرمدي — الذي هو نفسنا .

« ليتقدس اسمك » — اذن لا يكفي أن نعبدك بالفم فقط بل أن نكون مستأهلين لك ونقترب منك بحب أقوى . حتى لانكون بعد الآن ، رب الثأر ، رب الحروب ، لكن الآب ألذي يعلم الغبطة في السلام .

« ليأت ملكوتك » — ملكوت السماوات ، ملكوت الروح والمحبة ، والانجيل (البشارة بالفرح) .

« لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض » — لتسد شريعتك شريعة الصلاح والكمال في الروح والمادة ، في العالم المنظور والعالم غير المنظور .

« خبزنا الجوهري أعطنا اليوم » — لان مادة جسدنا ، القوام الضروري للروح ، يحتاج ، كل يوم الى شيء من المادة لقيامه . نحن نطلب الغنى ، العائق الموبق بل هذا اليسير الذي يهيء لنا هو أن

نعيش فنصبح أكثر استئهالا للحياة التي تعد بها ، ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، لكن لولا لقمة الخبز هذه ، لما استطاعت النفس ، ساكنة هذا الجسد ، أن تتغذى بمآ كل أثمن من غير الخبز .

« أترك لنا ديوننا كما نحن نتركها لمديونينا » — اغفر لنا كما نحن نغفر لغيرنا . لن نستطيع أن نصير في حل منها أمامك . لكن أنظر انه لا سهل عليك أن تتناسى ذكر كل ديوننا من أن تترك طبيعتنا الشريرة ديناً واحداً لمديون واحد من مديونينا .

« ولا تدخلنا في تجربة » — نحن ضعفاء ، ونحن أيضا عرضة للّحم في هذا العالم الذي يظهر ، في بعض الاحيان جميلا بديع الجمال فيغرينا بكل رخاوات الخيانة . فساعدنا حتى لا يكون رجوعنا ضعيفاً مغموزاً فيتأخر دخولنا الى الملكوت .

« لكن نجنا من الشرير » — أنت الساكن في السماوات ، أنت الروح ، أنت المتسلط على الشر ، على المادة المعادية القاسية . أنت ، يا عدو الشيطان ونقيض المادة ، ساعدنا في هذا الانتصار على الشر الذي ينمو دائماً ويتكاثر ، اذ انه لا يقهر حقاً الا متى قهره « الجميع » — في هذا الانتصار النهائي تقوم عظمتنا ، غير أنها لا تدنو من هذا النصر الاّ بعون ميثاقك .

بهذا الدعاء تنتهي « أبانا » انه لا يرى فيها ما في الصلوات الشرقية من المجاملة المملّة : مسابح طويلة من المدائح غلبت فيها

المغارة كأنما قد اخترعها كلبٌ يسجد ، في نفسه المستكلبة ، لصاحبه الذي يعده بان يعيش ويُطعَم . ولا يرى فيها من اثر لتوسلات « صاحب المزامير » الدامع ، يلتمس من الله كل عون ، والزمني أكثر من الروحي ، وينتحب اذا محل الحصاد او اساء اليه ذووه ويستنزل الجراح والسهام على اعدائه الذين لايستطيع ان يقهرهم وحده.

هنا المديح الوحيد هو كلمة «ابانا» حمدٌ هو واجب ودليل حبٍّ . من هذا الآب لا نلتمس الا شيئاً ومن خبز — ونحن على استعداد لكسبه ، لان بشارة الملكوت انما هي شغلٌ لازم — ثم حماية واقية لمحاربة الشرّ ، الذي انما هو عدوّ الناس كلهم ، والخيط الغلظ المانع علينا دخول الملكوت .

لكن الذي يقول «ابانا» ماهو متكبر ، ولامتذلل . انه يخاطب أباه كأنما يخاطب نظيرا له ، بلهجة الواثق القريب القرابة ، ولما كان متين الثقة بانه يحبه يعرف ان اباه يعرف رغباته ، ولا حاجة الى الخطب الطويلة ويسوع ينبّه « ان اباكم عالم ما تحتاجون اليه قبل ان تسألوه» ان اجمل الصلوات هي أيضاً أن نتذكر كل يوم كل مانحن في حاجة اليه لنكون امثال الله .

آيات عظيمة

بعد ما اذاع يسوع شريعة الاقتداء بالله الجديدة نزل من الجبل .

ان الانسان لا يستطيع ان يعيش عمره كله على أعالي الجبال لاننا في الدقيقة التي نصل فيها الى قنة الجبل انما نكون قد هيأنا ذواتنا لدقيقة أخرى نهبط فيها عن قنة ذلك الجبل . وما الصعود بالحقيقة سوى التعهد بالنزول ووعد بالهبوط أيضاً . وكل من أعطي ان يؤدي رسالة عامة الى العالم يجب عليه ان يسعى الى حيث يسمعه العالم ، لانه إذا عاش عمره على قنن الجبال فقليلون هم الذين يقدرون على السكنى معه ، لان قنن الجبال باردة على ذلك الذي لم تحرق نيران المحبة المقدسة كيانه القديم وتدفع به الى سمو الحياة العلوية الجديدة ، وقليليون هم الذين يسمعون صوته في الجبال . لان الذي جاء لكي يعطي من خزائنه الروحية التي لا تفرغ لا يستطيع ان يسأل الناس المصابين بالتدرن الرئوي ، والسقماء بقلوبهم ، والمرتخين بمفاصلهم وأعصابهم ، ان يتبعوه الى الجبال وهم يتعرجون و يتلوون . بل انما الاجدر به ان يتبعهم بنفسه الى السهول ، الى اكواخهم وحقولهم ، يجب عليه ان ينحدر هابطا اليهم لكي يرفعهم الى رفعة علائه .

وقد عرف يسوع ان التعاليم الفخورة في اعالي الجبال لا تكفي وحدها لنشر البشارة الطيبة للجميع . وادرك ان الناس في حاجة

الى كلمات الحقائق بامثال و باشكال بسيطة لكي تكون واضحة وضوح الحق لكل ذي عينين . غير انه كان يعرف ايضا ان كل هذا مع كفايته لن يأتي بالنتيجة المرغوب فيها .

واما الشعب الذي تبع يسوع ، وتبعه يسوع ، فكان شعبا فظا، خشنا ، جاهلا حقيرا ، وقف حياته على المادة ولم يكن قادرا على فهم الحقائق الروحية الا تدريجيا و بجهود عظيمة ، و براهين حسية ،وايات ورموز مادية . ولم يكونوا قادرين ان يفهموا حقيقة واحدة من الحقائق الروحية مالم تجسدها لهم بمثل مادى او حكاية تنطبق على عقولهم ، وتقصها عليهم بلغتهم والفاظهم واصطلاحاتهم . وكثيراً ما تقود الحكاية الرمزية الى وحي طهور قلما يتأتى للناس عن طريق التعاليم الجافة المجردة ، بل كثيراً ما تكون العجيبة في نظرهم تأييداً لحقيقة جديدة أو تثبيتاًرسالة مشكوك في صحتها . ولم يكن أولئك الشرقيون ليكتفوا بالوعظ المقتصر على سرد الحقائق المجردة والمبادىء المقررة الناشفة ولذلك رحبوا بأمثال يسوع بأجمعهم . أما يسوع فقد عمد في تعليمه الى العجائب والشعر ، فاجترح المعجزات وعلم بالامثال وهنا لك كثيرون من العلماء المحدثين كانت العجائب الواردة في الاناجيل الاربعة في مقدمة الاسباب التي أبعدتهم عن يسوع وعن كتابه . لان أدمغتهم المتقلصة لا تستطيع أن تسع الامور الغريبة . ولذلك يقولون أن الانجيل يكذب في روايته الحوادث كثيرة ، و بما أنه

يكذب في مواضيع متعددة لا يمكن أن نصدقه في أى أمر من الامور التي رواها لنا . لانه يستحيل أن يكون يسوع قد أقام الاموات بعد أن ماتوا وقبروا : ولذلك فلا قيمة لتعاليمه في نظرنا .

هذه هي حجة هؤلاء الاغرار ، وهذا منطقهم الفاسد وما أسخفها حجة وأفسده منطقاً . فانهم يأخذون للعجائب أهمية ومعاني لم يقصدها يسوع قط وهم لو أعملوا الفكر في درس البشائر الاربع وعرفوا أن يسوع كان يمتنع دائماً عن صنع العجائب — لرأوا أن يسوع نفسه لم يكن يشعر بأهمية فائقة لهذه القوة الروحية العليا التي كان يجترح المعجزات بها . فكان يرفض اجتراح العجيبة كما سنحت له الفرصة ، ولم يعمل عجيبة قط الا تلبية لنداء امرأة أو رجل مؤمنين يأتيان اليه متوسلين أن يزيل عنهما تعسهما وأن المتأمل البصير يرى بملء الوضوح في الاناجيل الطاهره أن يسوع لم يصنع معجزة ما اكراماً لذاته أو سعيا وراء حماية نفسه وخلاصه مما ألمّ به من الضيق والحزن . فلم يصنع عجيبة في البرية عند ما كان مع الشيطان ، ولا في الناصرة عند ما قبضوا عليه ليقتلوه ، ولا في بستان الجثمانية عند ما جاءوا لكي يقودوه الى الموت ، عند ما عيروه وسألوه أن يخلص نفسه ، لان قوته كانت لغيره ، لمنفعة أخوانه بالجسد القاطنين على الارض .

وقد جاء اليه كثيرون يسألونه أن يصنع آية أو عجيبة أمام الناس

حتى أن غير المؤمنين به يؤمنون بأن رسالته هذه هي الرسالة الحق ، فأجابهم قائلا : « أن الجيل الشرير الفاسق يطلب آية ، فلا يعطي الا آية يونان النبي » ولكن ما هي هذه الآية ، يرى الكتبة الانجيليون الذين كتبوا بعد القيامة أن يونان كان في بطن الحوت ثلاثه أيام وثلاث ليال ثم خرج حياً كذلك أقام يسوع في قلب الارض ثلاثه أيام ثم قام ناهضاً ، ولكن تتمة حديث يسوع في هذا الموضوع تظهر أنه انما عني أمر آخر ، قال : « رجال نينوي سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويحكمون عليه ، لانهم تابوا بكرز يونان ، وهاهنا أعظم من يونان » ان نينوى لم تطلب آية من يونان أو معجزة بل تابت بمجرد الكرز والبشارة ، ولذلك فان الناس الذين لايهتدون بكلام يسوع وحده — الذي يبشر بحقائق اسمى — هم أحط من رجال نينوى ، هم عباد وثن ، هم برابرة .

لان الايمان يجب ألا يتوقف على العجائب وحدها ، بل يجدر بنا أن نعلم ان الايمان — وهو أسمى اذا جاء عن غير طريق الآيات والمعجزات — يستطيع أيضاً صنع المعجزات . وأما ذوو القلوب القاسية المظلمة الذين أقاموا حاجزاً بينهم و بين الحق ، فانهم لا يرتدون عن ضلالهم ولو عاينوا أعظم المعجزات . « ان لم يسمعوا من موسى والانبياء فانهم ولا أن قام واحد من الاموات يصدقون » وفوق ذلك فان المدينتين اللتين كانتا قاعدتين عظيمتين لاعظم المعجزات قد

رفضتا يسوع واحتقرتاه ولذلك وبخهما قائلاً : « ويل لك يا كورزين! ويل لك يا بيت صيدا !لانه لو صنع في صور وصيداء ما صنع فيكما من القوات لتابتا قديما جالستين في المسوح والرماد » .

ولم يكن يسوع يعتقد بان صنع العجائب من ميزاته الخاصة . ولذلك عندما أخبروه ان رجلا يخرج الشياطين باسمه اجابهم قائلا « لا تمنعوه » وقد منح قوة صنع العجائب لتلاميذه بقوله « اشفوا المرضى، طهروا البرص،اقيموا الموتى ، اخرجوا الشياطين ، مجانا اخذتم ومجانا اعطوا. »

وقد كان الدجالون والمشعوذون في ذلك العهد يجترحون الايات والغرائب التي كانت تبدو للناس كأنما هي عجائب ومعجزات .ومن أولئك الاغرار سمعان الساحر الذي كان يعمل العجائب في السامرة، حتى أن تلاميذ الفريسيين انفسهم كانوا يعملون عجائب ، ولكن العجائب وحدها لا تكفي للدخول الى الملكوت.« كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم ، يارب، يارب ، الم نتنبأ باسمك ، وباسمك لم نخرج الشياطين ولم نصنع باسمك آيات عظيمة ؟ وحينئذ ساقول لهم « انني لم اعرفكم ، ابعدوا عني ياصانعي الاثم ! » لانه لا يكفي ان تخرجوا الشياطين من غيركم ان لم تخرجوا الشياطين من قلوبكم ، شياطين الكبرياء، وشياطين الطمع .

وبعد موته سيأتي اناس ويصنعون عجائب كثيرة أيضاً.فسيقوم

مسحاء كذبة ، وانبياء كذبة ، ويعطون علامات عظيمة وعجائب حتى انهم يضلون المختارين لو امكن » قد سبقت فاخبرتكم . فلا تصدقوا هذه الايات ولا تؤمنوا بهذه العجائب حتى تنظروا ابن البشر. لان عجائب الانبياء الكذبة لا تثبت صحة ما يدعون . »

لاجل هذا جميعه كان يسوع يتجنب اجتراح المعجزات جهده ولكنه لم يكن يتمكن دائما من صم أذنيه عن استماع توسلات المبتلين بالامراض والاحزان ، وكثيراً ما كانت شفقته تسبق تضرعاتهم الى صنع الاعجوبة التي هم في حاجة اليها . لان العجيبة ليست سوى ثمرة من ثمار الايمان ، وقد كان ايمان يسوع متناهيا في الكمال، وكان ايمان الذين برئوا بواسطته عظيما جدا . ولكنه كان في الغالب بعد ان يشفي المريض الذي يأتي اليه يوصيه ان يبقي امر شفائه مكتوما قائلاً له « انظر الا تقول لاحد شيئاً بل اذهب في طريقك » وما اجدر الذين لا يصغون الى الحقيقة الازلية التي جاء بها يسوع ، بحجة أن العجائب تزعزع ايمانهم ، ما اجدرهم أن يتذكروا الاية التي قالها يسوع لتوما ، « طوبى للذين لم يروني ويؤمنون » .

العميان يبصرون

ثلاثة لا يستطيع الانسان ان يعيش بدونها : الخبز والصحة

والامل ، ولو حُبس عنه كل ما في العالم وتُرِك له التمتع بهذه الثلاثة فانه يعيش — ولكن تاثرا لاعنا ، غير انه اذا لم يكن له على الاقل واسطة للحصول على هذه الثلاثة فانه يتمنى الموت في كل لحظة لان الحيات بدون هذه الحاجات الضرورية موت زوءام ، موت شنيع يسمم الحياة ويظلم النفس . فالجوع يضني الجسد ، والامراض تجعل الانسان عدو نفسه واليأس — وهو ان لا يتوقع الانسان حالةافضل من الحالة التي هو فيها ، ولا يرجو وقاية من أذى او خلاصا من ضرر — يستولي على القلب فيفقده اماله ويصبح الانسان معه لا يميز بين أمر وأمر ولا يجد لوجوده او لاعماله غاية او قيمة . وما اكثر الذين لا ينتحرون لانهم يجدون في الانتحار جريمة لا تغتفر .

ولذلك وجب على من يود أن يجذب الناس الى محبته ان يعطيهم خبزا وصحتا وأملا . يجب ان يطعمهم ويشفي امراضهم ويجدد في نفوسهم الايمان بحياة اسعد وأجمل من حياتهم .

وقد جاء يسوع الى العالم لكي يعطي العالم هذا الايمان الحيّ فكان يوزع الخبز المادي والخبز الروحاني على جميع الذين تبعوه الى الجبال والى البرية . فرفض ان يحول الحجارة الجامدة الى ارغفة من الخبز عندما سأله الشيطان ان يفعل ذلك ولكنه جعل الارغفة الحقيقية تشبع المئات والالوف . ولم يكتف بذلك بل حول الحجارة التي يحملها الناس في صدورهم الى قلوب انسانية لا تختلج الا

بالمحبة والرحمة .

لم يرفض يسوع مريضا تقدم اليه . ولم يحتقر جسده بالجلد والضرب . لانه لم يكن يعتقد بان الالام الجسدية ضرورية للسيادة على الشر فان الشر شر ويجب ان يُطرح خارجا . والالم شكل من اشكال الشر فان حزن النفس وحده كاف للخلاص ، ولذلك فاية حاجة الى تعذيب الجسد عبثا ؟ كان اليهود القدماء يعتقدون ان المرض عقاب من الله على الخطيئة ، ولكن المسيحيين يعتقدون بان المرض عون على التوبة .

ان يسوع لم يعتقد بان الخلاص الحقيقي هو في الآلام والقروح والمسوح بل أنْ : اعطوا ما للجسد للجسد وما للنفس للنفس. فكان يحب الجلوس الى موائد الاصدقاء ، ولم يكن يرفض كأسا من الخمرة المعتقة ، وقد قبل المرأة التي سكبت الطيب على رأسه وقدميه ولم يردّها خائبة . وكان يستطيع أن يصوم اياما عديدة من غير ان يتناول طعاما ، كما انه كان قادرا ان يقتصر في معيشته على قطعة من الخبز وجزء صغير من السمك المشوي ، وكان يستطيع ان يفترش الغبراء ويتوسد الحجارة الصماء ، ولكنه لم يبحث قط عن الالم والجوع والحزن قبل ان يأتي الزمن ـ وكان يقدس الصحة ويلذ له الجلوس الى الطعام مع نخبة من الاصدقاء ، وكان يستطيب ان يتناول كأسا من الخمر مع جماعة من المحبين الصدوقين ، ولم يكن يرفض ان يتمتع

برائحة الطيب الغالي الثمن في حينها اذا لم يكن من جميع ذلك ضرر لاحد من الناس .

وعندما كان يأتي اليه المرضى ملتمسين منه شفاء كان يشفيهم للحال من امراضهم . لانه لم يأت الى العالم لكي يحبس الحياة عن العالم بل انما جاء لكي يمنح الحياة للجميع ، ولكي يضع اساسات راسخة لحياة اكمل واسعد من هذه الحياة . ولم تنحصر مهمته في شفاء المرضى ، لان رسالته كانت تقضي باستئصال الالام الروحية من العالم وتأييد الفرح الروحي والسعادة السماوية في الارض .ولكنه لم يرفض قط ما كان يعرض له ، وهو في جهاده ضد الالام الروحية ، من الالام الجسدية ، بل كان يبرئها بقوته الالهية جالبا الراحة والصحة للجسد والنفس معا . غير انه كان يرفض أن يحصر اعماله في الجسد لان غايته كانت اسمى من الجسد، لانه لم يشأ قط ان يخيل الى الناس انه ساحر دجال يطوف في البلاد ، أو انه مسيا الارضي الذي كان اكثر الناس يتوقعون قدومه ، و بما أنه جاء لكي يقهر الشر و بما ان بعض الناس كانوا يعرفون بما اعطيه من القوة لاخضاع جميع الشرور تحت قدميه ، لاجل ذلك كانت محبته تدفعه الى تخفيف الشرور الجسدية .

وعندما كان يلتقي على الطريق المطروقة بابناء الصحة بجماعة من البرص الهائمين على وجوههم المشوهين المخيفين ، وينظر الى

زرقتهم وانتفاخ اجسادهم ، و بشرتهم ذات القشور البادية من تحت ثيابهم الرثة البالية عندما كان ينظر الى تلك البشرة المقشّرة ، المبرقعة البشرة المفلّعة ، البشرة اليابسة المتجعدة ، التي تشوّه الفم ، وتغمض العينين ، وتيبس اليدين ، عندما كان ينظر الى أولئك الاشباح التعساء الحزانى ، المهجورين من الجميع ، والمفروزين عن الناس ، والمحتقرين من كل انسان ، المقتنعين بقليل من الخبز ، والشاكرين اذا حصلوا على قدح صغير لكي يشربوا به ، أو خربة قديمة يتوارون في ظلها لكي يتناولوا طعامهم الحقير ، عندما كان يلتقي باولئك البرص فينادونه باعلى اصواتهم وكلمات الابتهال تخرج من شفاههم المقرّحة المنتفخة ملتمسين منه ، وهو القدير بالقول والفعل ، ملتمسين تحقيق أملهم الوحيد في حياتهم الشقية المؤدية الى اليأس ، ملتمسين الصحة والشفاء باعجوبة من يسوع ، فكيف كان يقدر وهو أبو الرحمة واله كل تعزية ان يزجرهم عنه ، كما كان يفعل بهم غيره من الناس ، و يتغاضى عن اجابة صلواتهم ؟

وعندما كان يرى المصروعين يتمرغون في التراب ، ووجوههم تتلوى متشنجة متلونة بالوان مختلفة ، والزبد يرغي من اشداقهم ، والمصابين بالارواح النجسة يصرخون مولولين في القبور الخربة ، وهم يعوون مثل كلاب الليل الشريرة ، حزينين مغمومين ، والمفلوجين الذين لم يبق لهم من احساسهم سوى القليل الذي يجعلهم يشعرون

بمرارة الامهم ، وقد باتوا كأنما هم اجساد هامدة تقطن فيها نفوس سجينة ضارعة ملتمسة خلاصا ،والعميان، العميان الراعين، المسجونين في ظلمات الليل منذ مولدهم ـ الذين تذوقوا مرارة ظلمة القبر قبل ان واراهم الثرى ـ الذين يتعثرون في مشيهم ملتمسين طريقهم بين السعداء الذاهبين والقادمين بحرية وطمأنينة أولئك العميان المساكين الذين كانوا يسيرون رافعين رؤوسهم، ومحملقين بعيونهم ،كأنما هم يتلمسون النور من أعماق اللانهاية، أولئك العميان الذين لم يكن العالم في عرفهم، سوى سطوح خشنة يتلمسون طرقهم في منعرجاتها، العميان العائشين وحدهم ابدا في ظلمة العالم ، الذين لم يعرفوا الشمس الا بحرارتها وما تبعث من الدفء لاجسادهم ! ـ عندما كان يرى يسوع جميع هؤلاء التعساء المضروبين بالشقاء، فكيف كان يمكن ان يغلق ابواب رحمته عن اغاثتهم وابرائهم من امراضهم ؟

وحبه الذي يتسامى عن الشفقة المعتادة كما تتسامى طبيعته عن الطبيعة البشرية لا يسعه ان يتغاضى عن توسلات تستطيع ان تنال من قلب وثني . هذه التضرعات التي تلمس حبات النفوس — حتى في صمتها .

جواب ليوحنا

كان يسوع يشفي المرضى ولكنه لم يكن ساحرا مشعوذا . ولم يلجأ قط في حياته الى السحر والتعازيم والتعاويذ والدخان والستائر والالغاز . ولم يلتمس مساعدة قط لا من قواة السماء ولا من قوات الارض والجحيم فقد كان يكتفي بكلمة واحدة ، او صوت قوي ، او كلمة لطيفة ، او اشارة محبة وملاطفة . فكانت ارادته وايمان المستدعي الشفاء كافيين لابراء المريض . ولكنه كان يسأل كل من جاء يستشفي منه قائلا ، « هل تؤمن بانني استطيع ان افعل هذا ؟ وكان يقول له بعد الشفاء « اذهب . ايمانك قد جعلك صحيحاً » وكان يعتقد ان العجيبة هي اتحاد ارادتين للخير والصلاح وملامسة حية بين ايمان الشافي وايمان الذي يلتمس الشفاء « الحق اقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة الخردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من ههنا الى هناك فينتقل ، ولا يستحيل عليكم شيء ولو كان لكم ايمان مثل حبة الحنطة لكنتم تقولون لهذه التينة انقلعي من جذورك وانطرحي في البحر فتطيعكم » اما الذين ليس لهم ايمان كجزء من الف من حبة الخردل فقد اقسموا بان مثل هذه القوة وهم باطل ، وان يسوع لم يكن الا دجالا محتالا .

قد اطلق الانجيليون على العجائب ثلاثة اسماء ، وهي كما وردت

باليونانية هكذا « ديناميس » ومعناهــا قوات و (تيراتا) ومعناها معجزات و (سيمايس) ومعناها علامات او آيات . فكانت العجائب علامات للذين حفظوا النبوة عن مسيّــا في قلوبهم ، وكانت معجزات لاولئك الذين كانوا يتوقعون ادلة ان المسيح هو مسيا المنتظر ، غير انها لم تكن عند يسوع وفي يسوع سوى قوات واعمال قديرة ، وأنوار برق منبعثة من قوة فائقة للبشر .

كان شفاء يسوع ذا صفتين ، فلم يكن يشفي الجســد فقط ، بل كان يشفي الجسد والنفس معا ، وهو انما جاء خصيصاً لشفاء امراض النفس واستئصال اوجاع العالم الروحي حتى أن ملكوت السماوات تثبت اساساته على الارض .

على ان اكثر الامراض في العالم ذات صفتين أيضا : جسدية وعقلية ، تصح فيها الاستعارات والرموز . فقد شفى يسوع الجدع ، والعرج ، والمُقعدين ، والمصابين بأنواع الحميات المختلفة : والمستقين من الرجال ونازفات الدم من النساء ، وشفى جراح السيوف ـ فاعاد اذن ملخوس التي قطعها بطرس في ليلة الجثمانية الى موضعها ـ وكل ذلك لكي يكون البادىء في تنفيذ شريعته القائلة. احسنوا الى الذين يسيئون اليكم » تنفيذا كاملا ولكنه كان في الغالب يشفي المصابين بالارواح الشريرة : فابرأ المقعدين ، والبرص ، والعميان ، والخرس ، والصم ، لان الامراض العقلية كانت تعرف في القديم بالاصابة من

الارواح الشريرة حتى ان الاستاذ اريسطوا نفسه كان يعتقد بالاصابة من الارواح الشريرة. وكان الناس يعتقدون في ذلك العهد بان المجانين والمصروعين والمصابين بالامراض العصبية على اختلافها ، انما قد غزتهم الارواح الخبيثة . على ان ايضاحات العلماء الحديثين واكتشافاتهم التي هي في الغالب سطحية ظاهرية لا تنقض الحقيقة الواقعية بان من سكنته الشياطين يكون دائما على النحو المرقوم اعلاه . وان هذا الايضاح العام الوافي قد جاء موافقا لذلك التعليم الرمزي المجازي الذي وقف له يسوع حياته الجسدية كلها . فانه كان يطمح الى تأسيس ملكوت الله على الارض وهدم ملكوت الشيطان ، ولذلك كان من واجبات رسالته ان يخرج الشياطين . لا فرق البتة بين تشويش في الجسم عن ذنب معقول و بين تشويش شيطاني لان بين الاسقام الجسدية والاسقام الروحية تشابها وضعيا مبنيا على اساس القرابة والنسب لان الغضبان كالمصروع والمفلوج كالكسلان المتراخي ، والدني الخسيس كالابرص ، والاعمى كالجاهل الذي لا ينظر الحقيقة ، والاصم كالمتعصب الذي لا يصغي الى صوت الحق ، والمتعافين من امراضهم كالذين يبعثون من قبورهم .

وعندما أرسل يوحنا، وهو في غيابة السجن، تلميذين من تلاميذه ليسألا يسوع هل كان هو النبي المنتظر او انهم ينتظرون آخر سواه ، اجاب يسوع وقال لهما « اذهبا واعلما يوحنا بما سمعتما ورأيتما : العميان

يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون بالانجيل » لان يسوع لايفرق الانجيل عن الاشفية العجائبية فان البشارة للنفوس كالاشفية للاجساد، وانما عنى بجوابه انه قد شفى الاجساد حتى ان النفوس تصير اكثر استعدادا لقبول البشارة بالانجيل .

أن أولئك الذين لم يكونوا رأوا نور الشمس في حياتهم قد ابصروا الان نور الحق الساطع الضياء ، والذين لم يستطيعوا ان يسمعوا كلمات الناس الحقيرة قد تمتعوا بسماع كلمات الله الخالدة ، والذين حلت فيهم الشياطين واستعبدت نفوسهم قد تحرروا من شرور الشيطان وعبوديته، والذين كانوا منجسين ومضروبين بالقروح قد طهروا وصاروا انقياء كالاولاد ، والذين كانوا مقعدين ولا يستطيعون ان يتحركوا بعد ان اضاعوا قوتهم وتقلصت بشرتهم يتبعون خطواتي اليوم وهم يقفزون كالغزلان ، والذين كانت نفوسهم راسفة في اغلال العبودية وسجون الموت قد نهضوا بكلمة واحدة مني . . وقد صار الفقراء بعد سماع صوت البشارة المفرحة اغنى من ذوي الاملاك والاموال . هذه هي شهاداتي الرسمية التي تظهر حقيقة دعوتي .

ان يسوع المحرر الفادي والطيب الشافي ليس كما يتصوره بطل ايمان اعدائه المحدثين الذين ، لكي يطلوا شركهم والحادهم بطلاء من ذهب ويحصنوه ضد التقشف والزهد في الحياة ، ينبرون قائلين

« ان يسوع اله المرضى والضعفاء ، والمنجّسين والفقراء ، والعجزة والأجراء ، » ولكن كل ما فعله يسوع انما فعله لكي يمنح الناس جمالا وقوة وتطهيرا وغنى وحرية لكنه كان يخالط المرضى ويعيش معهم لكي يقصي عنهم امراضهم ، ويعاشر الضعفاء لكي يرفعهم من ضعفهم الى قوته ، والمنجسين لكي يطهرهم والفقراء لكي يغنيهم ، والعبيد لكي يحررهم من عبوديتهم . ولكنه لم يحب المرضى لمجرد انهم مرضى ، بل كان يحب الصحة شأن سائر رجال الاجيال الغابرة وكان حبه للصحة عظيما جدا ، حتى انه كان يتوقع اعادتها للذين اضاعوها . اجل ، كان يسوع نبي السعادة وقد جاء الى الارض لكي يعلّم العالم الحياة الجديدة بان نحيا لاجلها . ولم تكن العجائب سوى كفالات على صحة وعده .

يا طاليتا قومي

« الموتى يقومون ! » هذه واحدة من العلامات التي بعث بها يسوع الى يوحنا مع تلميذيه ليؤكد له وهو في السجن انه هو النبي وقال يسوع مرة لاخت لعازر الصالحة والعاملة النشيطة مرتا « أنا القيامة والحياة . من آمن بي وان مات فسيحيا » وكل من كان حيا وآمن بي فانه لن يموت الى الابد » وما القيامة سوى الولادة الثانية

بالايمان ، وليس الخلود سوى البرهان الدائم على صحة هذا الايمان .

اما القيامات من الاموات وهي حوادث تاريخية ثابتة فهي ثلاث كما اوردها لنا الانجيليون الاطهار. والثلاثة الذين اقامهم يسوع من بين الاموات هم : فتى في مقتبل العمر ، وصبية صغيرة، وصديق عزيز .

فقد حدث مرة انه بينما كان يسوع داخلا الى مدينة « نائيم » وهي مدينة جميلة كانت مبنية على تلة صغيرة تبعد عن الناصرة بضعة اميال ، التقى موكب جنازة . فاذا بالناس يحملون فتى في مقتبل العمر الى القبر . وكان الفتى ابنا وحيدا لامه الارملة التي كانت قد ترملت قبل ذلك بوقت قصير ، ولم يبق لها بعد زوجها من تتعزى به سوى ابنها الوحيد الذي كانوا يحملونه في تلك الساعة الى ظلمة القبر . فنظر يسوع الى تلك الارملة وهي ماشية مع النساء تنوح وتبكي والنساء يبكين من حولها ويولولن مما يتفطر له القلب حزنا ، فقد كان لهذه المرأة رجلان يحبانها من بين سائر رجال العالم : الاول زوجها والثاني ابنها ، فمات الاول وقبر ثم مات الثاني في حينه وكانوا يحملونه الى الدفن ، وهكذا خسرتهما كليهما الواحد بعد الاخر . فظلت وحدها في العالم ، زوجة من غير زوج ووالدة لا ولد لها ، وأرملة وليس لها من يعينها ولا من يعضدها أو يعزيها في كآبتها وحزنها . وهكذا قضت المحبة الاولى التي كانت تعيد الى ذهنها تذكارات الشباب الغابرة ،

وفقدت المحبة الثانية التي كانت تجدد في قلبها الامال الكبار في السنين المقبلة . هكذا قضت هاتان المحبتان النقيتان الساذجتان . فان الزوج يعزي امرأته على فقد ابنهما اذا كان الزوجان حيين يرزقان ، والابن يجبر قلب امه لو انه مات أبوه وظل هو في قيد الحياة ! ولكن مات الأثنان ولم يبق للارملة المسكينة سوى الحسرات والتنهدات. اواه لو ظل واحد منهما حيا ! اواه ان شفتيها لن تعرفا لذة القبلة المقدسة فيما بعد !

نظر يسوع الى تلك المرأة فشفق عليها لان حزنها كان يتصاعد كأنما هو شكاية من حظها . فالتفت اليها وقال لها ، « لا تبكي »

ثم دنا من النعش ولمسه بيده ، وكان الفتى متمددا عليه ملفوفا بالاكفان لكن وجهه كان مكشوفا تغشاه صفرة الموت . فوقف حاملو النعش للحال ، وسكت الجميع منذهلين ، والارملة ايضا هدأت وتقدمت .

اما يسوع فنظر الى الفتى الميت وقال له « ايها الشاب ، لك اقول ، قم ! » فنهض الميت في الحال و بدأ يتكلم ،فردّه يسوع لامه. وانما « ردّه » لامه لانه صار له بعد ان اقامه من بين الاموات . فقد اختطفه يسوع من ارض الموت لكي يعيده الى أمه التي لا تسطيع ان تعيش بدونه ، ولكي يمسح دموع والدة مسكينة على الارض .

وفي يوم آخر كان يسوع عائداً من غدارة [١] فجاء اليه أب وخر عند قدميه لان ابنته الصغيرة كانت مشرفة على الموت . وكان اسم الرجل يائيروس ، ومع انه كان رئيسا من رؤساء المجمع اليهودي فانه كان يؤمن بيسوع . فذهب يسوع معه الى بيته . وبينما كانوا في وسط الطريق جاء احد الخدام وقال ليائيروس «ان ابنتك قدماتت، فلا تتعب المعلم» ولكن يسوع لا يؤمن بالموت فقال للاب «لاتخف، آمن فقط ، فتخلص»

ولما جاء الى البيت لم يدخل احدا معه الآ بطرس ويعقوب ويوحنا وأبا الصبية وأمها . وكانوا جميعهم يبكون و ينوحون . فقال لهم يسوع «لا تبكوا ، انها لم تمت ولكنها نائمة» فضحكوا منه لعلمهم بانها قد ماتت ، فاخرج الجميع خارجا وامسك بيدها ونادى قائلا : «ياطاليتا قومي !» اي «ياصبية قومي !»

فرجعت روحها اليها وقامت في الحال تمشي لانها كانت «ابنة اثنتي عشرة سنة» فامر بان تُعطَى طعاما لانها لم تكن روحا منظورة أو شبحا او خيالا ؛ بل كانت جداً حيا قد استيقظ ضعيفا متأهبا ليومه الجديد بعد أن مرّت به احلام الحمّى .

---

(١) هي احدى مدن سورية القديمة ـ راجع الحاشية الاولى من الفصل «كفر ناحوم»

يقظة لعازر

كان يسوع ولعازر صديقين صدوقين احدهما للاخر . وطالما اكل يسوع في بيت لعازر مع صديقه وشقيقتيه . وحدث مرة ان لعازر مرض واشتد به المرض فارسلتا واخبرتا يسوع عن المرض الذي اصابه فاجاب يسوع «ان هذا المرض ليس للموت» وانقضى على ذلك يومان . وفي اليوم الثالث قال لتلاميذه « ان لعازر حبيبنا قد رقد ، ولكنني ماض لاوقظه من رقدته» وكان قريبا من بيت عنيا فجاءت مرتا لتستقبله وكأنما هي جاءت تعاتبه على ابطائه في القدوم اليهم. وعندما نظرته قالت له « يارب ، لو كنت انت ههنا لم يمت اخي » و بعد قليل جاءت اختها مريم وقالت له أيضا : « يارب ، لو كنت انت ههنا لم يمت اخي » فتألم يسوع لهذا العتاب المتكرر من الشقيقتين وحزن في قلبه ليس لانه جاء متأخرا بل لانه كان يكتئب دائما على ما كان يراه من شديد الحاجة الى الايمان حتى في قلوب أعز اصدقائه المقربين اليه .

« قال اين وضعتموه ؟ فقالوا له،يارب ، تعال وانظر ..... فبكى يسوع» — وهي أول مرة رأوه يبكي — ومضى الى القبر

فقال يسوع : « ارفعوا الحجر »

اما مرتا مدبرة البيت النشيطة الراسخة الخلق فقاطعته قائلة ،

« يارب ، انه قد انتن في هذا الوقت : لانه له أربعة أيام في القبر » ولكن يسوع لم يعبأ بما قالته بل قال ثانية ، «ارفعوا الحجر» فدحرجوا الحجر عن باب القبر للحال . فصلى يسوع صلاة وجيزة رافعا رأسه الى السماء ثم اقترب من مدخل القبر وصرخ بصوت عظيم « يالعازر، هلمّ خارجا »

فخرج لعازر وهو يتعثر بأذياله لان يديه ورجليه كانت مربوطات بلفائف ووجهه كان مبرقعا بمنديل .

فقال لهم يسوع « حلوه ودعوه يمشي . »

فعاد الاربعة : يسوع ولعازر واختا لعازر ، يتبعهم الاثنا عشر واليهود المصعوقون انذهالا ورجعوا جميعا الى البيت . فانفتحت عينا لعازر ثانية لنور الحياة ، ومشى على قدميه ، وعادت القوة ثانية الى اعصابه ويديه . اما مرتا فنهضت مسرعة واعدّت افضل الطعام الذي استطاعت أن تهيئه في تلك الساعة والجموع تزدحم في دارها وهي منهوكة القوى بعد احزان أربعة أيام متواصلة ـ فأكل لعازر المنبعث من بين الاموات حيا مع شقيقتيه وأصدقائه هنيئا وشربوا مريئا. ولكن مريم لم تستطع ان تأكل لقمة واحدة لانها لم تقدر أن تحوّل عينيها عن وجه يسوع غالب الموت الذي بعد ان مسح الدموع من عينيه أخذ الخبز وكسره واكل ثم اخذ الكأس وباركها وشرب منها كأنما كان ذلك اليوم مثل سائر الايام .

هذه عجائب القيامات الثلاث التي صنعها يسوع وروى لنا خبرها الانجيليون الابرار ، ولنا في روايتهم بضع ملاحظات ربما اغنتنا عن تفاسير المفسرين القاصرة عن ملء فراغ نفوسنا.

ان يسوع بعث في كل حياته ثلاثة أموات ، لا رغبة منه في اظهار قوته واسترعاء الجمهور الى معجزاته بل انما فعل هذه العجائب متحركا بحزن الاحياء على أمواتهم وتعزية لقلب أم أرملة وأب تاعس وشقيقتين يتيمتين. اما عجيبتا نائين وبيت عنيا فقداجراهما امام الشعب بكامله ، وأما عجيبة ابنة يائيروس فانما صنعهاامام بضعة أشخاص وسألهم ان لا يقولوا شيئاً عنها تجنبا للشهرة .

وأهم ما نستخلصه من هذه القيامات الثلاث أن يسوع كان يتحدث عن الاموات في كل حادثة من هذه الحوادث ليس كأنهم اموات بل كأنما هم نائمون . وعندما أقام ابن الارملة في نايين لم يكن لهمتسع من الوقت ليقول كلمة في حالة موته لانه صنع المعجزة بسرعة. ولكنه خاطبه كأنما هو حي غارق في نومه فقال له « أيها الصبي ، لك اقول قم » وعندما قالوا له ان ابنة يايروس قد ماتت ، اجابهم قائلا، « لاتبكوا ، فانها لم تمت ، ولكنها نائمة » ولم يدَّع يسوع قط انه يقيم من الاموات بل انما قال انه يوقظ الراقد من رقدته . لانه كان يعتقد ان الموت رقاد اعمق من الرقاد العادي الذي نلجأ اليه في كل ليلة ، ولكن المحبة الالهية تجعل حدا لهذا الرقاد محدودا في لحظة

واحدة وقد كانت هذه المحبة للاحياء اكثر منها للاموات ، لانها كانت تختلج في قلب ذلك الذي ما كان يرى دموع الحزانى حتى تسيل دموعه اشتراكاً معهم في احزانهم ولكي تضع دمعته حداً لدموعهم .

عرس قانا

كان يسوع يحب أن يذهب الى الاعراس.لان رجل الشعب العادي قلما يجد سبيلا الى البذل والاسراف والافراح ، ويندر أن يأكل او يشرب ما يود ويشتهي ، ولذلك فان يوم عرسه هو أسعد ايام حياته ، بل هو اليوم الوحيد الذي تفيض فيه الافراح وتتوفر اسباب الملذات والسرور ، بل هو اليوم الذي قلما يحظى بالكثيرمن مثله في حياته الطويلة الممتلئة من التعب والشقاء . اما الاغنياء الذين يستطيعون أن يقيموا الحفلات ويعدوا الولائم في كل ليلة ، اغنياء اليوم الذين يبتلعون في اكلة واحدةما كان يكفي لحياة فقير في الايام الخالية اسبوعا كاملا . مثل هؤلاء لايشعرون بما في يوم العرس من السعادة العظيمة . وأما أبناء الايام القديمةمن العمال الفقراء وأبناء المزارع والحقول ، وأكثر ابناء الشرق فكانوا يعيشون السنة بكاملها على خبز الشعير والتين اليابس والقليل من السمك والبيض، وقلمايذوقون

اللحم في غير الاعياد والمواسم الكبيرة ، فكانوا يذبحون فيها حملا أو جديا صغيرا يأكلونه مع عائلاتهم مثل هؤلاء الذين تعودوا أن يقهروا ذواتهم ويقتّرون على نفوسهم ما استطاعوا ، ويستغنوا عن كل ما يقدرون أن يعيشوا بدونه ، ويكتفوا باحقر ضروريات الحياة، مثل هؤلاء كانوا يرون في الاعراس اعظم وأبهج الاعياد التي تمر بهم في حياتهم على الارض. وأ ما الاعياد والمواسم الاخرى التي كانت تعيد لها الكنائس ويحتفل بها الشعب فانما كانت عمومية لجميع الشعب تتكرر في كل عام، ولكن العرس كان العيد الوحيد للانسان يراه مرة واحدة في كل ادوار حياته .

في ذلك العهد كان كل ما في العالم من بهجة وجلال يحيطان بالعروسين فيجعلان عرسهما خالدا بتذكاراته الجميلة . فكان المغنون والراقصون يذهبون في الليل مع المطبلين والمزمرين تتقدمهم المباخر والشموع لاستقبال العروس وكان بيت العروس ممتلئا من الخيرات ، من جميع اللحوم اللذيذة وسائر أصناف الاطعمة ، وكانت الانوار تسطع فيه كل الليل والموسيقي تصدح في انحائه والطيوب يفوح عبيرها فتعطر النفوس برائحتها المنعشة . وجميع الحضور يرقصون ويبتهجون ، وبكلمة وجيزة ، ان جميع اسباب الافراح كانت تجتمع في بيت العروسين بحيث لا يعوزهما شيء .

وقد كان يسوع يحب هذا الفرح البريء من التصنع . وتتأثر

روحه عندما كان ينظر الى تلك النفوس البسيطة ترتفع بالفرح من حياة الفقر والشح والشقاء لكي تتمتع بالسعادة ولو بضع ساعات قصيرة، ولم يكن العرس في نظره عيدا بسيطا كسائر الاعياد بل كان ينظر اليه نظرة ارفع واسمى . فكان يعتقد بان الزواج انما هو جهاد الشباب المتواصل للتسلط على الاقدار بقوة المحبة ، لاتحاد عاطفتين نقيتين تختلجان في قلبين فتيين فتقرنهما الواحد بالاخر قرانا روحيا خالدا ، بل هو تحقيق للايمان المزدوج بالحياة ، و بتعاقبها وتسلسلها . لان الرجل الذي يتزوج انما هو أسير في قبضة المجتمع الانساني . ولكنه بزواجه يحرر نفسه اذ يصير رئيساً لمجتمعه الصغير ، وأبا لنسل جديد ، يحرر نفسه وهو يعترف بانه يقيد نفسه . بلى ، ان الزواج وعد بالسعادة وتعهد بالتضحية والآلام . فالامانة والخيانة بطَلان يتحاربان فيه . أما عظمة الزواج الجبارة المقدسة فلا تتجلّى بوضوح الا بين سطور الروايات الفاجعة التي تنير المستقبل المظلم باشعة ضئيلة من الامال بالسعادة ، العظمة التي لا غنى للحياة عنها ، ومع ذلك فان العقل الاناني المجبول بمحبة الذات ومحبة المادة يرفضها رفضا . ومن رأى قط في حياته عقابا صارما يتوق اليه صاحبه كما هو الحال في مثل هذه الفاجعات ؟

وقد كان للزواج في رأي يسوع غاية أسمى من كل ما ذكرنا وهي انه مبدأ للخلود ودوام الوجود . لان ما ازوجه الله لا يفرقه انسان .

ومتى اتحدت القلوب وازدوجت الاجسام ، فلا شريعة ولا سيف يستطيعان أن يفرقا بينهما . ولا شيء اجدر بالبقاء في الحياة البشرية المتقلقلة، الفانية، الكاذبة المتلونة ، الضعيفة — من الزواج الذي هو الحلقة الوحيدة الخالدة منظومة في قلادة منحلّة زائلة .

ولذلك أكثر يسوع من ذكر الاعراس والولائم في أمثاله . ومن أجمل أمثاله مثل ذلك الملك الذي صنع عرساً لابنه ودعا اليه الاصدقاء والمحبين ومثل العذارى اللواتي خرجن في الليل لاستقبال صديق العروس ، ومثل السيد الذي اعد وليمة كبيرة . وقد شبه يسوع ذاته بعروس يحتفي به اصدقاؤه عندما اجاب أولئك المشككين بحجة أن تلاميذه كانوا يأكلون ويشربون .

ولم يكن يحتقر الخمر كمن يمتنع عنها رياء وحينما يشرب تلاميذه الاثنا عشر تلك الخمر التي هي دمه يفكرون في الخمرة الجديدة في ملكوت السماوات .

فلا عجب أذن ، اذا رأيناه يلبي الدعوة الى عرس قانا الجليل . وكلنا ولا شك نعرف العجيبة التي اجترحها هنالك في ذلك اليوم . فقد حول ستة أجاجين من الماء الى خمر أفضل كثيراً من الخمر التي شربها المدعوون في بيت العرس . وقد زعم أعداء الوحي القدماء القائلون بكفاءة العقل على تفهم أسرار الوجود ان الخمر كانت هدية مخبوءة في بيت العروس الى وقت العجيبة لكي يدهش بها يسوع

المدعوين احتراما للعروسين . ويزيدون على ذلك قولهم « ان سبعة اجاجين من الخمر « نحو قنطارين و نصف » كانت هدية ثمينة من المعلم يسوع لكي تظهر اريحيته ومكارم اخلاقه . »

ولكن فات هؤلاء الحشرات الفولتارية ان يلاحظوا أن يوحنا الانجيلي السامي الخيال والناطق بالفلسفة الالهية قد روى اعجوبة قانا دون سواه من الانجيليين . فان العجيبة لم تكن حيلة ناتجة عن خفة اليد بل كانت معجزة فائقة تحول بها الماء بالفعل الى خمر جيدة بطريقة عجيبة ، بقوة الروح على المادة ، فكان ذلك مثلا من الامثال العملية المعبر عنها بالاعمال عوضا عن الاقوال التي تعبر عن الامثال المعنوية الرمزية .

على ان كل من لا تقف روحه مع امثال القصة ومعناها الحرفي يرى أن الماء المتحول خمرا انما هو رمز الى الانجيل الذي هو بداءة العهد الجديد السعيد . فقد كان الماء كافيا للتنقية قبل أن صام يسوع في البرية وقبل أن بدأ بشارته ، حينئذ كان العالم يئن متوجعا من الامه ، أما الان فقد وردت البشائر بالفرح ، وجاء الملكوت ، وحلت السعادة . وها ان الناس على اهبة الاجتياز من عهد الحزن والشقاء الى عهد الغبطة والهناء ، من ترمل الشريعة القديمة الى الزواج الجديد السعيد في ظل الشريعة الجديدة . ان العروس معنا فلا مجال للحزن الان بل انما الوقت وقت بهجة وغبطة . قد انقضى الصيام وحلت

الافراح ، قد زال عهد الماء وجاء عهد الخمر .

وعندما نقرأ الكلمات التي قالها رئيس المتكأ للعروس ، « كل انسان انما يأتي بالخمر الجيدة أولا فاذا سكروا فعند ذلك يأتي بالدون ، اما أنت فقد ابقيت الخمر الجيدة الى الان » نرى عادة اليهود في اعراسهم في ذلك العهد القديم وعادات الوثنيين . ولكن يسوع أراد ان ينقض تلك العادة القبيحة البالية . فان أبناء العهد القديم كانوا يقدمون الجيد أولا ثم يأتون بالدون ، وأما يسوع فقد اعطى بعد الخمر الجيدة خمرا اطيب وأجود أما الخمرة الحامضة اللاذعة ، الخمرة الدون التي شربوها أولا هي خمرة الشريعة القديمة ، الخمرة الرديئة التي لا يشربها أحد . وأما خمرة الملكوت الجديد ، الخمرة المعدة لاعراس السماء والارض ، الخمرة التي يثمل شاربها بذلك السكر الذي دعاه الرسول « جهالة الصليب » .

اجل ، أن عرس قانا الجليل الذي حسبه يوحنا العجيبة الاولى ، هو رمز الثورة الانجيلية .

التينة الملعونة

ومن الامثال الواردة في الانجيل بصورة أعجوبة هو مثل التينة اليابسة ، كان يسوع راجعا في أحد الايام من بيت عنيا الى أورشليم

فجاع وهو في الطريق . فجاء الى تينة رآها في طريقه فلم يجد فيها سوى الاوراق . لانه لم يكن أوان التين في ذلك الحين . ولكن يسوع ، كما روى لنا متى ومرقص ، غضب على تلك الشجرة المسكينة ولعنها.

اما متى فقد روى الاية التي لعن يسوع التينة بها هكذا « لا يكن فيك ثمر الى الابد فيبست التينة في الحال » . واما مرقص فقد رواها كما يأتي : « لا يأكل احد ثمرة منك الى الابد » . . . . ثم يقول ، وفي الغداة اجتازوا فرأوا التينة قد يبست من أصلها .

و بعد ذلك يعود كل من الانجيليين الى الوصية التي طالما رددها يسوع لتلاميذه ان كل شيء مستطاع اذا طلب بايمان قوي ، فاوضحا بذلك رأيهما في أن المقصود من المثل الحض على الايمان القوي .

ويرى غيرهما في المثل نواحا رمزيا طالما كرره يسوع على أبناء قومه فيعتقدون بان شجرة التين هي الشعب الاسرائيلي والديانة اليهودية القديمة التي لم يبق لها بعد ذلك الحين سوى أوراق التقاليد والطقوس العقيمة . الأوراق التي ما وجدت الا لترتعش أمام نسيم الحق وليس منها منفعة لأحد من الناس فقد جاء يسوع جائعاً للحق ، جائعاً للمحبة . يطلب بين هذه الأوراق أثمار ناضجة بالرحمة والقداسة ، ولكنه لم يجد ثمرة ما بينهم ، لأن اسرائيل لم يشبع جوعه الالهي ولم يحقق آماله السماوية . ولذلك لم تعد له آمال البتة في ذلك الأصل العقيم الردي ، والعديم الثمر فلعنه وقضى بأن لا يكون فيه ثمر الى الأبد!

لأن الأثمار اللائقة بمائدة الملكوت الجديد ستخرج من غيره من الشعوب .

على أن عجيبة التينة اليابسة الملعونة الواردة في بشارتي متى ومرقص ما هي بالحقيقة سوى تفسير واضح لمثل التينة غير المثمرة ، الوارد في بشارة لوقا : « كان لرجل تينة مغروسة في كرمه . فجاء يطلب فيها ثمراً فلم يجد . فقال للكرّام ، ها ان لي ثلاث سنين آتي وأطلب ثمراً في هذه التينة فلا أجد . فأقطعها : فلماذا تعطل الارض ؟ »

فأجابه الكرّام قائلا : « يا سيد ، دعها هذه السنة أيضاً حتى أعزق حولها وألقي دمالا : فان أثمرت ثمراً فبه والا فنقطعها فيما بعد »

فان الشجرة لم تقطع أولا ولكن بعد ثلاث سنوات كانت فيها عقيمة . ثم أمهلها الكرام سنة رابعة بواسطة الكرام الذي اعتنى بها في تلك السنة عناية فائقة رجاء أن تأتي بثمرة تشفع بها فلا تقطع . وقد كانت تلك المدة الحد الفاصل بين حياتها وموتها فان ذهبت العناية بها عبثاً استئصلت من جذورها وأحرقت .

وقد علم يسوع ثلاث سنوات بين اليهود ، وعندما لم تأت تعاليمه بثمرة في أشجار قلوبهم همّ بأن يتحول عنهم ويحمل بشائر الملكوت الجديد الى غيرهم من الشعوب . ولكن واحداً من تلاميذه كان شديد الشغف بشعبه اليهودي سأله رحمة بهم ، واستمهله فرصة

لعلهم يأتون بالثمار المنتظرة . ولكننا سنرى في ما يلي اذا كانت المحبة مع عظمتها تستطيع أن ترد هذا الشعب الفاسق الدنيء من عقمه الممقوت الى الاثمار المرغوب . وعند ما كان يسوع في طريقه من أورشليم الى بيت عنيا وضعت اليهودية في البوتقة الاخيرة ولم يعد ليسوع ما ينتظره سوى الصلب . ولذلك استحقت تينة اليهودية الشريرة أن تقطع وتحرق في النار ومن ذلك الحين لم يأكل أحد ثمرة قط من ثمارها اليابسة المتأخرة عن أوانها .

الخبز والسمك

ان أعجوبة تكثير الخبز والسمك واردة في موضعين من الانجيل ، وهي واحدة في الحادثتين بتفاصيلهما ولا فرق الا بالكمية والمقدار — وهذا الفرق انما هو بالحقيقة ما يظهر روحانية المعجزتين وما ترميان اليه من الغاية البعيدة السامية .

فان ألوفا من الفقراء تبعوا يسوع مشاة من المدن الى البرية ، التي موضع بعيد عن العمران . وقد مرت عليهم ثلاثة أيام وهم معه يغذون جوعهم الروحي بكلامه الحيّ ومواعظه الخالدة من غير أن يذوقوا طعاماً . ولكن يسوع أشفق عليهم في اليوم الثالث — وكان معهم بعض النساء والأولاد — فأمر تلاميذه بأن يطعموا

الجوع . غير أن التلاميذ لم يكن عندهم سوى رغيف صغير من الخبز و بضع سمكات والجموع كانوا يعدون بالالوف والمئات . فأجلس يسوع الجموع كلها على الأرض حلقة فوق الاعشاب الخضراء ، فاتكأ الجمع زمرة زمرة ، مئة مئة وخمسين خمسين ، ثم بارك الطعام القليل الذي كان لدى التلاميذ : فأكل الجميع وشبعوا وملأوا سلالا كثيرة من الكسر والفضلات .

ان الخبز الحقيقي ، خبز الحق الخالد ، وان كان قليلا فانه يشبع المئات والألوف . وأما الشريعة القديمة فكانت غزيرة المواد كثيرة الأبواب والفصول ، فهنالك مئات الوصايا المدونة في الكتب ، وألوف الأوامر والفرائض التي كان يضعها الكتبة والفريسيون . فكان الناظر اليها لأول مرة يعتقد بانها مائدة أنيقة عليها من المآكل الشهية ما يكفي أمة كبيرة بكاملها . غير أن تلك الوصايا والقوانين والنظم والفرائض لم تكن سوى أوراق يابسة ونفايات قذرة وقصاصات متبعثرة لا تشبع جائعاً لانها كلما كثرت وتعددت قلت قيمتها وضعف تأثيرها في النفوس ولم تنفع أحداً . فان المساكين بالروح والجياع والعطاش للبر لا يستطيعون أن يشبعوا جوعهم للحق بهذه الاطعمة المتنوعة غير الصالحة للتغذية . فان كلمة واحدة تعبر في كثير من الاحيان عن كلمات عديدة وتسمو في بساطتها على ذلك التعصب الطقسي الممقوت الذي يتعلق باهدابه الجاملون والمدعون بما ليس

فيهم والدجالون ، أجل ان الكلمة الواحدة التي تملأ فراغ النفس ، وتعزي شقاء القلب ، وتهدىء الجوع للبر والحق ، من مثل هذه الكلمة يستطيع الجموع أن يأكلوا ويشبعوا ويفضل عنهم ما يشبع جميع الذين تغيبوا عن الحضور إلى وليمة الكلمة في وقتها المضروب لان الخبز الروحي عجائبي بفعله وتأثيره . فان رغيفاً واحداً من خبز الحنطة ربما يشبع جائعاً واحداً وإذا اكله لا يبقى منه شيء يشبع سواه من الناس ! ولكن خبز الحق ، ذلك الخبز السري ، خبز الغبطة والسرور لا ينقص ولن ينقص إلى الابد . توزعه على الالوف فيسدون جوعهم وهنالك يبقى نامياً في قلوبهم ، وتقدمه للملايين فيظل حياً فعالاً فيهم إلى الابد الابدين . وقد أخذ كل منا نصيبه من هذا الخبز كما أخذ منه الرجال والنساء في البرية نصيبهم ، ومع كل ما وزع صاحبه منه في ذلك اليوم فما أكثر ما فضل منه للذين قدر لهم أن يحضروا متأخرين .

وفي مرة اخرى نرى يسوع ، عندما رأى تلاميذه ولا خبز لهم ، يحذرهم من خمير الفريسيين والصدوقيين . ونرى في الوقت ذاته اولئك التلاميذ الذين كانوا بطيئي الافهام في كثير من الاحيان يفكرون في نفوسهم قائلين « اننا لم نأخذ خبزاً » فعلم يسوع وقال لهم « لماذا تفكرون في نفوسكم يا قليلي الايمان ، انكم لم تأخذوا خبزاً ؟ أما تفهمون حتى الان ولا تذكرون الخمسة أرغفة ، وكم قفة أخذتم ؟

والسبعة أرغفة للاربعة الاف ، وكم سلة أخذتم ؟ كيف تفهمون أني لا من أجل الخبز قلت لكم احذروا من خمير الفريسيين والصدوقيين ؟ بل انما قلت لكم أن تحذروا من حماة الشريعة الدنيئة لانهم قادة عميان .

فالاثنا عشر تلميذاً ، وهم المنتخبون للتمتع بالملكوت والمؤمنون المباركون لم يفهموا في الحال ما عناه يسوع بخمير الفريسيين ولم يؤمنوا حين كان يجب الايمان .

وعندما كان يسوع في السفينة في ليلة العاصفة الشديدة وبخ ضعف ايمانهم أيضاً . فكان هو في مؤخر السفينه نائماً على وسادة أحد النوتية . فحدثت فجأة عاصفة شديدة وكانت تقذف الامواج على السفينة حتى كادت السفينة تمتلىء ماء وباتوا يترقبون غرقها في كل لحظة . فاضطرب التلاميذ وذهبوا فايقظوا يسوع وقالوا له « يا معلم ، اما تبالي اناَ نغرق ؟ » فاستيقظ . وانتهر الريح وقال للبحر ، اسكت ! ابكم » فسكنت الريح وحدث هدوء عظيم . ثم قال لهم « ما بالكم خائفين بهذا المقدار ؟ اليس لكم ايمان بعد ؟ فخافوا خوفا شديدا وقالوا بعضهم لبعض « من ترى هذا ؟ فان الريح والبحر يطيعانه ! »

على ان واحدا منهم لم يخف وهو سمعان بطرس ، فان طبيعته كانت تفوق طبائع البشر ، لتفرده بقوة الايمان وعظمة المحبة وقوة الارادة ، ولا شيء في العالم ، سواء كان حيا ام لم يكن حيا ، يستطيع

ان يقف في وجه هذه القوات الثلاث الفائقة . لان من يسعد بها انما ينال من القوة ما يجعله يحتقر جميع الزائلات وينتصر على الزمان وكل ما في الزمان . فيرفض تنعمات الجسد وبذلك يخلص الجسد . ويرفض المادة ومحبتها ولذلك فهو يتسلط على المادة ويسود عليها ، وكل انسان يستطيع أن ينال قسطه من هذه القوة فان الايمان كاف بشرط أن لا يكون فقط ايمانا بذاته هو .

كان في رومية ، قبل المسيح ببضع سنوات ، ربان ايطالي عظيم خاض معامع الحرب في معارك عديدة ، وكان بالرغم من فجوره وفسقه قائداً محنكاً مدرباً على تسميم دماء الامبراطورية . وحدث مرة أنه ركب سفينته ومخر عباب البحر الكبير مع بعض من رفقائه يفتشون عن عمارة بحرية أبطأت في القدوم اليهم لنجدة حملته فيربح المعركة على اعدائه . فعصفت الرياح وهبت فجأة عاصفة هوجاء كانت تقذف الامواج الى السفينة فخاف الربان وهم بالرجوع الى الميناء . فامسك القيصر بيده وقال له « سر الى الامام ، سر ولا تخف ، فان القيصر معك ، وسعده يرافقك » فانعشت هذه الكلمات الجريئة قلب الربان وجميع رجاله ، وهبوا جميعهم الى العمل كأنما قد سرى قسم من قوة القيصر الى نفس كل واحد منهم ، وشرعوا يحاربون العاصفة ويبذلون جهودهم للتغلب على البحر ، ولكن جهودهم ذهبت ضياعا لان الامواج تعالت على السفينة حتى اوشكت ان تغرق فاضطروا

إلى التقهقر راجعين إلى الشاطىء . أجل ، كان إيمان القيصر عتواً وطموحاً ، إيماناً بذاته ولذاته ومحبة بذاته ، وأما إيمان المسيح فقد كان كله محبة ، محبة للآب ، ومحبة للناس أجمعين .

بفضل هذا الايمان استطاع أن يمشي على البحر لكي ينقذ تلاميذه الذين كانوا في السفينة والامواج تصدمها ، بهذا الايمان إستطاع أن يمشي على مياه البحر كأنما هو يمشي على العشب النديّ الاخضر ، وعندما رآه التلاميذ ماشيا على البحر ، اضطربوا وقالوا أنه خيال ، ولذلك اضطر أن يثبت إيمانهم أيضاً فصرخ بهم قائلاً ، « ثقوا : أنا هو ، لا تخافوا » وعندما ركب السفينة سكنت الريح في الحال فساروا حتى بلغوا إلى الشاطىء . « فزاد الدهش في نفوسهم » إلى الغاية » كما روى مرقص الصادق ، « لأنهم لم يفهموا أعجوبة الخبز ، إذ كانت قلوبهم صمّاء . »

وربما كان في هذا التشبيه بعض الاجتهاد ، ولكنه يكشف القناع عن حقائق مهمة ، لأن عجيبة الأرغفة هي أساس جميع العجائب الأخرى . فان كل مثل من أمثال يسوع سواء أورد بكلمات وعبارات مجازية شعرية أم أوضح بعجائب منظورة ، إنما كان عبارة عن خبز روحي مخبوز بطرائق متنوعة ، ليأكل منه الذين يتبعون يسوع ، أو على الأقل تلاميذه الاخصاء ، ويفهموا الحقيقة الواحدة التي كانوا في شديد الحاجة اليها ، فان الروح هي

الطعام الوحيد الجدير بالانسان أن يأكله ، وأن الانسان الذي يتخذ لنفسه هذا الطعام غذاء يغذي به حياته إنما هو دون غيره السيد السعيد في العالم .

يسوع الشاعر

ان يسوع يظهر لاول وهلة متكتماً في أعماله وفي أقواله ، فكان يأمر الذين كان يشفيهم بالعجائب أن لا يخبروا أحداً عمن هو الذي أبرأهم ، وقد فرض أن تصير الصلاة ويتم الاحسان سراً من غير أن يعلم بهما أحد ، وعندما عرف التلاميذ أنه هو المسيح سألهم أن لا يقولوا ذلك لاحد من الناس وبعد أن تجلى على الجبل أمر الثلاثة الذين إنتدبهم ليرافقوه أن يكتموا الامر عن الجميع وعندما كان يعلّم الناس كان يلجأ إلى الامثال التي لم يكن كل الناس ليفهموها .

غير أننا إذا أمعنا النظر ودققنا جيداً في درس يسوع وتعاليمه نرى بوضوح أن يسوع لم يكن على شيء من التكتم والتستر قط . نرى أنه لم تكن له أقل عقيدة سرية ليفاوض بها خدامه سراً ، لان أقواله كانت جهرية وتعاليمه علنية امام الجميع . فكان يتكلم أبداً في ساحات المدن وعلى شواطىء البحيرات ، وفي الهياكل ، وفي مجتمعات الناس . وقد منع التحدث بعجائبه لكي لا ينزل إلى

مصف المنجمين والعرافين وأمر بصنع الصدقة سراً لكي لا يضيع أجر المحسنين بالغرور والكبرياء ، ولم يشأ أن يعلن الاثنا عشر أنه المسيح قبل دخوله إلى أورشليم ، الدخول الاحتفالي لملكه كمسيّا المنتظر قدومه ، وكان يتكلم بالامثال رحمة بالبسطاء لكي يفهموا تعاليمه ، لان الناس يصغون إلى المثل أو القصة باكثر ارتياح مما يصغون إلى العظة أو الخطاب ، ويتذكرون الحكايات اكثر مما يتذكرون ما سمعوه من المناقشات والمباحثات الغويصة .

وقد روى ثلاثة من الانجيليين الاطهار خطبة ليسوع يبدو ظاهرها مناقضاً لهذا الرأي . فان يسوع قال مخاطباً تلاميذه عندما سألوه ، لماذا تخاطب الجموع بامثال ، فاجابهم « أنتم أعطيتم معرفة أسرار ملكوت السماوات وأما أولئك فلم يعطوا ، فلهذا اكلمهم بامثال ، لانهم يبصرون ولا يبصرون ، ويسمعون ولا يفهمون . »

ولكن يسوع إنما عنى بهذا الجواب أن يقول لتلاميذه ما يأتي : « يا تلاميذي ، أنتم تفهمون هذه الاسرار ، ولكنّ هنالك كثيرين غيركم لا يفهمونها مع أن لهم آذانا نظيركم ، ولكي يفهموا أقوالي اخاطبهم بامثال ، — أي بلغة مجازية تعبر عن الحقائق باكثر بساطة فتجعلها أسهل تناولاً عليهم لأنهم تعودوها . أنتم تعلمون الاولاد بالحكايات ، والبسطاء بالقصص والروايات ، أما أنا فاقول لكم ان اكثر الناس أولاد و بسطاء ، ولذلك فاني استخدم الالفاظ

والعبارات التي تعودت اذانهم سماعها لكي أتغلب على خمول عقولهم وبطء افهامهم ، كلهم خاملو الخيال والتصور أكثر من القوة العاقلة . ولذلك فاني لا اريد أن أخفي الحق عن الناس ، بل بالاولى أن اعلنه حتى للذين لا يفهمونه بمساقه الفكري بالطريقة التي يفهمون فاذا لم يفهموا فحينئذ يكون الذنب ذنب عنادهم ومكابرتهم التي كثيراً ما تغلق عيني النفس وتصم اذنيها . »

أجل ، لم يكن ليسوع أسرار قط فيكتمها ، بل كانت كل رغبته أن يفهمه جميع العالم من اكبر العلماء والعظماء إلى أحقر الجهلاء والضعفاء ، ولم يلجأ الى الامثال لكي يخفي تعاليمه عن الخطأة والمنجسين بل بالاحرى ليجعلها أسهل تناولا للجميع ، وأما ان أشد التلاميذ فطنة واوفرهم ذكاء كان يعجز عن ادراك مرمى الكثير من هذه الامثال السامية فذلك امر ليس غريباً علينا فقط بل كان غريباً على يسوع نفسه ايضاً ومسبباً له الحزن والكآبة سحابة حياته بالجسد على هذه الارض .

اما ما جاءت به رسالته من التعاليم العجيبة المدهشة فقد دلنا على شاعريته الفطرية التي لا تقل عن رسالته غرابة وعجبا . فان يسوع لم يكتب بيده قط ، عدا مرة كتب فيها على الرمال فجاءت الريح ومحت اثار خطه الى الابد ، ولكنه عاش في امة ذات ثروة شعرية بالغة ، الامة التي سطرت المزامير وسفر راعوث ، وكتاب

ايوب ، ونشيد الاناشيد ، — ولذلك قد كان يكون من اعظم شعراء العالم في كل زمان .

فان روحه الفتية المنتصرة ، والبلاد التي نشأ فيها ، والكتب القليلة التي قرأها وعشقه الخالص لحياة الحقول ومشاركة الحيوان في معيشته الطبيعية ، وأعظم من كل هذا حنينه الالهي وهيامه السماوي ورغبته في أن يعطي نوراً للمتألمين في الظلمة ، ويخلص الذين ضلوا عن السعادة ، ويبشر التعساء وأبناء الكآبة الخرساء بالسعادة العليا الهابطة من السماء (لان الشعر الحق لا يستمد نور وحيه من شعلة المصباح الضئيل بل من أنوار الشمس اللامعة ، كلا ، ولا نستطيع أن نجد الشعر في الاوراق والدفاتر التي ورثناها عن الاباء والاجداد بل انما نجده في المحبة ، في الحزن ، في النفس المتالمة لعاطفة عميقة سامية) كل هذه العوامل الفعالة قد تجمعت معاً وعملت على جعل يسوع شاعراً خالداً بل مخترعاً للصور الحية الباقية الى الابد التي بها دون غيرها استطاع أن يجترح اعجوبة العجائب التي لم يدونها أحد من الانجيليين ، الاعجوبة التي أوضح بها الحقيقة العليا بواسطة حكايات بسيطة مألوفة ممتلئة من النعمة حتى انها بعد مرور نحو عشرين قرناً عليها لا تزال تشع بتلك الفتوة الفريدة التي هي الخلود . على أن بعضاً من هذه الحكايات انما كان تكراراً لحقائق وردت في موضع اخر بشكل تعليمي مجرد ، ولكن الكثير منها يوضح اموراً جديدة

وحقائق جديدة لم تذكر قط في تعليم من تعاليم يسوع . اما الامثال فكانت ايضاحات شعرية للعظة على الجبل وثمرة خالدة لقريحة الشاعر الذي يليق بنا أن نلقبه بالالهي عن جدارة واستحقاق اكثر من كل شاعر غيره في الوجود .

الخميرة

ان سيدات المدن لا يخبزن خبزهن بايديهن ، ولكن نساء القرى و المزارع وزوجات البيوت يعرفن ما هي الخميرة ، فان حفنة صغيرة من العجين المأخوذ من العجنة السابقة اذا وضعت في الدقيق مع قليل من الماء الحار تستطيع أن تخمر ثلاثة اكياس من الدقيق .

ومن اصغر الحبوب على هذه الارض حبة الخردل فانها تكاد لا ترى لصغرها ، ولكن هذه الحبة الصغيرة اذا زرعت في ارض جيدة فانها تنمو وتصير شجرة كبيرة حتى ان طيور السماء تأتي وتستظل في اغصانها . وحبة الحنطة صغيرة ايضا ، يأخذها الفلاح فيبذرها في الارض ، ثم يرجع الى اعماله الاخرى ، فينام ويقوم ويسافر من بيته ثم يعود اليه، وهكذا تمر الايام والليالي من غير ان يفكر فيها ، ولكن الحبة تفرخ من بين التلاع الرطبة نبتة خضراء صغيرة ، ثم تنمو رويداً رويداً حتى تصير اذنة زرقاء، وعلى رأسها سنبلة خضراء

رشيقة القوام تتحول في ايام قليلة الى حبوب ذهبية جميلة . وما هي الا فترة من الزمان حتى يدنو الحصاد فيأتي الفلاح الى حقوله ويشرع في جمع غلاله .

وهكذا الحال في ملكوت السماوات وبشائره الاولى ، فان الكلمة تظهر لاول وهلة كأنها لا شيء . اذ ما هي الكلمة ؟ هي مقاطع واصوات تتصاعد من بين الشفتين ، وتدخل بصعوبة الى الاذان ولا تجد قلوبا مستعدة لقبولها ما لم تكن خارجة من القلوب ، هي صوت صغير ، وتنفسة صغيرة ، وتنهدة عميقة ، صوت يروح ويجيء محمولا بتموجات الهواء ، ومع كل ذلك فان الكلمة ، كلمة الملكوت هي كالخميرة . فاذا وضعتها في دقيق جيد ، لم يدخله دقيق فاسد ، خمرته وجعلته اكبر مما هو ، بل هي كالحبة المزروعة في الحقول التي تفرخ من تحت تراب الارض وهي صبور كالارض التي تخفيها ، وعندما يأتي الربيع تنمو خضراء قوية ، وعندما تبدو طلائع الصيف يصير الحصاد على الابواب ! واننا نستطيع ان نعبر عن الانجيل كله بهذه الكلمات القليلة « قد اقترب الملكوت ، فجددوا نفوسكم ! » فاذا وقعت هذه الكلمات في قلوب واعية مستعدة لها ، في القلوب البسيطة الشيقة الى الحق والعظمة ، في قلوب الابرار الذين يودون ان يصيروا قديسين ، في قلوب الاشرار الذين ينشدون السعادة في الخير بعد ان نشدوها عبثا في الشر والضلال ،

فحينئذ تتخذ هـذه الكلمات لهـا اصولا في اعماق تلك القلوب ، فتخرج البراعم والاغصان ، وتثمر بالعنـاقيد والسنـابل ، وتونع في صيف خالد لا يعقبه خريف البتة .

قليلون هم الذين عاشوا مع يسوع وسمعوا أقواله فـكانوا من المؤمنين بالملكوت فاعدوا بذلك ذواتهم للتمتع باليوم العظيم . قليلون هم الذين آمنوا! — قليلون وحقيرون ، غير أنهم قد تفرقوا كدقائق الخميرة الصغيرة في وسط الامم المتفرقة والممالك الشاسعة ، ولكن اولئك الاشخاص القلائل الفقراء المضطهدين المتفرقين بين سـائر الامم والشعوب قد تزايدوا الى الوف الالوف بواسطة المؤمنين بهم والسائرين على خطواتهم ، ولم تمر على موتهم ثلاثمئة سنة حتى جلس على كرسي طيباريوس قيصر رجل حنى ركبتيه امام الرسل .

على أن الراغبين في التمتع بالملـكوت الموعود به يجب عليهم أن يرفضوا كل شيء اخر سواه ، كما يفعل ذوو العقول العالية في أعمالهم الوقتية على الارض . لانه اذا كان رجل يشتغل في حقل جاره ، وفي اثنـاء شغله وجد في ذلك الحقل كنزاً ثميناً افلا يخفيه ويذهب على الفور فيبيع كل ماله ويأتي فيشتري ذلك الحقل ؟ واذا عثر تاجر يتعاطى شراء الجوهرات الثمينة الجديرة بان تحفظ في قصور الملوك ، على لؤلؤة كبيرة لم يسبق له أن رأى مثلها افلا يسرع فيبيع كل امواله و كل ما لديه من اللالىء الصغيرة لـكي يشتري تلك

اللؤلؤة الفريدة ؟

فاذا كان العامل والتاجر وهما يشتغلان بالمادة وللمادة ، و يقنعان بالكنوز الفانية دون الباقية ، يبيعان كل ما يملكانه للحصول على كنز حسباه أثمن من كل مقتنياتهما ، في حين أن ذلك الكنز عينه زائل فانٍ ، فكم بالحري يجدر بنا أن نرفض كل عزيز لدينا لكي نحظى بملكوت الله . واذا كان العامل والتاجر قد أظهرا استعدادهما لبذل كل ما يملكانه في سبيل الحصول على ربح مالي معرض للسرقة والضياع ، وربما كان لهم ربح مائة في المائة من مبادلتهم ، أفليس الاجدر بنا أن نطرح أثمن ما عندنا ، ولو كان يظهر لنا حتى الان أنه لا يثمن بثمن أو يقدر بقيمة ، ونسعى وراء منفعة أسمى وأرفع من منفعة التاجر والعامل بما لا يحدد بقياس ؟

ولكن قبل أن نقدم على هذه التضحية يجب ان نتخذ لها عدتها ونفكر اذا كان الذي يتبقى لنا يكفي لان يبلغ بنا الى الغاية المنشودة من عملنا . يجب أن نقيس ما في نفوسنا من القوة قبل أن نشرع في عملنا لئلا يصيبنا ما أصاب ذلك الرجل الذي أراد أن يبني برجا جميلا يناطح السحاب بعلوه ، كأنما هو برج أورشليم . فلم يفكر أولا في كمية النفقة الضرورية لانجاز عمله ، بل دعا الحفارين وحفر الاساسات في الحال ، ثم دعا البنائين وباشر البناء ، ولكن عندما ارتفع البرج قليلا عن الارض ، ولم يكن قد بلغ بعد الى علو البيت

العادي ، اضطر صاحب البرج أن يتوقف عن البناء لانه لم يبق معه مال ليدفع ثمن الحجارة والكلس والقرميد ، ويؤدي للعمال اجورهم في أوقاتها ، فظل البرج جدرانا عارية لا ينظر اليها أحد من المارين بها الا ويذكر ادعاء صاحبها الفارغ ، ويهز برأسه هازئا به .

واذا اراد ملك ان يعلن حربا على ملك اخر فانه يجلس اولا ويحصي جنوده ، فاذا رأى انه لا يستطيع ان يجند اكثر من عشرة الاف وان لدى عدوه عشرين الفا من الجنود ، فانه يتحول عن فكرة الحرب ويرسل سفارة من قبله لتفاوض عدوه في عقد صلح بين الفريقين قبل نشوب نيران الحرب ، وهكذا فان الرجل الذي لا يثق بنفسه ، ولا يعتقد بكفاءته لان يجاهد ويحارب الى ان يظفر بالغلبة في نهاية الجهاد يتراجع الى الوراء ولا يتبع المسيح ، لان تأسيس المملكة اصعب كثيراً من بناء البرج ، ودون تجديد خليقة الانسان حرب عوان هي اشد وطأة من الحروب الخارجية ولو كانت داخلية هادئة .

الوليمة

ان ملكوت السماوات لا يدخله الا انقياء القلوب ، لان الملكوت وليمة ابدية خالده ، ولا يستطيع ان يتمتع بها الا من كان مرتديا

بثياب الولائم الخالدة ، وقد حدث مرة ان احد الملوك احتفل بعرس ابنه فدعا الاصدقاء والجيران الى وليمة العرس ، وفي الوقت المعين لم يحضر احد من المدعوين ، فدعا الملك عامة الشعب ، من عابري السبيل والفقراء الى كل من وجده في ساحات المدينة ومفارق طرقها ، وعندما جاء الى قاعة الوليمة رأى رجلا من الضيوف رث الملابس قذر الجسد فامر بان يطرح خارجا ليصرف باسنانه في الظلمة الباردة .

هذه حال المتخلفين عن الحضور الى وليمة الملكوت فانهم ان تأخروا ولم يحضروا في الوقت المعين جاز للجميع ان يدخلوا بدلا منهم ، من اعظم العظماء الى احقر الخطأة والبؤساء ، فقد دعا الملك اولا الشعب المختار ، فطفقوا كلهم واحد فواحد يعتذرون ، فقال له الاول ، « قد اشتريت حقلا ولا بد لي ان اخرج وانظره ، » وقال الثاني « قد اشتريت خمسة ازواج بقر وانا ماض لكي اجربها ، » وقال الثالث « قد تزوجت امرأة فلا اقدر ان اتي اليوم ، » فكان كل واحد منهم مهتما واي اهتماما في حاجاته الخاصة ، فلم يلبوا الدعوة .

حينئذ غضب الملك وارسل عبيده ليأتوه بالمساكين ، والجدع ، والعرج ، والعميان ، واحقر من ترى من الرعاع الى ههنا ، فقال العبد ، « ياسيد ، قد قضي ما أمرت به ، وبقي محل » فامر الملك في الحال بان يضطر كل من يمر بقصره الى الدخول اليه ، كائنا من كان .

كانت وليمة ملوكية ، حفلت بكل اسباب الملذات والمسرات ، غير انها اقتصرت على التلذذ باكل اللحوم وشرب الخمور حتى سكر الجميع ، وعند بزوغ أنوار الصباح اطفئت المشاعل ، وفرغت الموائد ، وعاد كل واحد الى بيته ، الى فقره وشقائه ، علي ان الذين دعاهم الملك اولا لو لم يلبوا الدعوة لانهم فضلوا التمتع بلذة مادية على التمتع بهذه اللذة المادية لكانوا معذورين على تخلفهم ولا عتب عليهم . ولكن الدعوة الى الملكوت انما هي وعد بالسعادة الروحية ، المجردة ، الكاملة ، غير المتناهية السعادة التي لا أثر فيها لمسرات الحياة الارضية الزائلة : من السكر الذاهب بالعقل والادراك الى حيث لا عقل ولا ادراك ، والدعارة التي تترك صاحبها هيكلا عظيما منجسا مدنسا ، ومع كل ذلك فان الذين اختارهم يسوع من بين جميع الناس ، ودعاهم اولا الى الوليمة الالهية المعدة للمولودين جديداً فانهم لم يلبوا الدعوة بل اداروا وجوههم متأوهين وهم يتمرغون في حمأة قذارتهم وشرهم . وقد فضلوا نفايات الشهوات الجسدية على التمتع بجلال الرجاء الاعلى الذي هو المبرّر الوحيد المعقول للحياة .

ولذلك دعي الجميع عوضاً عنهم ، المتسولون بدلا من الاغنياء ، والخطأة بدلا من الفريسيين ، و بنات الشوارع عوضا عن السيدات المصونات ، والمرضى بدلا من الاصحاء والجهلاء بدلا من العلماء والمتألمين بدلا من السعداء .

وكانت الابواب مفتوحة للجميع حتى ان المتأخرين كانوا يقبلون كالمتقدمين اذ جاءوا في وقت الوليمة . فان رب الكرم رأى مرة بعض من الفعلة واقفين في السوق بطالين ينتظرون لهم عملاً ، فارسلهم في الحال الى كرمه ليشذّبوا الدوالي التي فيه بعد ان اتفق معهم على الاجرة . وعند انتصاف النهار خرج ايضاً الى السوق فرأى فعلة اخرين من غير عمل فارسلهم ايضاً الى الكرم ، وعند العصر رأى فريقا اخر من الفعلة فارسلهم ايضاً الى كرمه لكي يشتغلوا ، فاشتغلوا جميعهم في الكرم ، فمنهم من قضب الدوالي ، ومنهم من نقب وعزق حولها ، وعندما جاء المساء دفع رب الكرم الاجرة للجميع على التساوي . فتذمر الذين جاءوا الى الكرم اولا ، لان اجرتهم كانت مثل اجرة الذين جاءوا اخيرا ، وقالوا لرب الكرم « لماذا دفعت الى هؤلاء الذين لم يشتغلوا كما اشتغلنا نحن الاجرة عينها التي دفعتها لنا ؟ فاجاب رب الكرم وقال لواحد منهم ، وربما كان رئيسهم ، « يا صاح انا ما ظلمتك ، الم اكن على دينار شارطتك ؟ فلماذا تتذمر ؟ ام هل اذا اعطيت الاجرة ذاتها للفعلة الذين اشتغلوا ساعة واحدة اكون قد غصبت مالك ومال رفقائك ؟ »

أجل ، ان الظلم الظاهري من رب الكرم في معاملة فعلته انما هو اريحية وتناه في العدالة . فانه قد منح الجميع كل ما وعدهم به . واما الذي وصل اخيراً ولكنه اشتغل وفي قلبه مثل الرجاء الذي في

قلب رفقائه يحق له أن يتمتع بالملكوت ككل واحد من رفقائه لانه اشتغل في سبيل الملكوت الى المساء .

ولكن الويل للذي يبطىء كثيراً في قدومه ! ولا أحد يعرف اليوم ولا الوقت الحقيقي ، ولكن الذي يأتي بعد فوات الساعة ولا يدخل الى الداخل فانه يظل خارجا نادبا حظه في الظلمة .

ان رب البيت قد ذهب الى العرس وليس بين الخدام من يعرف متى يعود ربهم الى البيت . ولكن طوبى للعبيد الذين يأتي سيدهم فيجدهم مستيقظين ينتظرون قدومه . فان السيد نفسه سيجلسهم الى مائدته ويخدمهم بذاته . اما اذا جاء فوجدهم نياما ، ولم يجد أحداً حاضراً لكي يستقبله ، او اذا جاء وطرق الباب فلم يفتح له احد . او اذا استقبلوه من غير ان يسرحوا شعورهم وينظفوا وجوههم ويرتبوا ثيابهم ، فدخل الى البيت ولم يجد المصابيح منارة ، ولا وجد ماء حارا لكي يغسل رجليه ، فانه يأخذ اولئك العبيد بايديهم ويجرهم الى الخارج طاردا اياهم من غير ما رحمة او حنان .

فيجب اذن على كل انسان ان يكون مستعدا لان ابن الانسان يأتي كما يأتي اللص في الليل من غير ان يرسل خبرا عن الساعة التي يأتي فيها ، بل هو كالعروس الذي اخره بعض الاصحاب في الشارع عن الحضور الى بيته في الوقت المعين . وكان في بيته عشر عذارى كن ينتظرن قدومه للخروج الى ملاقاته بالمشاعل والمصابيح في مقدمة

موكب العرس . وكان خمس منهن جاهلات وخمس حكيمات . فاخذت الحكيمات زيتا في آنيتهن مع مصابيحهن ووقفن يترقبن قدومه مصغيات الى سماع الاصوات ووقع الخطوات على الارض اما الجاهلات فلم يأخذن معهن زيتا ، واذ مللن الانتظار نعسن كلهن ونمن ، وعند انتصاف الليل سُمعَ صراخ أنْ هوذا العروس قد اقبل فاخرجن للقائه ، اما الخمس العذارى الحكيمات فهيأن مصابيحهن وخرجن مسرعات الى الشارع للقاء العروس . واما الجاهلات فافقن من نومهن وسألن الحكيمات قليلا من زيتهن . فاجابت الحكيمات وقلن ، « لماذا لم تتأهبن لذلك من قبل . اذهبن الى الباعة وابتعن لكن زيتا » فركضت العذارى الجاهلات من بيت الى بيت يلتمسن قليلا من الزيت ، ولكن الجميع كانوا نياما فلم يفتح لهن احد ، وكانت الحوانيت قد اقفلت ابوابها في تلك الساعة من الليل والكلاب تنبح عليهن من كل جانب . فعدن الى بيت العروس بعد ان اعياهن السعي والتفتيش ولكنهن وجدن الابواب كلها موصدة . اما العذارى الخمس الحكيمات فكن جالسات داخلا يتمتعن ببهجة الوليمة مع العروسين . فقرعت العذارى الجاهلات الابواب صارخات ملتمسات ان يفتح لهن . وكن ينظرن من شقوق النوافذ الى انوار العشاء العظيمة المشرقة ، ويسمعن هيقعة الصحون بعضها على بعض ، وقرقعة الكؤوس ، واصوات الشبان والصبايا ،

وعزف آلات الطرب وهن يتمرمرن خارجا ولا يقدرن على الدخول . وهنالك قضين الليل كله الى الصباح في الظلمة والرياح ، وكن يرتجفن مذعورات ويرتعدن ناقمات بعد ان حرمن ملذات وليمة ذلك المساء العظيمة .

الباب الضيق

« ادخلوا من الباب الضيق لانه واسع الباب ، ورحب الطريق الذي يوءدي الى الهلاك ، والداخلون منه كثيرون . ما اضيق الباب واحرج الطريق الذي يوءدي الى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه » ان الذين يجربون الدخول بعد فوات الحين لا يستطيعون ، لان رب البيت ، متى اغلق بابه ، لا يفتح لاحد .

الى ذلك اليوم العظيم ، الى تلك الساعة الاخيرة ، اسألوا فتعطوا ، اطلبوا فتجدوا واقرعوا فيفتح لكم «لان الاجلاف المتراخين والمكابرين غير المكترثين لانفسهم يصغون الى التوسل والتضرع المتواصلين . ولذلك فاذا كان الناس الاشرار لا يصمون اذانهم عن الاصغاء الى اصوات المظلومين فكم بالحري يصغي الاب الذي يحبنا الى توسلاتنا وتضرعاتنا ؟

ذهب مرة رجل عند انتصاف الليل فقرع باب جاره وايقظه من

نومه قائلا له من خارج الباب « اقرضني ثلاثة ارغفة لان صديقا لي قد مر بي في سفره وليس لي ما اقدمه له « فاجاب صديقه النائم « لا تزعجني ، فانني منهوك تعبا ، ولا اريد ان انهض من فراشي في هذه الساعة ، وزد على ذلك ان اولادي نائمون في الفراش معي وهم غارقون في نومهم ، فاذا نهضت افاقوا من نومهم وتعرضوا لبرد الليل القارس» على ان جاره القارع على الباب لم يعبأ بذلك بل ظل يقرع ويصرخ مصفقا بيديه وملتمسا من جاره ان يجيبه الى ملتمسه ويقضي حاجته لانه لم يكن له صديق سواه في ذلك الجوار وكانت الساعة متأخرة من الليل وضيفه ينتظره في البيت بفارغ الصبر لانه كان تعبا جائعا . وقد ظل يقرع الباب و ينادي على جاره باعلى صوته حتى هب هذا من فراشه وفتح له الباب واعطاه ما شاء من الخبز .

اجل ، الجار المتواني طيب القلب ، ولكن رديء القلب ذاته لا يستطيع ان يفعل غير ما فعله هذا الجار . فقد كان في احدى المدن قاض ولم يكن يعبأ باحد ، فكان عنيدا مستبدا برأيه ولا يعمل الا ما يود ويهوى . وكانت تذهب اليه ارملة مسكينة في كل صباح ملتمسة عدلا ، ومع انها كانت محقة في دعواها فان القاضي كان يردها خائبة كل يوم ولا يلتفت الى دعواها . اما الارملة فكانت تحتمل احتقاره واهانته ولا تمل عن الالحاح في الطلب . غير ان القاضي وقد سئمت نفسه منها لأنها اقلقت راحته بتوسلاتها وتضرعاتها

وصلواتها شاء اخيرا ان يتخلص منها فحكم لها واطلقها بسلام .

بيد أن الانسان لا ينبغي له ان يطلب اكثر مما له . لان الذي يقوم بواجباته سينال قسطه من المأكل والمشرب ولكنه لن ينال شرفاً يفوق ما هو أهل له ، ولا يحظى بخدمة افضل من الخدمة التي يتمتع بها سواه ، ولا يمكن أن يكون له من الكرامة مثل ما لسيده .

متى عاد الخادم من بذر البذور او رعاية المواشي الى بيت سيده لا يدعوه ليأكل معه ويجلس بجانبه الى المائدة ، بل يأمره ان يخدمه اولا ومتى اكل السيد كفايته يعطيه العشاء الذي يخصه . وقد ضرب يسوع مثلا في هذا الموضوع لتلاميذه عندما كانوا يتذمرون بعضهم مع بعض في من سيكون له المقام الارفع في الملكوت ، وبعد ان فرغ من المثل قال لهم « وهل يشكر (السيد) ذلك العبد لانه فعل ما أُمر به ؟ انا لا اخاله يفعل ذلك . كذلك انتم اذا فعلتم ما تؤمرون بفعله قولوا ، انما نحن عبيد بطالون وقد فعلنا ما كان متوجبا علينا . »

ان الانسان لا ينتفع من القول ما لم يزينه العمل ، لان العبرة بالاعمال وليس بالاقوال . فكم هنالك من الناس الذين يقولون ولا يفعلون ويعدون ثم يحنثون . ولذلك فان دينونة امثال هؤلاء المراوغين ستكون اعظم جدا من دينونة الذين يرفضون جهارا ثم يندمون على رفضهم ويعودون الى الطاعة ، وقد مثّل يسوع على هذا التعليم السامي بهذا المثل قال : « كان لرجل ابنان فقال للكبير ،

« يا ابني ، اذهب اليوم واعمل في كرمي » فاجابه الابن قائلا « نعم اذهب يا سيدي » ولـكنه عوضا عن ان يذهب الى الكرم ذهب واتكأ في ظلال الاشجار مع الكسالى والخاملين . ثم قال الاب للابن الصغير ، « اذهب انت ايضاً يا ابني واعمل مع اخيك الاكبر » فاجابه الابن قائلا ، « انني لا اقدر ان اذهب اليوم لانني متوعك المزاج واريد ان استريح » ولكنه رجع فيما بعد الى رشده وفكر بابيه الشيخ الذي كان عاجزا عن ان يقوم بنفسه بذلك الشغل الضروري لحياة الكرم فندم ورجع عن رفضه ومضى الى الكرم طارحا عنه الكسل والخمول فشمر عن ساعديه وظل يشتغل حتى المساء .

وهكذا فان الاصغاء لسماع كلمة الملكوت لا ينفع ما لم يتزين بالعمل الصالح . لأن الموافقة بالكلام دون العمل ومن غير أن يرتد الانسان المتكلم عن اعوجاج حياته الماضية وينوي نية صالحة على تجديد قلبه وروحه — لا تجدي صاحبها شيئاً . قال يسوع « كل من يسمع كلامي هذا ويعمل به يشبه رجلا حكيما بنى بيته على الصخر . فنزل المطر ، وجرت الانهار ، وهبت الرياح ، واندفعت على ذلك البيت ، فلم يسقط لأن أساسه كان على الصخر . وكل من يسمع كلامي هذا ولا يعمل به ، يشبه رجلا جاهلا بنى بيته على الرمل فنزل المطر وجرت الانهار ، وهبت الرياح ، وصدمت ذلك البيت ، فسقط ، وكان سقوطه عظيما . »

وإننا نرى مثل هذا التعليم في مثل الزارع « خرج الزارع ليزرع زرعه ، وفيما هو يزرع ، سقط بعض على الطريق ، فاتت طيور السماء وأكلته . والبعض سقط على أرض حجرة حيث لم يكن له تراب كثير ، فللوقت نبت إذ لم يكن له عمق تراب ، وعندما أشرقت الشمس احترق ، وحيث لم يكن له أصل يبس . وبعض سقط بين الشوك ، وطلع الشوك فخنقه فلم يعط ثمراً . وبعض سقط في الارض الجيدة ، فارتفع ونمى وأعطى ثمراً » هذا هو مثل الزارع الذي لم يفهمه الاثنا عشر فاضطر يسوع إلى أن يفسره لهم بنفسه قال « ان الزرع هو كلمة الله . والذي زرع على الطريق هو كل من يسمع كلمة الله ولا يفهمها فيأتي الشرير ويختطف ما قد زرع في قلبه لكي لا يؤمن ويتخلص من خطاياه . والذي زُرع على الارض الحَجِرة هو الذي يسمع الكلمة ويقبلها من ساعته . ولكن ليس له فيه أصل وإنما هو إلى حين . فاذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فللوقت يشك . والذي زُرع بين الشوك هو الذي يسمع الكلمة وهمّ هذا الدهر وخداع الغنى والملذات في الحياة تخنق الكلمة في قلبه فلا يثمر أثمار الكمال . والذي زُرع على الارض الجيدة فهو الذي يسمع الكلمة بنقاء قلبه وصفاء نيته فيفهمها ويحفظها إلى أن تثمر أثمار الفضيلة بالصبر والثبات » ولذلك لا يكفي أن نسمع الكلمة فقط بل يجب أن نفهمها ونعمل بها وعلى الذي يقبلها أن لا يخفيها في قلبه ويحبسها عن اخوانه

في الانسانية . لأنه أي سراج يؤتى به ليوضع تحت المدّ أو تحت السرير ؟ أليس الأجدر بالنور أن يوضع على مكان مرتفع في وسط البيت حتى أن الداخلين اليه يبصرونه وبنوره يهتدون ولا يعثرون ؟

ذلك يشبه مثل أمير أراد أن يسافر إلى كورة بعيدة فدعا اليه عبيده الثلاثة وأعطى كل واحد منهم وزنة واحدة لكي يشتغلوا بها لما يؤول إلى خيرهم وخير الناس أجمعين . وعند عودته دعاهم اليه وحاسبهم فدفع اليه العبد الأول إحدى عشرة وزنة لأنه قد تاجر بهذه الوزنة فربح بها عشر وزنات غيرها ، فاقامه الأمير وكيلا على كل أمواله . ثم جاء الثاني ودفع اليه ست وزنات ، لأنه لم يقدر أن يربح اكثر من خمس وزنات . أما العبد الثالث فتقدم وهو يرتجف خوفاً وقدم له الوزنة الواحدة التي قبلها ملفوفة بمنديل وقال له «يارب ، قد علمت أنك رجل قاس تحصد من حيث لم تزرع وتجمع من حيث لم تبذر ، فخفت وذهبت فدفنت وزنتك في الأرض » فاجاب سيده وقال له « أيها العبد الشرير الكسلان ، انني من فمك ادينك . خذوا منه الوزنة واعطوها للذي عنده الاحدى عشرة » لكن ! أليس له ما يكفيه ؟ فزاد قائلا « لأن كل من له يعطى فيزداد ومن ليس له فيؤخذ منه ما يخيل اليه انه له » واما العبد البطال فالقوه في الظلمة الخارجية حيث البكاء وصرير الاسنان .

إن الذي يقبل الكلمة يجب ان يضاعف ثروته بها . واما الذي

يحظى بكنز عظيم فيتركه من غير ان ينتفع او ينفع به فانما الاجدر ان ينزع منه الكنز ويعطى لمن يعرف كيف يستثمره للخير . ولذلك فان الذي لا يزيد على ما لديه من الثروة الروحية ينزع ما عنده في الحال ويعطى لذلك الذي قد ضاعف ما قبله من الثروة والنعمة . واما الذين لا يستخدمون الثروة الروحية ثروة الكلمة الحية وكنوزها ، فلا يمكننا ان نسميهم فقراء ونحن عليهم لانهم في فاقة وعوز ، بل انما هم زنادقة قد اقفرت قلوبهم من حياة الايمان المنعشة ، وحراثون كسالى مترخون عن القيام بواجباتهم ، قد دفع اليهم اخصب حقل في هذا الوجود فلم يشاءوا ان يستثمروه وينتفعوا بخيراته . لكن طوبى لذلك الوكيل الأمين الذي يجده سيده مواظبا على عمله بامانة واخلاص يؤدي للجميع ما يصيبهم من الحصاد بالحق والانصاف . ولكن ان قال ذلك الوكيل في قلبه ان سيدي يبطيء في قدومه ، فجعل يضرب العبيد والاماء ويأكل ويشرب ويسكر ، يأتي سيده في يوم لا ينتظره وفي ساعة لا يعلمها ويفصله من خدمته جاعلا نصيبه مع الكافرين والخائنين .

فان العبد الذي لا يعلم ارادة سيده ليعمل بها ، فيفعل عن جهل منه ما يخالف رغبات سيده ، يجب أن يقاص ولكن قصاصا احف من قصاص العبد الذي يعرف ارادة سيده ويخالفها — فان مثل هذا يجب ان يطرد من شركة سيده ويجرد من عمله في الحال .

فان حاملي الكلمة لا عذر لهم اذا لم يكونوا في مقدمة المطيعين والعاملين بوصايا الله . لان كل من يودعونه كثيراً يطالبونه بأكثر .

انتهى الجزء الاول من حياة المسيح

ويليه الجزء الثاني وهو يبدأ بفصل « الابن الشاطر » وقد تزيد صفحاته على صفحات الجزء الاول ٥٠ صفحة او أكثر ، وسنجعله مجلداً أول من مجلدات الخالدات في عامها المقبل ان شاء الله . اما المجلد الرابع من الخالدات عن هذه السنة فيصدر في حينه وسيحمل للقراء مئات المقالات الصغيرة الممتلئة حكمة وعلماً فليرقبه القراء في حينه ولينتظروا الجزء الثاني من حياة المسيح في فجر السنة الثالثة للخالدات ولهم شكرنا الجزيل .

محتويات هذا الجزء

صفحة

٥ بيان وشكر
٧ المتمرد المصلح والابن الشاطر
٩ جيوفاني پاپيني
٤٠ كلمة المترجم
٤٦ مقدمة
٨٧ المغارة
٨٩ الثور والحمار
٩٢ الرعاة
٩٥ المجوس الحكماء
٩٩ اكتافيوس اوغسطوس
١٠٤ هيرودس الكبير
١٠٧ الابرياء
١١٠ الهرب الى مصر
١١٤ الضائع يوجد
١١٨ النجار
١٢٣ الأبوة
١٢٧ الحقل
١٣٠ العهد القديم
١٤٢ الانبياء
١٤٨ الذي يأتي بعدي
١٥٥ نبي النار
١٥٩ البشارة الاولى
١٦٤ اليقظة
١٦٩ المعمودية
١٧٢ البرية
١٧٦ المجرّب
١٨٩ العودة من البرية
١٩٣ ملكوت الله
٢٠٠ كفر ناحوم
٢٠٦ الفقراء
٢١٣ الاربعة المدعوون أولاً
٢٢٠ الجبل

٢٢٣ طوبى للمساكين
٢٢٦ طوبى للودعاء
٢٢٧ طوبى للحزانى
٢٢٨ طوبى للجياع والعطاش الى البر
٢٢٩ طوبى للرحماء
٢٢٩ طوبى لانقياء القلوب
٢٣٠ طوبى لفاعلي السلامة
٢٣١ طوبى للمضطهدين من اجل البر
٢٣٢ طوباكم اذا عيروكم
٢٣٥ الاحجية الالهية
٢٤٥ قد قيل
٢٥٢ اما انا فاقول
٢٦١ لا تقاوموا الشرير
٢٦٧ ضد الطبيعة
٢٧١ قبل المحبة
٢٨٣ اخيل وفريام
٢٩٥ أحبوا
٣٠٠ الامتحان الاخير
٣٠٥ أبانا
٣٠٩ آيات عظيمة
٣١٤ العميان يبصرون
٣٢٠ جواب ليوحنا
٣٢٤ ياطاليتا قومي
٣٢٨ يقظة لعازر
٣٣١ عرس قانا
٣٣٦ التينة الملعونة
٣٣٩ الخبز والسمك
٣٤٥ يسوع الشاعر
٣٤٩ الخميرة
٣٥٣ الوليمة
٣٥٩ الباب الضيق

. . . .

232.9:P21hA[redacted]:v.1:c.1
بشير ،انطونيوس (الارشمندريت)
حياة المسيح
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01076452

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت

232.9
P21hA[redacted]
v.1

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
LIBRARY

2.9
hA8
C.1